مكتبة

دانيال كوهين

الإنسان الرّقمي
والحضارة القادمة



ترجمة:
د. علي يوسف أسعد

صفحة
7

HOMO NUMERICUS,

LA “CIVILISATION” QUI VIENT

by Daniel Cohen

الإنسان الرقمي

و«الحضارة» القادمة

HOMO NUMERICUS,

LA "CIVILISATION" QUI VIENT

by Daniel Cohen

الإنسان الرقمي

و«الحضارة» القادمة

دانيال كوهين

ترجمة : د. علي يوسف أسعد

صفحة





كتاب

الإنسان الرقمـي

المؤلف

دانيال كوهين

الطّبعة الأولى:2022

التّرقيم الدّوليّ

978-603-8387-28-3

رقم الإيداع

1444/5671

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان: الجبيل، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

«وأنت تعلم أنه يمكنك الوثوق بها

لأنها لامست جسدك الرائع بعقلها.»

(ليونار كوهين)

الفهرس

مقدمة 9

الجزء الأول: الوهم الرقمي 17

I. الجسد والعقل 18

المدمّر 19

العقل والعواطف 24

خطأ ديكارت 31

الذكاء الاصطناعي 39

II. العقاب وإفساد العقل 49

الفكر المتوحّش 51

رأسمالية المراقبة 62

III. بانتظار الروبوتات 71

موت الملوك 73

تصنيع الخدمات 77

الروبوت المفكر 84

قضية القرن 95

IV. التخلخُل السياسي 101

النمو المُفقر 103

انتحار العمال 111

ثورة سياسيَّة 121
صوت الشعب 131
الجزء الثاني: عودة الواقع........................ 147
V. المُتخيَّل الاجتماعي 148
قانون المئة وخمسين صديقاً 149
قردة البونوبو والشمبانزي 154
أربعة مجتمعات محتملة 168
انتصار الزواج الداخلي 194
VI. الشتاء قادم 211
أزمات القرن الحادي والعشرين........................ 213
الساعة المناخية 222
VII. بعد مئة عام........................ 241
مجتمع الوفرة 243
خاتمة........................ 262

مقدمة

في واحدة من أهم حلقات المسلسل البريطاني الناجح، «المرآة السوداء» Black Mirror، تفقد شابةٌ زوجها الذي مات مقتولاً بحادث سيارة في اليوم الذي اكتشفت فيه أنَّها حامل. وبفضل الذكاء الاصطناعي الذي يتصفح المحادثات الهاتفية ومقاطع الفيديو، ورسائل البريد الإلكتروني الخاصة برفيق دربها المتوفَّى، بُعِثَ من الموت رقمياً، على نحو تام، بنبرة صوته، وحدسه، وإجاباته عن الأسئلة التي تراودها.

تكمن قوَّةُ المسلسل في أنه يبدو مجرّد خطوة تسبق العوالم الممكنة. فهو يستكشف قدرتنا على تقبّل سيطرة التقنيات الجديدة أكثر مما نتقبّل قيودها على أساس الافتراض بأن العوائق الآن ليست تقنية بقدر ما هي اجتماعية ونفسية.

إنَّ الفكرة القائلة بأنه يمكننا إحياء الموتى بالاطلاع على «تاريخهم» مثيرة للقلق تماماً، وموثوق بها تماماً؛ فالبرمجيات المدعومة بالذكاء الاصطناعي (AI) تتغلغل في شخصية مستخدميها. وهي تدرك الحالة المزاجية لكل شخص وتطلعاته من خلال التعرّف على

نغمة صوته، وبشرة وجهه، ومن خلال تحديد ثنايا مفرداته.

فكثير من عمليات التوظيف أو مزاولة عمل في الجامعة تتم عبر الإنترنت، إذ يقوم الذكاء الاصطناعي بالاختيار المسبق لعدد قليل من المرشحين الذين ستتاح لهم الفرصة للقاء المُمتحِن البشري من ضمن قائمة المتقدمين الذين يمكن أن يصل عددهم إلى عشرات الآلاف من الأشخاص. ولا ينجو الحُبّ من هذه الورطة، كما توضح عالمة الاجتماع **إيفا إيلوز** Eva Illouz بشكل رائع، فإنَّ برنامجاً مثل **تندر** Tinder يجعل من الممكن تصنيع العلاقة العاطفية من خلال تقليل الوقت المُستغرق في المغازلة، وقَصر الحب على «العملية الجنسية فقط!» تخضع المشاعر والرغبات والمخاوف لسيطرة الخوارزميات الجديدة التي تقلب العلاقات العاطفية رأساً على عقب. فنحن الآن أمام اقتصاد جديد، وحساسية جديدة، وأيديولوجيات جديدة، إذ أحدثت الثورة الرَّقميّة إصلاحاً جذرياً للمجتمع وتمثيلاته، على غرار التحول الكبير الذي أحدثته الثَّورة الصِّناعية. في المجتمع الجديد، لم يَعُد الأمر يتعلق بشراء الأشياء أو المكانس الكهربائية أو الغسالات، بل باستهلاك الأوهام الفردية أو الجماعية.

من الناحية الاقتصادية، يمكن القول بأنَّ الثَّورة الرقمية «صنَّعت المجتمع ما بعد الصناعي»: هذا الاصطلاح يشير إلى عالم لم يَعُد فيه النشاط الرئيس يتمثّل في زراعة الأرض أو في إنتاج سلع مصنَّعة، بل في العناية بالبشر أنفسهم وبأجسادهم وخيالهم. فكلّ شيء يتم

عبر الإنترنت من أجل أن يكون الترفيه والتعليم أو العلاج أو التودُّد في الحديث أموراً متاحة بأقل تكلفة..

بطريقة غير متوقعة على الإطلاق، كانت جائحة كوفيد بمنزلة حافز لهذا التحوّل الكبير. والفائزون في الأزمة هم أمازون Amazon، وآبل Apple، ونتفليكس Netflix، أي الشركات التي ارتفعت قيمتها السوقية خلال الحظر المنزلي ارتفاعاً صاروخياً. هذه الشركات جعلت من الممكن العمل عن بُعد، والحصول على السلع من دون الحاجة إلى الذهاب إلى متجر، والاستمتاع من دون الذهاب إلى المسرح أو قاعة الحفلات الموسيقية. كان الجميع قادراً على فهم هدف الرأسمالية الرَّقميّة. فهو يكمن في تخفيض تكلفة التفاعلات المادية قدر الإمكان، والاستغناء عن الالتقاء وجهاً لوجه. ولكي تزيد الرأسمالية من الأداء فإنها أبطلت مادية العلاقات الإنسانية، وحرمتها من جسدها.

لعبت الخوارزميات على مستوى المجتمع ككلّ الدورَ الذي كان بالأمس دور «خط التجميع»[1] في تنظيم العمل. لا يقتصر الأمر على تحسين إدارة الجسد فحسب، بل حتى نفسية البشر تمَّت إدارتها

(1) خط التجميع : طريقة إنتاج تقوم على تقسيم مراحل التصنيع إلى خطوات يتم إكمالها في تسلسل محدد مسبقاً، وتعتبر الطريقة الأكثر استخداماً في الإنتاج الضخم. يساعد خط التجميع على خفض تكاليف العمالة لأنه بإمكان أي عامل غير مؤهل أن يتدرب ويؤدي مهمة الإنتاج بسهولة. لقد أدى إدخال خط التجميع في عالم الصناعة إلى تغيير جذري في طريقة التصنيع (المترجم).

علمياً[2].

تُوجّه محركات البحث مستخدمي الإنترنت إلى مواقع التعارف أو الرأي الإلكترونية التي من المفترض أن تناسبهم، وتحبسهم عملياً في معازل (ghettos) رقمية جديدة. إنَّ هوس الرأسمالية الجديدة بالبحث عن إدارة «فعالة» للعلاقات الإنسانية، جعلها تخلق، بطريقة متناقضة تماماً، إنساناً رقمياً Homo numericus غير عقلاني ومتهوّر. هذا ما دفع ميشيل ديسمورجيه Michel Desmurget للقول في كتاب يحمل اسماً مناسباً «**مصنع الأغبياء الرقمي**»: «كثير من الصور والأصوات وضروب الإغواء والاستمالة تسبب عجزاً في التركيز وأعراضاً في فرط النشاط والسلوك الإدماني». فشبكات التواصل الاجتماعي هي أبعد من أن تكون ساحة جديدة للحوار agora[3]، ومكاناً للنقاش يتم فيه تداول الأفكار وتبادلها، إذ إنها تؤدي إلى تطرُّف غير متوقَّع على الإطلاق في النقاش العام .فقد أصبح خطاب الكراهية ضدّ الخصوم القاعدة في هذه «المحادثات» الجديدة. ولا يُبحَث عن معلومات في الإنترنت، بل عن معتقدات تُستهلك مثل البضائع العادية، إذ إنَّ كلّ واحد يكتشف في المتجر الرقمي

---

(2) الإدارة العلمية : نظرية في الإدارة تحلل سير العمل. هدفها الرئيس تحسين الكفاءة الاقتصادية، وخاصة إنتاجية العمل. وهي واحدة من أولى المحاولات لتطبيق علم هندسة العمليات على الإدارة. تُعرف الإدارة العلمية أحيانًا باسم التايلورية، دلالةً على مؤسسها فريدريك وينسلو تايلور. (المترجم)

(3) "آغورا" في اليونان القديمة، والتي كانت عبارة عن مكان يجتمع فيه كافة المواطنين، ومحل للحوار الحر بشأن المستقبل المشترك للناس والمستقبل الفردي لكل منهم، ومكان لطرح أنواع المشاكل كافة، وإيجاد الحلول لها (المترجم).

الكبير الحقيقة التي تناسبه، كما لو كنَّا في مسرحية من مسرحيات لويجي پيراندلو Pirandello.

لكي نفهم التحول الحالي، لا بدَّ من أن نستوعب العملية التاريخية التي يشكِّل هذا التحول لحظة فيها، وإلاَّ سنقع في حتمية تريد للتكنولوجيا أن تحتفظ بمفردها بمفتاح الحضارات. لقد وصلت الثَّورة الرَّقميّة إلى ذروتها بتفكّك المؤسسات التي تشكّل المجتمع الصِّناعيَّ، سواء أكان الأمر يتعلق بالشركات نفسها أو بالنقابات العمالية أو بالأحزاب السياسية أو بوسائل الإعلام. هذه العملية نفسها هي نتاجٌ مباشرٌ للصدمة الليبرالية في الثمانينيات، التي أرادت توسيع مكانة السوق والمنافسة في جميع الاتجاهات الممكنة، من دون وساطة، أو من دون هيئات وسيطة. العمل عن بُعد الذي يمكن أن يكون الإرث الأكثر ديمومة للكورونا هو جزءٌ من عملية تدمير طويلة الأمد للشركات الصناعية سعياً إلى الاستعانة بمصادر خارجية لتأدية المهام الإنتاجية وإضفاء الطابع الفردي على المكافآت.

لكنَّ المجتمع الرقمي ينتعش أيضاً، بطريقة لا شعورية، في ظلّ الثقافة المضادة التي سادت في الستينيات وانتقادها لعمودية السلطة والمؤسسات. وإذا هُزِمَت روح **الستينيات** sixties أمام الثَّورة الليبرالية، فقد أخذت تهيم مثل شبح في شبكات التواصل الاجتماعي، مانحةً إياها صوتاً مناهضاً للنظام بحزم على الرغم من أنَّ تلك الشبكات نفسها أصبحت هي النظام. وكما قال عالم

الاجتماع الأمريكي فريدريك جيمسون Fredric Jameson عن ما بعد الحداثة، فإنَّ الانتقال الحالي يُقدِّم شكلاً من أشكال «التعويض» عن الفشل السِّياسي للثورة الثقافية من خلال تبنّي لغتها. وقد يعبّر العجوز **إسحاق** عن ذلك بقوله : الصَّوْتُ صَوْتُ بوب ديلان، وَلكِنَّ الْيَدَيْنِ يَدَا مارغريت تاتشر[4].

الإنسان الرقميُّ الذي ورثَ هذه السلالة الغريبة هو في الوقت نفسه منعزل ويشعر بالحنين إلى الماضي، ليبراليٌ ومناهضٌ للنظام. لقد وقع في فخ مجتمع تحوَّل إلى تجمُّع من الأفراد الراغبين في الهروب من عزلتهم عن طريق تكوين مجتمعات وهمية. ومع ذلك فإنَّ فكرة مجتمع يُقدّم لكلّ فرد فرصة الانخراط وحده في ألف محادثة موازية هي أسطورة ثقيلة الوطأة. لقد أوضحت السترات الصفراء جهراً أنَّ العزلة الاجتماعية هي أعمق شرّ موجود، وهي السبب الأساسي لحالات الانتحار وفقاً لدوركهايم، أبي علم الاجتماع الفرنسي، وأنَّ الروابط الافتراضية لم تُعالج الرغبة في العيش جسداً وروحاً مع البشر. يقول المحلل النفسي بيير ليجيندر: «يعيش الناس بما يتجاوز قدراتهم النفسية». هذه العبارة قوية ويمكن تعميمها؛ في الحقيقة، يعيش الإنسان فوق إمكانياته، سواء

(4) الطريقة التي يعبّر فيها مؤلف هذا الكتاب الذي بين أيدينا عن الفشل السياسي للثورة الثقافية من خلال تبني لغتها تكمن في الرجوع إلى سفر التكوين وقصة يعقوب عليه السلام الذي احتال لأخذ النبوة والبركة من أبيه إسحاق عليه السلام لنفسه بعد أن انتحل شخصية أخيه كيداً، إذ لم يستطع إسحاق أن يميّز بين ولديه : فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ، فَجَسَّهُ وَقَالَ: «الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلكِنَّ الْيَدَيْنِ يَدَا عِيسُو»." (تك 27: 22). (المترجم)

أكانت نفسية أم بيئية، فالكوارث التي حدثت منذ بداية القرن أظهرت أنَّ هناك شيئاً ليس على ما يرام في «العالم الواقعي». وتتابعت الأحداث بسرعة، فذكّرتنا جائحة الكورونا ثم الحرب في أوكرانيا بطريقتهما الخاصة أنَّ الحياة ليست لعبة فيديو. الخبر السار هو أننا لا نعيش في مسلسل خيال علمي. التكنولوجيا لم تسيطر على حياتنا، فهي وسعت ميول المجتمع وضخّمتها، وجسّدت دوافعنا الكامنة، لكنها لم تخترعها.

كما أنَّ الثَّورة الرَّقميّة وبطريقتها الفاسدة، رسمت بشكل مجسّم أيضاً طريقاً مبهجاً يقود إلى عالمٍ كل كلمة فيه تستحق أن تُسمع، ولا تُثقله حقيقةٌ متسامية. لقد استكشفت تلك الثَّورة طريقة جديدة للحياة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحضارات، أعني مجتمعاً يريد أن يكون أفقياً وعلمانياً ؛ أي إنه يخلو من العمودية التي كانت لا تزال سائدة في المجتمع الصناعي، ومن تديّن المجتمعات الزراعية. ولعله مجتمع أقرب إلى مجتمع الصيادين وملتقطي الثمار، وأقل إيماناً منه بالخرافات.

مازالت الطريق طويلة لنفهم ببساطة ما تعنيه هذه المدينة الفاضلة. ولا شكّ في أن الشبكات الاجتماعية توفّر الأدوات لتحقيق ذلك، ولكن بشرط إعادة اختراع جميع أغراضها. يجب أن نتصدى لهذا التحدي، وأن نستخدم ملكة إبداعنا لتصوُّر مجتمعٍ مرغوب فيه باللجوء إلى الوسائل التي يوفرها المجتمع الذي نريد تركه.

الجزء الأول

الوهم الرقمي

I.

الجسد والعقل

المدمّر[5]

يقول **أرخميدس**: «هبوني رافعة ونقطة ارتكاز وسأحرّك العالم». العصر الرقمي مثل الثورات الصِّناعية التي سبقته، يؤدي بدوره هدفاً بسيطاً: جَعل العمل البشري أكثر «إنتاجية». لكنَّ اختلافه الأساسي مع ثورات الماضي يكمن في الآتي: إنَّ الإنسان نفسه هو الرافعة والكتلة التي يجب رفعها وتحريكها. ويمكن فهم ما يجري من خلال حوارٍ مثير تقشعرُّ له الأبدان يدور بين اثنين من المتخصصين البارزين في مجال الذكاء، يان لو كون Yann Le Cun وستانيسلاس ديهاين Stanislas Dehaene، اللذين يبدوان متأثرين بالخيال العلمي بقدر تأثرهما بالبيولوجيا:

«**ستانيسلاس ديهاين**: أنا شخصياً أؤمن كثيراً بنظام التواصل بين الدماغ والآلات. أعتقد أنَّ وصلَه مع أنظمة إضافية من خلال أنظمة تواصل سريعة، سيجعله أكثر كفاءة، وسيكون من الصعب التغلب على هذا المزيج لفترة طويلة.

---

(5) المدمّر Terminator : فيلم حركة وخيال علمي أمريكي من إخراج جيمس كاميرون الذي كتبه مع منتجة الفيلم غيل آن هيرد، وبطولة آرنورلد شوارزنيجر. يتناول هذا الفيلم الذي عُرض عام 1984 حرباً من الجائز حدوثها في مستقبل تخيّلي تسيطر فيه الآلات على كوكب الأرض. (المترجم)

يان لو كون: نعم !

ستانيسلاس ديهاين: عندما نزرع شريحة في دماغ الجرذ تقوم بضخ إشارات تستجيب لاتجاه المجال المغناطيسي، سيوجّه الجرذ فجأة نفسه بشكل أفضل في الفضاء، على غرار ما تفعله طيور الحمام.

يان لو كون: أنا لا أؤمن بالاستبدال، ولكن بالانتقال. فالتطور الكونيُّ يتجه دائماً نحو مزيدٍ من التعقيد. يتطوَّر الذكاء ولكنه لا يجب أن يظلَّ إنسانياً تماماً».

عند قراءة هذا الحوار، يمكن للمرء أن يؤمن بتأثير فيلم «المدمر» Terminator على الفكر العلميّ. إلاَّ أنَّ فكرة السماح للعقول البشرية بالتواصل مع الآلات لم تَعُدْ مجرَّد وهم. ففي عام 2018 سمحت عملية زرع شريحة في دماغ مريض مصاب بشلل رباعي أن يحرِّك عن طريق الفكر هيكلاً خارجياً يساعده على المشي.(6) وما فتئت الجيوش حول العالم تهتمّ بهذا الوعد بصناعة مزيج من اللحم البشري والسيليكون...

ذكرت صحيفة لوموند (7) تقريراً لا يصدَّق عن «الجندي المعزَّز»، المستفيد من دمج رقاقات تحت الجلد تسمح بإرسال المعلومات أو استقبالها عن بُعد في مسرح حرب. وبحلول عام 2030، يمكن أن تُتَرجَم هذه التطورات إلى إجراء «عمليات للأذن من أجل سماع

---

(6) بفضل فريق الأستاذ بينابيد Benabid في غرونوبل. يمكن أن تكون المواءمة المباشرة بين الدماغ والكمبيوتر جائرة إلى حد ما، وهي تتم من خلال الزرع المباشر لأقطاب كهربائية متصلة بالدماغ أو ببساطة من خلال خوذة مزودة بأجهزة استشعار.
(7) *Le Monde*, 4 décembre 2020.

ترددات عالية جداً أو منخفضة جداً، أو حتى عمليات زرع للسيطرة على نظام أسلحة».

وإذ أدرَكَت لجنة أخلاقيات الدفاع، المكوَّنة من ثمانية عشر عضواً مدنياً وعسكرياً، المناقشات التي قد يتسبب فيها هذا التطور، فقد تقدمت بحوالي عشرين توصية.

يجب إجراء تحليل «الفوائد/ الأضرار» من كل «تعزيز» augmentation للجنود، والذي يشمل الأخذ في الحسبان الآثار الجانبية التي يمكن أن يُحدثها «عدد معين من الموجات أو المكونات الإلكترونية» في الجسم. يجب أيضاً دراسة قابلية عكس هذا التعزيز. وسيُحظَر «أيّ تعزيز منها يمكن أن يتسبب في فقدان الإنسانية أو يتعارض مع مبدأ احترام كرامة الإنسان». كما ستحظر لجنة الأخلاقيات في الجيوش أيضاً أيّ «تعزيز» معرفي من شأنه أن ينتهك الإرادة الحرة التي يجب أن يتمتع بها الجندي في خضم المعركة».

وبالمثل، ينبغي حظر «الممارسات التي تستهدف تحسين النسل أو الجينات وكذلك ضروب التعزيز التي من شأنها أن تعرِّض للخطر اندماج [الجندي] في المجتمع أو عودته إلى الحياة المدنية». إنَّ ذلك يبعث على الاطمئنان !

يجب أن نأخذ بجدية هذه اللحظات التاريخية التي يلتقي فيها الخيال العلمي مع الخيال العسكري. ولطالما وفَّرَت ميادين المعركة مسارح تجريبية لأكثر التقنيات ثورية. الإنترنت نفسه أو النظام

العالمي لتحديد المواقع (GPS) هما مثالان حديثان خَرجَا من صناديق وزارة الدفاع الأمريكية. لكن التقنيات لا تفرض نفسها من دون مبرر، بل يجب أن تلبي حاجة اجتماعية. فنظارات غوغل Google Glasses كانت أعجوبة فنية، لكنها باءت بالفشل. من ناحية أخرى، كان الفيسبوك أداة للطلاب غير الناضجين (يَسمح باختيار أجمل الفتيات في الحرم الجامعي)، لكنَّ تلك الأداة اجتاحت العالم!

في كلتا الحالتين، عليك أن تسأل عن السبب. إنَّ وصف الطريقة التي يعرقل بها المجتمع الناشئ حياتنا وعقلياتنا يتطلب تجنب شِركيْن متماثلَيْن.

الشركُ الأول يكمن في إعطاء التقنيات قوة مستقلة لا تمتلكها بشكل عام. والشركُ الثاني يكمن، على العكس من ذلك، في التقليل من شأن قدراتها المدمرة، والطرق الجانبية التي تقودنا إلى أن نسلكها ردّاً على الاختلالات التي تتسبب فيها هي نفسها. يمكن أن تكون الفجوة كبيرة بين النوايا الأولية للمخترعين والاستخدام الذي يسود في النهاية. وإنّ افتقارنا إلى اليقين إزاء اختراعات جذرية مثل الذكاء الاصطناعي، كما هي الحال بالأمس مع المطبعة أو التلفزيون، يرجع من بين أمور أخرى إلى حقيقة بسيطة هي أن المجتمعات ليست كائنات غير حية. فنطاقها يتغير من جراء الحركات الاجتماعية والسياسية، والوعي العالمي.

إنَّ وصف الثَّورة الرَّقميّة ليس حكاية لمصير معلن أو

مفروض. إنه يعني استكشاف إمكانياتها وقياس مخاطرها لنتيح لأنفسنا الوسائل اللازمة للسيطرة عليها. تلك هي القضية الحقيقية.

العقل والعواطف

بالأمس، من خلال العمل على خط التجميع، أصبح الإنسان آلة. أما اليوم وبوجود الذكاء الاصطناعي، الآلة هي التي تصبح إنسانية. فهي يمكنها أن تزيد من قدراتنا المعرفية أو الميكانيكية، ويمكنها أن تؤدي أيضاً إلى الاستغناء عنا. فلم يعد هناك كثير من عمال التذاكر عند مدخل مترو الأنفاق، ولا شكَّ في أنه قريباً لن يكون هناك المزيد من أمناء الصّندوق عند مخرج محالّ السوبر ماركت. في مواجهة القوة الهائلة لأجهزة الكمبيوتر والذكاء الاصطناعي، ما هي الميزة التي سيدّعيها البشر؟ هل ينبغي زرع الأقطاب الكهربائية في أدمغتهم لمساعدتهم على الاحتفاظ بمكانتهم؟ ما هي المهام التي سيتخصص بها الإنسان ولا تستطيع الآلات القيام بها : الحب أم الضحك أم البكاء، مع المخاطرة بترك الخوارزميات تتولى مسؤولية الذكاء الجماعي للنظام؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب في الحدّ الأدنى إعادة النظر في تلك الأسئلة التي قامت الفلسفة والبيولوجيا بسبر أغوارها لقرون: ما هو الإنسان، ليس قياساً بالآلهة أو الحيوانات، بل قياساً بالتقنيات التي أنتجها هو نفسه؟

ملاحظة بسيطة: الإنسان جسد وعقل، والآلة ليست جسداً ولا

عقلاً. الإنسان عقل في المقام الأول، إذ إنه يُنتج بشكل عفوي نظريات عن العالم. فمن سن التسعة أشهر، يستوعب الطفل قوانين الجاذبية، إذ يرمي ألعابه للتأكد من أنها سقطت تماماً كما هو متوقع. ويمكن للطفل أن يميّز بين الأشياء غير الحية والكائنات الحية في وقت مبكر جداً. وعندما يرى اثنين أو ثلاثة من الفيلة، يدرك على الفور مفهوم هذا الحيوان الغريب ويمكنه التعرّف عليه في كتبه المصورة. الآلة لا تستطيع فعل هذه الأشياء بشكل تلقائي. فهي تحتاج إلى مسح عدة ملايين من الأفيال للتعرف على واحد. ويعرف السائق عديم الخبرة تماماً في القيادة على طريق جبلي أنه يجب عليه تجنب السقوط في الوادي، على الرغم من أنه لم يعش أبداً تجربة السقوط فيه من قبل. أما الآلة فتحتاج إلى ملايين الحوادث الافتراضية لفهم أنه يجب عليها إبقاء السيارة على الطريق. فهي ليست ألمعية بالقدر الذي يمكن أن يتصوره المرء!

تكمن خصوصية البشر في إنتاجهم للنظريات حول كل شيء: حول الريح، والنجوم، وحول أنفسهم ... الحياة قصيرة جداً بحيث لا يمكن أن يُستنتج فهمنا للعالم من التجارب المعيشة وحدها. نحن بحاجة إلى مفاهيم لنتلمس طريقنا في عالم مليء بالألغاز. ويذكّرنا ريتشارد ثالر، الاقتصادي الذي حصل على جائزة نوبل عن أبحاثه في الاقتصاد السلوكي، أنَّ البشر لديهم وقت وذكاء محدودان، ويستخدمون قواعد حدسية للحكم واتخاذ القرار. نحن لا نعيش في عالم مثل عالم بيل موراي Bill Murray في فيلم «يوم

لا حدود له» (1993)، حيث إنَّ الشخص الذي يجسده موراي يستيقظ كلّ صباح ليعيش اليوم نفسه من جديد. وبمجرّد أن يفهم احتمالات العالم كلّها، يمكنه التصرّف وهو على دراية بعواقب أفعاله ويحظى بقلب زميلته، التي تمثل دورها آندي ماكدويل Andie MacDowell . وفي رواية **ميلان كونديرا** «خفة الكائن التي لا تُحتمل»، يسأل البطل **توماس** سؤالاً مشابهاً: «هل من الأفضل أن أكون مع تيريزا أم الأفضل أن أبقى وحيداً؟ لا يستطيع الإنسان قطّ معرفة ما ينبغي عليه أن يعرفه لأنه لا يملك سوى حياة واحدة، ولا يمكنه مقارنتها قطّ بحَيَوات سابقة، ولا تصحيحها وتعديلها في حيوات لاحقة». ويخلص كونديرا إلى أنَّ حياة الإنسان تشبه المسرحية التي يتعين علينا تأديتها من دون أن نكون قد تدربنا عليها أبداً. لا يمكننا العودة للخلف لتصحيح أخطائنا. لذلك يجب أن نتصرف بناءً على حدسنا فقط.

نظرية العقل

لا يفكر البشر بمفردهم، بل مع الآخرين، وفي إطار الكلام معهم. وهكذا يتحدث فرانسيس وولف Francis Wolff عن الطبيعة «الحوارية» للإنسان[8]، ففي المناقشات مع الآخرين، يعمل محاورنا على تحريضنا بكلامه، فنشعر باليقظة. وتُشحَذ عقولنا

(8) F. Wolff, *Le Monde à la première personne. Entretiens avec André Comte-Sponville*, Paris, Fayard, 2021.

عندما نسعى إلى بناء حجج تقنع الآخرين وتمكننا من محاربة أحكامنا المسبقة. علاوة على ذلك، فإننا ننظم تفكيرنا بمفردنا في شكل حوار متخيل مع أنفسنا. وفي هذا الصدد، تُعَدّ مرحلة المرآة التي يتعرف فيها الطفل على نفسه في الانعكاس المرسل إليه، أمراً بالغ الأهمية، فهو يرى نفسه بالصورة التي يراه بها الآخرون. ويشترك البشر في هذه السمة مع الثدييات الراقية أو الرئيسيات. فالشمبانزي يزيل أمام المرآة قصاصات الورق المنثورة على جبهته. ويوجد أيضاً لدى القرد منطقة من الدماغ تتقد عندما نجعله يرى فيلماً يُظهر قروداً مشابهة له. ونودّ الإشارة هنا من قبيل المزاح إلى أمر مثير للفضول أكدَّ عليه عالم البيولوجيا آلان بوشيانتز Alain Prochiantz بقوله إنَّ قرود المكاك تتفاعل أكثر من البشر مع فيلم كاوبوي لـ سيرجيو ليون Sergio Leone ![9]. ولوحظ تنشيط قوي لمناطق الفص الجبهي لدى قرد يُشاهد فيلم «الطيب والشرس والقبيح»[10]، وهو أمر غير موجود أبداً عند الإنسان العاقل.

لكن ذلك الأمر يمدّنا بمعلومات عن أفلام الكاوبوي لـ **سرجيو ليون** أكثر بكثير مما يخبرنا عن أبناء عمومتنا القردة. إنَّ جملة مثل «أَعلمُ أنك تعتقد أنني أفكر فيك» تعبّر عن فكرة (متناقضة جزئياً)

(9) A. Prochiantz, *Singe toi-même*, Paris, Odile Jacob, 2019.

(10) فيلم كابوي إيطالي صدر في عام 1966 وهو من إخراج سرجيو ليون وبطولة كلينت إيستوود ولي فان كليف وإيلاي وألاك بدورالطيب والشرس والقبيح على التوالي.

مفادها أنَّ البشر وحدهم يتمتعون بالقدرة على التخيل. وقد لخص عالِم الأنثروبولوجيا روبن دنبار Robin Dunbar أهمية الأمر تماماً[11]. تُعرَّف القصدية من الدرجة الأولى على أنها قدرتنا على التفكير في محتوى أذهاننا، وهذا ما يتَّضح من استخدام الأفعال (افترَض، وفكَّر، وتساءل، واعتقد)، وما إلى ذلك. ولعلَّ معظم الثدييات والطيور تُصنَّف في هذه الفئة. الحالات الأكثر إثارة للاهتمام هي تلك التي يكون فيها الفرد قادراً على تصوّر الحالة الذهنية لشخص آخر، فيقول: «أَعلمُ أنك تحب المشمش». تُحدّد هذه القدرة مستوى أعلى للقصدية، يُطلق عليه تقليدياً المستوى الثاني. هذا ما يعادل المرحلة التي يصل إليها الأطفال في سن السادسة تقريباً عندما يكتسبون لأول مرة ما يسميه أخصائيو العلوم المعرفية «نظرية العقل». إنهم يفهمون أن الآخر قد يكُونْ لديه أفكار مختلفة عن أفكارهم.

أما جملة «أعلم أنك تعتقد أنني أفكر فيك» فهي تنطوي على قصدية من المستوى الثالث. فإلى أيّ مدى يمكننا المضي قُدماً بهذا الشكل؟ أعطى الخبير الاقتصادي جورج لوينشتاين George Loewenstein المثال الواضح للغاية عن قصدية من المستوى الرابع: لقد كُسر كاحلك وتريدين من زميلتك أن تقلك بالسيارة [المستوى 1]. أنت تفترضين أنها تعلم أنك تتألمين [المستوى 2]. لكن هي نفسها غير متأكدة من أنك تعرفين ما إذا كانت تعرف ذلك

(11) R. Dunbar, *How Many Friends Does One Person Need ?*, Londres, Faber and Faber, 2011.

[المستوى 3]. وبناء على هذا الجهل المفترض، فإنها لا تقدّم لك المساعدة. أما ما تلومينها عليه فهو الآتي: تظاهرها بتجاهل وضعك حتى لا تساعدك [المستوى 4] [12] (مع الأخذ بالحسبان مستويات القصد المتتالية المشار إليها بين قوسين معقوفين).

يجادل دنبار بأنَّ البشر يمكن أن يتطلّعوا إلى قصدية من المستوى الخامس. فالمستوى الخامس يعادل القدرة على القول: أفترضُ [1] أنك تظن [2] أنني أريد [3] أنْ تعتقدَ [4] أنني أنوي تهديدك [5].

إنَّ عبقرية شكسبير تصل بنا إلى هذه المستويات العالية. فهو يستخدم في «عطيل» أربع حالات ذهنية: يريد إياغو من عطيل أن يعتقد أنَّ **ديدمونة** تحب **كاسيو** وأن الأخير يحبها. لكن لا بدَّ وأن شكسبير نفسه يُقنع الجمهور باعتقاد كلّ هذا. ولابدَّ أخيراً، وليس آخراً، أنَّه يتخيل كلّ شيء بنفسه، وأنَّه قادر على استخدام قصدية من الدرجة السادسة على الأقلّ: فهو يريد من الجمهور أن يَفهم أن **إياغو** يريد من **عطيل** أن يعتقد.. إلخ. وحده الإنسان (وليس أي إنسان!) قادر على القيام بمثل هذا العمل الفذّ.

في لعبة المرآة هذه مع أفكار الآخرين، تظهر ميزة إنسانية حصرياً تتمثل في إنتاج الخيال القصصي، فالحيوانات ببساطة لا تستطيع فهم ما تعنيه القصة – ليس فقط لأنها لا تمتلك اللغة الضرورية لذلك، ولكن لأنها ليست قادرة على إدراك ماهيتها. ولو كانت تمتلك اللغة،

(12) قام منظرو الألعاب بتحليل آثارها في النماذج التي تسمى بمستويات k (نظرية المستوى K).

لسلّمت بحقيقة القصة التي تُروى لها، لأنها غير قادرة على فهم قصة حول عالم غير موجود. والشمبانزي الذي يمتلك قدرات معرفية تقتصر على قصدية من المستوى الثاني، قد يتمكن من التفكير بأنَّ «إياغو سيخرج ...»، لكنه لا يستطيع في الواقع أنْ يفهم أنَّ **إياغو** يريد منَّا أنْ نصدِّق أنَّه سيفعل ذلك... وحدهم البشر يستطيعون إنتاج أدبٍ من النوع الذي نربطه بالثقافة. وكما كتبت نانسي هيوستن بشكل جميل في «النوع التخيُّلي» L'Espèce fabulatrice: «لم يتمّ اكتشاف أيّ تجمع بشري، على غرار الحيوانات الأخرى، يفتقر للدين، والمحرَّمات، والطقوس، والنَّسب، والحكايات، والسحر، والتاريخ، ويفتقر للجوء إلى الخيال، أي بلا تخيّلات». إنَّ الميزة النسبية الأولى للبشر، بلغة الاقتصاديين، تظهر هنا: يمكن للإنسان أن يبتكرَ عالماً غير موجود. المشكلة هي أنه يستطيع تصديق ذلك أيضاً.

فالإنسان مبدع وساذج في آنٍ معاً.

خطأ ديكارت

لفهم الدور المحتمل للآلات إزاء البشر، يجب أن نضيف عنصراً حاسماً آخر: الإنسان ليس فقط عقلاً، فهو خلافاً للآلات، يفكّر داخل جسد. ويلخص ميغيل بيناساياغ Miguel Benasayag الأمر بشكل ثاني: «في الجسد يتم نقش العواطف، والدوافع، والذاكرة طويلة المدى، وتتجسّد ذكرى والديّ أو أجدادي»[13].

فكرة أنْ يعمل الإنسان كالإنسان الآلي على حدّ ما كان يُعتقد في القرن الثامن عشر، أو كتجميع لوحدات من المعلومات، على غرار ما اقترحه منظرو علم التحكم الذاتي (السبرنة)، لم يَعُدْ مهمّاً بالنسبة للباحثين. يقول بيناساياغ: «إنها المشاعر هي التي ترشدنا إلى الطعام أو إلى الشريك الجنسي». بالإضافة إلى هذه الاحتياجات الجسدية، فإنَّ لدى الجنس البشري رغبة «جسدية» في المعرفة. على العكس من ذلك، فإنَّ الإجهاد يثبّط القدرة على العمل. الفرد الذي عانى من صدمة انفعالية شديدة، كأن يكون على سبيل المثال قد شَهِد عملية قصفٍ أو تفجيرٍ، سيصاب بالذعر عند رؤيته لعود ثقاب[14].

(13) M. Benasayag, *La Tyrannie des algorithmes*, Paris, Textuel, 2019.

(14) يذكر كتاب The Affect Effect ثلاثة وعشرين نظرية لشرح الرابط المحتمل بين التأثر الوجداني affect والإدراك المعرفي cognition!

في كتابٍ بعنوان «**خطأ ديكارت**» L'Erreur de Descartes، أظهر أنطونيو داماسيو Antonio Damasio أنَّ العاطفة هي التي تمنح الكائنات الحيَّة إمكانية الفعل والتَّصرف. لتوضيح وجهة نظره، يروي داماسيو الحالة الطبية، التي حدثت في القرن التاسع عشر، لشخص اسمه فينياس غيج Phineas Gage الذي مكَّنت أرشيفاته من فهم ما آلَ إليه مصيره..

كان غيج رئيس عمّال في ورشة لبناء السكك الحديدية عندما اخترُق رأسه بقضيب حديدي في سن الخامسة والعشرين إثر خطأ عرضي أثناء استخدام مادة متفجرة. وكانت نهاية القضيب التي اخترقت جمجمة **غيج** تزن 6 كيلو غرام. ومع ذلك، فإنه نجا من الحادثة ويبدو أنه تعافى بعد شهرين. فقد استعاد حاسة اللمس والسمع والبصر. لكن مزاجه تغيَّر، فأصبح يعامل الناس بازدراء ويتفوَّه بكلام فاحش (وهو ما لم يكن يفعله من قبل)، ولم يَعُد يبدي الاحترام لأصدقائه. «بقي جسد **غيج** على قيد الحياة وبصحة جيدة، لكنّه أصبح مسكوناً بروح جديدة».

وهكذا بدا للهيئة الطبية أنه إذا تعرّض المرء لإصابة في دماغه، فإنَّه يمكن أنْ يفقد احترامه للأعراف الاجتماعية، حتى ولو لم يطرأ أي تغيُّر على الوظائف الفكرية واللغة. كما حدث تغيير مفاجئ آخر في شخصية **غيج**، إذ إنه قام بتصميم عددٍ من المشاريع، ولكنه فشل في تنفيذ أيّ منها، وفقد قدرته على التنبؤ بالمستقبل تماماً.

وتحدث داماسيو عن مريض اسمه **إليوت**، أصيب بورم في المخ،

وعانى من الاضطرابات نفسها التي عانى منها **غيج**. فعلى الرغم من قدراته العقلية السليمة، كان من المستحيل عليه اتخاذ القرارات والتخطيط بكفاءة لنشاطه المقرَّر أن يقوم به في الساعات القليلة المقبلة. وكان الخلل الذي أصاب القشرة الجبهية الأمامية في الدماغ هو المسؤول عن ذلك مرَّة أخرى. كان إليوت قادراً على معرفة الأشياء، ولكنَّه كان فاقداً للشعور. كان بإمكانه وضع خطط معقدة، ولكن لم يكن بإمكانه تحديد أيّ منها سيختار. يبدو أنَّ توقعنا لمستقبل مجهول، وبرمجة أفعالنا وفقاً لذلك، وكذلك تنظيم حياتنا في المجتمع، يتعلق بشكل وثيق بقدرتنا على أن نعيش تجربة المشاعر وأن تنفطر قلوبنا حزناً، أو بقدرتنا على الشعور بالكراهية أو التوتر أو الراحة...على البشر أن «يشعروا» بالأشياء قبل أن يقرروا ما هو مناسب لهم. معظم الأسئلة المهمّة مثل «هل يجب أن أقبل بهذه الوظيفة في هذه المدينة ... »، لا تُحلّ بالمقارنة بين المزايا والمساوئ، بل من خلال المشاعر التي تهزّ أجسادنا. فالرأي للجسد الذي يقول: «هيا! ».

كان سبينوزا على حق

ولئن شجب داماسيو في كتابه الأول «خطأ ديكارت»، فقد شرح في عمل آخر أنَّ «سبينوزا كان على حق». باروخ سبينوزا هو المفكر الذي ألقى الضوء ببراعة على هذه الوحدة غير القابلة للتجزئة بين الجسد والعقل.

بالنسبة إليه، الإنسان ليس محكوماً بالعقل بل بالرغبة، التي

يصفها بأنها «النزوع للحفاظ على الكينونة».

الرغبة ليست عاطفة. فالعاطفة تنشأ من رغبة غير مناسبة مرتبطة بأفكار «غير ملائمة». إذا أحببتَ ومُتَّ من الغيرة، فذلك لأنَّ العلاقة ليست جيدة. والحكمة تتمثل في تحويل عواطفنا إلى أفعال تجعلنا نتقدم، وتمنحنا مزيداً من قدرتنا على الفعل، من خلال فهم ما هو مناسب لنا.

اقترح سبينوزا تصنيفاً للعواطف بناءً على تقسيم بسيط: الفرح والحزن. يصبح الفرح عارماً عندما تزداد قدرة الإنسان على الفعل. من ناحية أخرى، يحدث الحزن عندما يشعر الانسان أنه يفتقر للقدرة على الفعل. وغالباً ما يجهل الناس الأسباب التي تدفعهم إلى الرغبة فيما يرغبون فيه. ومع ذلك، فهم قادرون تماماً على ربط رغباتهم بأسباب خارجية أو داخلية. هكذا يعرّف سبينوزا الحب على أنه فرح ترافقه فكرة سبب خارجي[15].

الارتباط الوثيق بين الجسد والعقل يتشكل في هذا الارتباط بين الشعور والفكرة المصاحبة له، التي تعطيه معناه وتحدّدنا كبشر. بالنسبة إلى علماء الأحياء مثل داماسيو، فإنَّ العواطف هي آليات منظمة. يذكّرنا الحزن بقيمة الحياة، وينبهنا الخوف بوجود الخطر.

وفي أعقاب **بول إيكمان** Paul Ekman (الذي ألهمت نظرياته الفيلم الرائع الذي يحمل عنوان «العكس بالعكس» -Vice

(15) بشكل متماثل، الكراهية هي حزن ترافقه فكرة سبب خارجي. الرضا هو فرح ترافقه فكرة سبب داخلي.الندم هو حزن ترافقه فكرة سبب داخلي.

versa)، تمّ التركيز على ستة مشاعر أساسية بشكل عام: الفرح والحزن والخوف والغضب والمفاجأة والاشمئزاز.

وضح **إيكمان** أنَّ هذه المشاعر موجودة في جميع الثقافات. فهو نفسه درس قبائل بابوا غينيا الجديد[16] وأظهر لمحاوريه صوراً لوجوه تعبّر عن كلٍّ من المشاعر الستَّةِ الأساسية، فتعرّفوا على الفور على المشاعر كلها. استنتج إيكمان من هذا أنَّ المشاعر الأولية محدَّدة سلفاً، وهو ما تؤكده أيضاً حقيقة أنَّ المكفوفين خلقياً، من دون خبرة بصرية، يبتسمون ويبكون تماماً مثل المبصرين. ثم ينتج عن الانغماس في المجتمع مشاعر أخلاقية. يلعب الشعور بالذنب أو الخجل أو الامتنان بطريقته الخاصة دوراً منظّماً في الحياة داخل المجتمع. وينشأ الشعور بالذنب عندما نقلق بشأن عواقب أفعالنا على الآخرين[17]. يمثّل العار وطأة الحكم الاجتماعي، فهو يعبّر عن الخوف من الطلاق بين القيم الشخصية وقيم الآخرين. أخيراً، يشهد الامتنان على الاعتراف بالآخرين، مما يعزّز التعاطف والتراحم والكرم. إنَّ المشاعر الأخلاقية هي الضوابط الناظمة للحياة في المجتمع[18].

---

(16) دولة تقع في النصف الشرقي من جزيرة بابوا (ثاني كبرى الجزر في العالم) في جنوب غرب المحيط الهادي.(المترجم)

(17) تنشأ المشاعر الأساسية من العام الأول، ولا تظهر المشاعر الأخلاقية إلاّ بدءاً من السنة الثانية، أي ما بين السنة والنصف والسنتين. وعند بلوغ الأطفال الصغار 21 شهراً، يصبح لديهم فكرة عن معنى العدل والظلم.

(18) منذ عمل عالمة الأنثروبولوجيا روث بنديكت في اليابان، تم تمييز الثنائية (الذنب/ الكبرياء) culpabilité/fierté من الثنائية (العار/ الشرف)

نظراً لأننا معرَّضون للشعور بهذه الحزم من المشاعر، فإنَّ تفكيرنا ليس تحليلياً كما يحلو لنا أن نعتقد. نزوعنا الذي لا هوادة فيه لإنتاج النظريات، ولسرد حكاية العالم من حولنا وحكايتنا، ينتهي به الأمر بخيانتنا.

عالم النفس **دانيال كانيمان** Daniel Kahneman، الحائز أيضاً على جائزة نوبل لعمله في الاقتصاد السلوكي، يقيم تعارضاً بين «الفكر السببي»، المسكون بهاجس البحث عن أسباب ما يقع من الأحداث، والتفكير الإحصائي الذي يحلل الحقائق «كما هي عليه»[19]. يقول كانيمان إنّ التفكير السببي مُطَمئِن، فهو يضمن النجاح دائماً. يعطيك جارُك انطباعاً بأنه مشغول البال وستتخيل سريعاً سبب ذلك: تَركته زوجته وفقدَ وظيفتَه... وعند حديثك مع حارس البناية، ستجد بسرعة تأكيداً لحدسك، أيّاً كان. نحن لا نفكر بطريقة «محايدة» بحثاً عن حقيقة مطلقة، بل نبدأ من الاستنتاجات التي نؤمن بها للبحث عن المسار الذي يصادق عليها.

التفكير السببي هو عزاء لأنه يجعل العالم مفهوماً، لكنه يؤدي للإيقاع بنا في مصيدة تفكير مترابط بشكل خاطئ. تبدو لنا

---

honte/honneur . الثنائية الأولى تحدد القيمة الأخلاقية المُسندة (بشكل مباشر) لأفعاله، والثانية تتعلق بالفكرة التي يكونها المرء عن حكم الآخرين. انظر :
R. Benedict, *Le Chrysanthème et le Sabre* (1946), Arles, Éd. Philippe Picquier, 1998.

(19) D. Kahneman, O. Sibony, C. Sunstein, *Noise, A Flaw in Human Judgement*, tr. française Odile Jacob, Paris, 2021.

العبارات المبتذلة مثل «لقد فشل لأنه كان يفتقر إلى الخبرة» أو «لقد نجحوا لأن لديهم قائداً كاريزمياً» أكثر إثارة للاهتمام من بيان إحصائي بارد يستنتج بأنه «في ضوء العاملين X وY ، كانت لديهم فرصة واحدة من أصل ثلاثة لاجتياز الاختبار». التفكير السببي يجعلنا نعتقد أن العالم يمكن التنبؤ به بشكل أفضل مما هو عليه في الحقيقة. نحن نسخر من الخبراء عندما يخطئون، ولكن من دون أن ندرك أن مهمتهم غالباً ما تكون أكثر تعقيداً، وأكثر غموضاً، مما نحن على استعداد للاعتراف به. يعكس هذا الموقف شهيتنا للتفكير «السريع» وكراهيتنا للتفكير التحليلي الشاق الذي يتطلب تجميع الأرقام وإجراء الاختبارات والحرص على تجنب الاستنتاجات المتسرعة.

أطلق كانيمان في كتاب يقيّم فيه أعماله اسماً على هذين النظامين الفكريين: **النظام 1** هو النظام السريع؛ **النظام 2** هو الذي يبذل جهداً في تقويم الحجج، للتحقق من البراهين[20]. في معظم الأحيان، نعتمد على **النظام 1** ، مما يجعلنا نبحث عن تفسيرات مرغوبة بدلاً من تلك التي تنبع من الوقائع. فالعقل البشري، الذي ندين له بالعلوم الحديثة والبيولوجيا وميكانيكا الكم، هو قبل كل شيء عرضة للتفكير التبسيطي. ونحتاج دائماً إلى أن نكون مع أو ضد شيء ما، فنحن نفضل القفز إلى الاستنتاجات والالتزام بها.

(20) D. Kahneman, *Système 1, système 2 : Les deux vitesses de la pensée* (2011), trad. française Flammarion, Paris, 2016.

نحن لا نتردد بالتأكيد في البحث عن إقامة دليل على أفكارنا، لكن هذا البحث انتقائي. إنه يعمل على إلغاء الأدلة التي تحرجنا. يعتمد **النظام 1** على الاختصارات التي تحوّل المشكلة المعقدة إلى مشكلة بسيطة، مع المخاطرة بارتكاب أخطاء في المنطق[21].

وهكذا، عندما يُسأل الناس عن احتمال أن يكونَ الإنسان الودود في مجموعة معينة امرأة، والإنسان الصارم رجلاً، فإنَّ معظمهم يجيبون انطلاقاً من الصور النمطية دون بذل أيّ عناء للتحقق من عدد النساء والرجال الذين تضمهم المجموعة، والذي من شأنه على الأقل أن يتمتع بميزة تحديد أحكامهم المسبقة وفقاً لمبدأ الاحتمالات. هذا المبدأ يتولى أمره **النظام 2**، ولكنه نظام بطيء وكسول، وفي حالة سُبات دائم.

(21) D. Kahneman, A. Tversky, « Judgment under uncertainty : heuristics and biases», *Science*, 1974.

الذكاء الاصطناعي

ليس للآلة جسد ولا مشاعر. كما أنها تفتقر للروح، فهي لا تمتلك المخيلة الإبداعية للبشر. وعلى نحو ما أوضحه مارك ميزارد Marc Mézard تماماً، فهي لا تستطيع تعميم معرفتها على مواقف مجهولة[22].

ومع ذلك، فهي تتمتع بعدد قليل من الأسلحة المميزة. فهي تستطيع إجراء عمليات لا يمكن للبشر العاديين القيام بها أبداً. مثل تقليب ملايين الصفحات في جزء من الثانية بحثاً عن اقتباس. وفي حالة لعبة الشطرنج أو لعبة «الغو» Go، يمكن للذكاء الاصطناعي أن يعلّمنا في غضون ساعات قليلة استكشاف ميادين من الاحتمالات التي تتجاوز قدرات أفضل اللاعبين في العالم. يمكن للآلة أن تلعب عدداً لا يحصى من الألعاب، أكثر بكثير مما يمكن لأيّ إنسان أن يفعله.

هذا ما قاله يان لوكون Yann LeCun في تعليق توضيحي على هزيمة أحد أعظم لاعبي «الغو»: «البشر لا يلعبون بشكل جيد»،

(22) لخص م. ميزار المسألة بمثال واضح . فالخوارزمية قد تكون قادرة على محاكاة مسار كرة القدم شريطة أن نجعلها تتمثل ملايين الركلات الكروية من الطبيعة نفسها. ومع ذلك، فإنها لن تكون قادرة على تصحيح المسار المتوقع إذا اصطدمت الكرة بأخرى. لا تعاني المعرفة العلمية من هذه المشكلة: فهي تنقل المعرفة إلى مواقف جديدة، لأنها مرنة. انظر :

M. Mézard, *Le Débat*, no 207, 2019-5

وهو يعني أنَّ اللعبة في الواقع معقدة للغاية بحيث لا يستطيع البشر الخروج عن الخطوط العريضة التي أرستها التقاليد. على العكس من ذلك، يمكن للذكاء الاصطناعي أن يلعب عدداً لا حصر له من الألعاب «لاكتشاف» استراتيجيات الفوز، مثل بيل موري Bill Murray في فيلم «يوم لا ينتهي» Un jour sans fin. الذكاء الاصطناعي هو ذكاء حفظيّ. فهو يعمل من خلال تعلم المواقف المحتملة، من دون وجود مفاهيم لتنظيرها. وقد لخص سيرج أبيتبول Serge Abiteboul «التفكير الخوارزمي» باستخدام مثال معبّر، وهو مثال النمل. يستخدم النمل في بحثه عن الغذاء خوارزمية بسيطة إلى حدّ ما للتوجه في المكان. يذهب النمل الكشفيّ بشكل عشوائي في اتجاهات عدّة. وعندما تكتشف إحدى النملات الغذاء، فإنها تعود إلى المجموعة بعد أن تترك على غرار «عقلة الإصبع» [23] أثراً لمسارها: فهي تترك وراءها على الطريق «الفيرومونات»[24] التي تجذب النملات الأخرى. هذه النملات تتبع النملة الأولى، وتترك بدورها الفيرومونات التي «تعزّز» جاذبية الطريق. وإذا كان المسار أقصر، فإنَّ النملات التي تسلكه ستقوم بإجراء المزيد من الرحلات ذهاباً وإياباً، مما يزيد من جاذبيته. ومن دون أيّ وعي بالذات أو بالمجموعة، حتى بالمعنى البعيد جداً الذي يمكن للبشر أن يمنحوه لهذا المصطلح، يقدّم

---

(23) عقلة الإصبع Le petit Poucet : حكاية خرافية شهيرة ألفها الكاتب شارل بيرو ونشرت عام 1697. (المترجم)

(24) مواد كيميائية يستخدمها النمل للاتصال.

النمل حلاً للسؤال الوحيد : أين ينبغي الذهاب للحصول على الغذاء ؟

وبالطريقة نفسها، تشير الخوارزميات إلى أنَّ أحد المسارات يُعدّ واعداً أكثر من غيره، من دون فهم أي شيء مما يعنيه.

تجمع الخوارزميات بين تفضيلات بروست وديستويفيسكي من دون أية معرفة أدبية، فهي تكتفي بملاحظة أن محبّي أحدهما هم أيضاً محبو الآخر. ثمة ذكاء غبي يعمل هنا في الواقع.

تعلُّم التعليم

يسمح الذكاء الاصطناعي لآلة الأسلاك المعدنية والكهربائية بالتعرف على الصورة، ونسخ الصوت من لغة إلى أخرى، وأتمتة قيادة السيارة، وممارسة لعبتي الشطرنج، و«الغو»، وألعاب الفيديو..

بفضل التطور الهائل في القوة الحاسوبية لأجهزة الكمبيوتر، تمّ إحراز تقدّم مذهل من خلال بناء خوارزميات تحاكي بنية الدماغ البشري [25]. ويحتوي هذا الدماغ على 86 مليار خلية عصبية، أي بقدر عدد النجوم في مجرتنا. ولكنَّ عددها ليس مهمّاً بقدر جودة

---

(25) يعطي ماكس تيجماك القياس الآتي: منذ خمسين عاماً، انخفضت تكلفة المعلومات بنسبة تجعل مدينة نيويورك تكلّف صاحبها 10 سنتات فقط إذا تم تطبيق الحسم نفسه عليها. وهي بالنتيجة ستكون أرخص بـ 10000 مليار مرة مما هي عليه في الواقع. يتم تخفيض تكلفة الحساب بمقدار مرتين كل ثمانية عشر شهراً. "أي مليون المليون (عشرة مرفوعة للأس 18) منذ ولادة جدتي" !

الاتصالات القائمة بينها [26]. فكلّ خلية عصبية متصلة بآلاف أخرى من خلال تقاطعات تسمى المشابك العصبية synapses، وتستخدم بتواتر وكثافة متفاوتة. يتمّ التخلص من الاتصالات غير المستخدمة. وعلى العكس من ذلك، عندما يتم تشغيل خليتين عصبيتين في الوقت نفسه، فإنَّ المشابك العصبية تخلق أو تقوي الروابط التي توحّدها. إنها تشكل أساس ذاكرتنا وشخصيتنا، وتحتفظ بأثر اللحظات التي تخللت حياتنا [27].

من أين يأتي الذكاء الاصطناعي الحديث؟ فضَّل الخبراء الأوائل في البداية المنطق «الشبيه بالشجرة». يحاول هذا المنطق تحديد الشجرة انطلاقاً من جميع التركيبات الممكنة: إذا لعبتُ A، فإنه يمكنني حينئذٍ أن ألعب B أو C. وقبل أن ألعبA، يجب أن أفهمَ معنى B وC، مما يؤدي إلى التفكير أيضاً في معنى D وE وF وG والتي تصبح ممكنة بفضلB وC. يشير المتخصصون إلى هذا المشروع البحثي على أنه ذكاء اصطناعي قديم وجيّد good old fashioned AI، أو اختصاراً GOFAI. وبفضل هذه القدرة المنطقية، فازت الآلة «ديب بلو» على بطل الشطرنج غاري كاسباروف، حيث لعبت بقدرة تقييم بلغت 200 مليون موقف شطرنجي في الثانية، وذلك باستخدام تقنية كلاسيكية نسبياً وهي شجرة البحث.

(26) على عكس ما تذهب إليه الأسطورة، كان وزن دماغ أينشتاين 1.23 كغ فقط، مقارنة بمتوسط قدره 1.4 / 1.5 كغ.

(27) السلسلة الكاملة للكائنات الحية تعمل وفق هذا النموذج ، بدءاً بدودة الأرض التي تحتوي بالضبط على 302 خلية عصبية إلى إنسان الغاب الذي يحتوي على 32 مليار خلية.

ومع ذلك، فقد ثَبُتَ أنَّ هذه الطريقة شاقة للغاية، حتى بالنسبة لأجهزة الكمبيوتر. بدلاً من محاولة إعادة إنتاج جميع التسلسلات الممكنة لحركة تُلعَب على رقعة الشطرنج، قام متخصصو الذكاء الاصطناعي ببذل المزيد من الجهود في محاولةٍ لمحاكاة الطريقة التي يعمل بها الدماغ البشري نفسه. وهذا ما يُسمَّى بطريقة «التعلُّم المتعمّق» deep learning، المستوحاة من الشبكات العصبية لفهم عمليات التعلّم لدى البشر[28]. في كل مرّة يكتشف الكمبيوتر استراتيجية تجعله يتطور (للفوز باللعبة)، فإنَّه يتذكر الارتباطات الفائزة، مثل نقاط الاشتباك العصبيِّ لدى البشر، ويمكنه بناء منحنى الخبرة الخاص به.

نقوم بتعليم الآلة التعرّف على قطة من خلال إظهارنا لها لملايين القطط و«مكافأتها» عندما تنجح. وينسحب الأمر على مباريات الشطرنج. بل إنَّ ما يسمى بالتعلم «غير الخاضع للإشراف» يذهب إلى أبعد من ذلك. إنَّه يترك الآلة تتدبر الأمر بنفسها (من دون مكتبة مسبقة للمباريات الرابحة) بإعطاء النتيجة «نعم» أو «لا» فقط عندما تفوز. هذه الطريقة هي أصل نجاحات برنامج AlphaGo Zero الذي انتصر على أفضل لاعبي «غو» Go في العالم. في الآونة الأخيرة، علِمنا أيضاً أنَّ الذكاء الاصطناعي الذي صمَّمته شركة

---

(28) التعلم المُتعمّق أو التعلم العميق هو مجال بحث جديد يتناول إيجاد نظريات وخوارزميات تتيح للآلة أن تتعلم بنفسها عن طريق محاكاة الخلايا العصبية في جسم الإنسان. وأحد فروع العلوم التي تتناول علوم الذكاء الاصطناعي. ويعد فرعاً من فروع التعلم الآلي (المترجم)

باريسية ناشئة، وهي NukkAI، قد تفوَّق على أفضل ثمانية لاعبي «البريدج» في العالم. كانت لعبة الورق المعقدة هذه «واحدة من آخر الأسوار المُقاوِمة للذكاء الاصطناعي [29]».

لقد طوَّر يان لو كون Yann Le Cun، وهو أحد الرُّواد في هذا المجال، مثل هذه الشبكات العصبيَّة لتصميم نظام التَّعرُّف التلقائي على توقيع الشيكات.

وفي عام 2012 استخدم الفيزيائي الكندي جيفري هينتون «التَّعلُّم المتعمّق» للفوز بمسابقة دولية في التعرّف على صور القطط. فتم توظيفه بسرعة بواسطة غوغل في مشروع غوغل برين Google Brain. وكان ذلك بداية لإقبال الباحثين نحو هذه الطريقة.

وفي عام 2014، تمكَّن مشروع ديب فيس DeepFace، وهو برنامج الفيسبوك، من التَّعرُّف على الفرد في صورتين مختلفتين بمعدل نجاح 97.35٪ ، وهو المعدَّل نفسه الذي يحققه الإنسان ! يمكن للفيسبوك، الذي يحتوي على أكبر معرض للصُّور في العالم أن يقترح عليك الآن العثور على أصدقاء ربما تكون قد فقدتهم، وبنسبة نجاح عالية على ما يبدو. وقلَّت الأخطاء في التعرف على الكلام أيضاً فانخفضت إلى عتبة دنيا قدرها 5٪[30]. وبالتالي، فإنَّ قوة الآلات التي تعمل بالذكاء الاصطناعي تزداد للغاية عندما تكون

---

(29) *Marianne*, 15 avril 2022.

(30) Y. Le Cun, Y. Bengio et G. Hinton, « Deep learning », *Nature*, vol. 521, mai 2015, p. 436.

قواعد اللعبة واضحة: فهي تتعرَّف على قطة أو سنجاب، لأنَّ ملايين الصور التي تم تحديدها مسبقاً تسمح لها بالتدريب على ذلك، وتربح في الشطرنج، لأنَّ الفوز في نهاية الأمر مرتهن بتهديد الملك وموته.

بالنسبة إلى **يان لو كون**، فإنَّ «الآلات، مهما كانت قوتها، لا تتمتع بفطرة سليمة ولا بوجدان»، على الأقل «ليس بعد»، على حدّ قوله. وتكمن الفطرة السليمة في المقدرة على الحكم في المواقف الغامضة، عندما لا توجد إجابة صحيحة أو خاطئة مكتوبة في كتاب.

يمكن لآلة أن تقتل إنساناً لتجلب فنجان قهوة لذلك الإنسان نفسه إذا بدا أنه يمثّل عقبة أمام تنفيذ مهمتها.. وعلى غرار **فينياس غيج** الذي اخترق القضيب الحديدي دماغه، فإنَّ الآلة لا تفهم تعقيدات اللعبة الاجتماعية: كيف تقول لا لشخص من دون أن تؤذيه؟ هل تحمل كأساً من الكريستال وقضيباً من حديد بالطريقة نفسها ؟ هل يمكنك القفز بأمان من الطابق الخامس؟

إنَّ الآلة لا تفتقر إلاَّ لما نسميه نحن البشر بـ «العواطف». واختتمَ **لو كون** قائلاً: «سأعتبر مسيرتي المهنية ناجحة، إذا تمكّنا من بناء آلات ذكية مثل الجرذ أو السنجاب». الذكاء الاصطناعي أقل ذكاءً من القط، الذي يحتوي دماغه على 760 مليون خلية عصبية و 10000 مليار نقطة تشابك عصبية، لا بل أقل ذكاءً من الكلب الذي يحتوى

دماغه على 2.2 مليار خلية عصبية. ويرى **لوكون** بأنَّ الأمر مجرَّد مسألة وقت، فهو يتطلب أولاً بناء آلات تقترب من توفير طاقة الدماغ البشري. ويرجع ذلك إلى حقيقة أن عدداً قليلاً فقط من ا-خلايا العصبية تكون نشطة في الوقت نفسه. هذا الادّخار هو الطريق الذي يجب استكشافه من أجل أنظمة المستقبل. ومع ذلك، يظل الدماغ مستهلِكاً كبيراً للطاقة على نطاق الشخص الذي يمتلك هذا الدماغ. ولو لم يكن البشر قد اخترعوا الطبخ وحافظوا على نظام غذائي يعتمد على الأوراق والتوت البري مثل القردة العليا، لكان عليهم تخصيص تسع ساعات يومياً للطعام من أجل ضمان توفير الطاقة اللازمة لفيزيولوجيا الدماغ. ولولا اكتشاف نار بروميثيوس، لكانت المغامرة البشرية مختلفة كلَّ الاختلاف.

الحكمة

لذلك يبدو من الممكن أن نتخيَّل كيفية توزيع المهام بين الإنسان والآلة توزيعاً «فعالاً». فللإنسان المهام التي تحتاج إلى «الفطرة السليمة» في العلاقات مع الآخرين على وجه الخصوص، وللآلة المهام التي تحتاج إلى عمل إحصائي شاق. للإنسان حساسية العلاقة مع أخيه الإنسان، سواء أكانت علاقة رومانسية أم تجارية، وللآلة حساب الظروف التي تجعل من المحتمل أن يكلَّل اجتماع ما بالنجاح. أخيراً، للإنسان الإبداع في العلوم أو الفنون، وللآلة المهام والإجراءات الروتينية التي تنفّذ بروتوكولات لإدارة المواقف

العادية [31].

كل شيء يبدو جيداً للغاية: لماذا نزعج أنفسنا بالإجابة على السؤال نفسه ألف مرة إذا كان الروبوت قادراً على فعل ذلك؟ لماذا نحرم أنفسنا من قواعد البيانات التي تسمح لنا بتقييم فرص نجاح علاقة عاطفية أو مهنية؟ هذه هي المشكلة. البشر مرنون، فهم يتأقلمون مع بيئتهم. وما يجعلهم أقوياء في العالم الطبيعي يصبح نقطة ضعف هائلة في نظام مبني للتلاعب بهم.

إذا كانت الخوارزميات تتولى مسؤولية التفكير الإحصائي، أعني **نظام كانيمان (2)** ، فإن الخطر يكمن في أنها تترك البشر أسرى **للنظام (1)** فقط، أي الخيال والأحكام المسبقة، مما يبعدهم عن «الحكمة».

في لغة سبينوزا، تتوافق هذه الحكمة مع «النوع الثالث من المعرفة»، أي مع النظام **(3)** عند كانيمان. تُظهر تلك الحكمة عندما نستطيع الوصول حدسيا إلى المعرفة الحقيقية، مما يجعلنا نعرف من دون تفكير أن جذر أربعة يساوي اثنين، متجاوزين بذلك النظامين (1) و(2). ليس هذا هو المسار الذي تقودنا إليه شبكات التواصل الاجتماعي والتي تميل أكثر إلى جعلنا عالقين عند المستوى الأول من مشاعرنا، وإلى حبسنا في أحكامنا المسبقة.

---

(31) يمكن للذكاء الاصطناعي بالتأكيد أن يرسم أو يؤلف الموسيقى ، لكنه لا يعرف ما إذا كانت جميلة: البشر فقط هم من يقررون ذلك.

.II

العقاب وإفساد العقل

الفكر المتوحّش

على أية حال، إننا نعيش الآن ثورة رقميّة مستمرَّة. فقد أخذت مكانها في سلسلة طويلة من الابتكارات الجذرية التي غيرت طريقة تفكير البشر. وأدّى اختراع الكتابة في الأصل إلى إحداث قطيعة دائمة بين «الفكر المتوحش»، كما يسميه ليفي شتراوس، والمجتمعات التي حلّ فيها التاريخ، كعملية تراكمية، بفضل الكتابة.

في فجر العالم الحديث، تسبَّبت المطبعة أيضاً في ثورة فكريَة حقيقيَّة، وعزَّزت حرَّية الفكر، وساهمت في نمو الإصلاح. اعتقدنا أنَّ الذكاء الاصطناعي سيحتلُّ مكانته في هذا النسب المجيد، وأنه سيساعدنا على التَّفكير بشكل أفضل فردياً وجماعياً، وأنه سيضاعف الخبرات التعاونية مثل موسوعة ويكيبيديا. لسوء الحظ، يبدو من الممكن القول إنَّ هذا الوعد لن يتم الوفاء به. فقد أدّى التحول المستمر إلى ظهور فرد يتميَّز بالسذاجة وبالافتقار للحسِّ النَّقدي. كنا ننتظر غوتنبرج [32]، لكنَّ تلفزيون 2.0 هو الذي فرض نفسه.

أظهر عالم الاجتماع الأمريكي في كتابه «لعب البولينغ وحيداً»

---

(32) يوهان غوتنبرغ هو حرفي ومخترع ألماني، معروف بأنه اخترع الآلة الطابعة فأحدث ثورة في مجال الطباعة والنشر (المترجم)

Bowling Alone الذي يعدّ من كلاسيكيات علم الاجتماع المعاصر أنَّ الطفرة الهائلة للفردانية التي اجتاحت المجتمعات الغربية بعد الحرب تدين بالكثير للتلفزيون.

في الواقع، أدّى الوقت الطويل الذي يقضيه المرء أمام جهاز التلفزيون (4 ساعات و 50 دقيقة في اليوم كحدٍّ متوسط !) إلى إهمال الأصدقاء والعائلة والحياة النقابية، وهو ما يسمى «رأس المال الاجتماعي» للفرد. واجتاح التلفزيون المجتمعات كلها، من نوادي البولينغ إلى مجالس أولياء الأمور التي تشكل لحمة الحياة الاجتماعية للأمريكيين.

حلل ميشيل ديسمورجيه في بحثه الرائع الموسوم بعنوان «مصنع الأغبياء الرقمي»، من هذه الزاوية الاضطرابات التي أحدثتها الثَّورة الحالية. والأرقام التي قدّمها تبعث على الدوار. فمنذ سن الثانية يقضي الأطفال ما يقرب من 3 ساعات يومياً أمام شاشاتهم. وبين سن الثامنة والثانية عشرة عاماً، يبلغ متوسط الوقت المقضي أمام الأجهزة اللوحية وأجهزة الكمبيوتر المحمولة 4 ساعات و 45 دقيقة يومياً. ومن سن الثالثة عشرة إلى سن الثامنة عشرة عاماً، يخصَّص لهذه الأجهزة 6 ساعات و45 دقيقة يومياً لذلك فإننا نصلُ إلى رقم يقضي فيه المراهقون 40٪ من حياتهم في اليقظة أمام الشاشة!

تتخلل الحياة النفسية والعاطفية لهؤلاء الشبان موجات من الكآبة والنشوة بسبب ممارسات الإدمان مثل الجنس عبر الإنترنت، مما

يؤدي إلى آثار ضارة على نظامهم الغذائي ومخاطر سمنة متكررة. وكما حلل برونو باتينو أيضاً في كتابه «**حضارة السمكة الحمراء**» La Civilisation du poisson rouge، وجيرار برونر Gérald Bronner في كتابه «**نهاية العالم المعرفي**» Apocalypse cognitive، فإنَّ مدى انتباه المراهقين تضررت من جراء تقليب القنوات والاندفاع ونفاد الصبر..

إنَّ قراءة كتاب، الذي يفترض منحَ المؤلف وقتاً لتحديد الشخصيات أو التفكير، تعرقلها باستمرار علاقة قهرية مع الهاتف المحمول، الذي يجعل من المستحيل تقريباً الاستمرار في التركيز على أيّ شيء آخر.

قال مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan، وهو مخضرم في هذا الموضوع: «الوسيط هو الرسالة»، والوسائط هي محتواها الخاص، فنحن نشاهد التلفزيون وليس أيّ فيلم معين. وبالمثل، لا نعرف ما الذي ننظر إليه على الهاتف المحمول: «التمرير» scroll غير المحدود للشاشات، يقيّدنا بطريقة إدمانية تماماً. إنه التمرير نفسه الذي يجذبنا، سواء أكان الأمر يتعلق بصور لطفل يشاهد فيلم «الملك الأسد» Le Roi Lion، أم بأخبار عن الحرب في أوكرانيا. وتمنحنا مقاطع الفيديو التي نسجلها أيضاً إمكانية إعادة عرض حياتنا الشخصية عندما نريد ذلك. وكما هو الحال في فيلم «يوم لا ينتهي»، يمكن أن نعيش اليوم نفسه مراراً وتكراراً. ويمكننا

«تعديل» حياتنا كما نفعل الآن في تقنيات التحرير الجيني[33].

يوصَف الاستخدام القهري للهواتف المحمولة بالمصطلح المشهور حالياً وهو FOMO الذي يعني «الخوف من الضياع» fear of missing out ويعبّر عن ذلك القلق المزعج من فقدان شيء ما، سواء أكان «معلومات»، أم دردشة، أم فرصة. يصنع جهاز الآيفون iPhone سلفاً، ومن دون انتظار التوليف المعلن بين مادة السيليكون والمادة البيولوجية، اندماجاً حقيقياً بين الإنسان والآلة .. وتخلق الواجهة اللمسية رابطاً علاقياً وإدمانياً بين الاثنين، مثل المخدرات القوية التي تستحوذ على الدماغ وتخضعه للحاجة إلى استهلاكها. وأظهرت دراسة ألمانية استشهد بها جيرالد برونر أنَّ رنين الهاتف يثير بالضبط المنطقة نفسها من الدماغ التي يؤدي النطق باسم الشخص إلى إثارتها [34] ! وحتى عندما يكون الهاتف المحمول مغلقاً ولكن على مرمى البصر، فإنَّ الحاجة إلى تشغيله، والشعور به بين يديك، لا يمكن كبتها، مثل الجرعة التي يأمر الدماغ مدمن الهيروين بأخذها.

بلغت قدرة المراهقين على الانتباه إلى العالم الواقعي أدنى مستوى

---

(33) تقنيات التحرير الجيني: مجموعة من تقنيات التعديل الجيني تعيد كتابة المادة الوراثية لأي كائن حي، وتعدّ هذه التقنية أكثر دقة بكثير من التقنيات السابقة للهندسة الوراثية، وتستهدف علاج العديد من الأمراض كالإيدز والتهاب الكبد الفيروسي والسرطان وغيرها من الأمراض المستعصية. أحدثت هذه التقنية تحولات جوهرية في أبحاث الطب الحيوي، في السنوات الأخيرة، ويأمل الباحثون في استخدام هذه التقنية تعديل جينات البشر (المترجم).

(34) المصدر السابق نفسه.

له على الإطلاق. ووفقاً لدراسة استشهد بها باتينو Patino، انخفض مدى الانتباه بمقدار الثلث بين عامي 2008 و 2015، من 12 ثانية إلى 8 ثوانٍ !

قدّم **ديسمورجيه** أيضاً مثالاً عن الكنديين من بين الضحايا الأوائل (على الرغم من أنهم شعب يحتل مرتبة عالية في التصنيفات التقليدية للرفاهية والانفتاح). فالمساحات الشاسعة التي يعيشون عليها وفصول الشتاء القاسية جعلتهم من كبار المستهلكين للثقافة الرَّقميّة، والتي يبدو أنها قلَّلت بشكل كبير من مدى انتباههم. كما أن طبيعة تفكيرهم تغيرت أيضاً، فحلَّ ما يُطلق عليه اسم test and learn (أي حرفياً: «التجربة والتّعلم»)، محلَّ التفسير المنطقي، مثل الذكاء الاصطناعي نفسه. وفي الولايات المتحدة، لم تَعُد الكتابة الخطّية إجبارية، على عكس استخدام لوحة المفاتيح الذي أصبح إجبارياً. ومع ذلك، تلعب الكتابة المخطوطة دوراً رئيساً في تطور الدماغ والحركة. من المؤكد أنَّ البشر لم يكتبوا دائماً، لكن اختفاء كتابة الأفكار قد يكون له نتائج لا تحمد عقباها على طريقة تفكيرهم.

لم يتردَّد شون باركر Sean Parker، الذي ترأّس الفيسبوك، في الاعتراف بأنَّ جلّ ما سعت إليه الشركة هو «استغلال ضعف السيكولوجيا البشرية». فبيت القصيد من هذه الشبكات الاجتماعية كلها، من الفيسبوك إلى موقع التيك توك، هو الفوز بـ «معركة الانتباه» الكبرى، أيّاً كانت العواقب النفسية على الشعوب

المستهدفة. لقد كشفت موظفة سابقة في فيسبوك اسمها فرانس هاوجين Frances Haugen، في وثيقة بعنوان «ملفات فيسبوك» أنَّ الشركة التي أنشأها مارك زوكربيرغ كانت تدرك جيداً الاضطرابات العقلية التي تسببت فيها. هذه المبلِّغة عن المخالفات التي تخرجت من جامعة هارفارد، عملت لمدة عامين في شركة فيسبوك، وأرسلت إلى صحيفة وول ستريت جورنال سلسلة من الوثائق المشبوهة. ووضَّحت **هاوجين** التي استشهدت بها صحيفة لوموند (28 تشرين أول 2021)، أن أبحاث فيسبوك قد حدَّدت حقيقة أن المحتوى الذي «يستقطب الناس أو يفرّق بينهم أو يحرّض على الكراهية يثير المزيد من المشاركات» وأنَّ الشركة تستفيد منه عن قصد. كما أظهرت أنَّ قادتها كانوا على دراية كاملة بالاضطرابات العقلية التي يسببها فرعها الموجود على إنستغرام للفتيات المراهقات دون سن 13 عاماً اللائي يشعرن بعدم الراحة في أجسادهن. لكنَّ ذلك لم يمنعهم بأية حال من الأحوال من استهداف السكان المذكورين [35]. وقد حققت فرانس هاوجين شيئاً من الانتصار عندما قام فيسبوك بتعليق مؤقت لمشروع

(35) أوضحت فرانسيس هاوجن أيضاً أن الفيسبوك قد غيَّر خوارزمياته قبل الحملة الرئاسية لعام 2020، لتقليل كمية "الأخبار الكاذبة" المسموحة. وبمجرد انتهاء الانتخابات، قامت الشركة على الفور بإعادتها كما كانت عليه سابقاً. ولعل ذلك في نظرها هو الذي سهّل اقتحام مبنى الكابيتول في السادس من شهر كانون الثاني-يناير عام 2021. ومن المضحك المبكي أن نشاهد رسالة باللغة الإنجليزية أكثر من 3 ملايين مرة، في الوقت الذي كان يجب حذفها، تفيد بأن "جميع لقاحات كورونا كانت تجريبية، وبأن الأشخاص الذين تم تطعيمهم هم جزء من التجربة". ويعود سبب هذا الخطأ إلى أنَّ الأداة الأتوماتيكية اعتقدت أن الرسالة مكتوبة بالرومانية...

الانستغرام الخاص به المتعلق بالأشخاص الذين تقل أعمارهم عن 13 عاماً.

ظهر عدد هائل من الأبحاث حول العواقب المعرفيَّة الكارثيَّة لهذه الظاهرة. وهكذا اختبرت دراسة تجريبيَّة تأثير الهاتف الذكيّ على جمهور لم يكن يمتلكه سابقاً. ففي أقل من ثلاثة أشهر، سجلت تدهوراً واضحاً في قدرة هذا الجمهور على الانتباه، وتدهورَ مستواه في الاختبارات على التمارين الحسابية. لقد زاد «اندفاعه»، بما يتناسب آلياً، إلى حدّ ما، مع الوقت الذي يقضيه في استخدام الهاتف الذكي. وأدّت دراسة أخرى أجراها فريق من جامعة ستانفورد إلى تعطيل الوصول إلى الفيسبوك لمدة شهر. فأتاح الوقت الذي تم تحريره برؤية العائلة والأصدقاء على نحو أكبر، وازدادت مشاهدة التلفاز..وفي النهاية، كان التحسن في رفاهية الأشخاص الذين تم اختبارهم كبيراً، لدرجة أنه بمجرد انتهاء التجربة، ظلَّ استهلاكهم الرقمي أكثر تدنياً على نحو ملحوظ. ووفقاً للدراسة، فإنَّ الاستغناء لمدة شهر عن استخدام الفيسبوك يقلل من أعراض القلق والاكتئاب ويخلق حالة من الارتياح تعادل الحالة التي يؤدي إليها ربح مبلغ قدره 30 000 دولار [36] !

أصبح خطر الإدمان على الشبكات الاجتماعية، كخطر الإدمان على التدخين، من الأمور التي لم تَعُد تحتاج إلى إثبات. الفرق بين

(36) H. Allcott, L. Braghieri, S. Eichmeyer, M. Gentzkow, « The welfare effects of social media », Stanford University, 2019.

الشبكات الاجتماعية والتدخين هو أنَّ التدخين ظهر كعدوّ لمجتمع يرفع من قيمة الجسد والصحة على نحو متزايد. على العكس من ذلك، فإنَّ المجتمع الرقمي يُغرق مشاركيه في العالم الافتراضي، كما هي الحال في فيلم Matrix ، لدرجة انعدام التمييز بين العالم الواقعي والعالم الوهمي المزيف. إنه يلغي الدفاعات النقدية لمستخدميه من خلال حرمانهم من المسافة اللازمة لرؤية المشاعر التي يثيرها من منظورها الصحيح. هناك «زوال كبح رقميّ شبيه بزوال الكبح الناتج عن تعاطي المخدرات أو الكحول ونجده على الشبكات الاجتماعية حيث يُسمح بجميع ضروب الانحراف عن معايير الحياة الاجتماعية العادية [37]. وعلى حدّ قول ناتالي هاينيتش Nathalie Heinich، تعمل الشبكات على تحفيز المنافَسة لجذب الانتباه وعلى تحفيز السباق على التفرُّد، من خلال الاستفزاز والمبالغة، والترويح عن النفس وحتى التمتع بقول ما لا يقال، وفي إظهار ما لا يمكن تمثيله. يؤدي هذا التصعيد المتطرف إلى استجابات عاطفية قوية، بما في ذلك الغضب والاستنكار، والتي يتم التعبير عنها فوراً من خلال الإعجابات أو إعادة التغريد والتي تضخّمها التكنولوجيا تلقائياً، من دون وساطة أو تباعد أو تأخير. وبحسب المحلل النفسي سيرج تيسيرون Serge Tisseron ، فإنَّ «العلاقة الحميمة المعروضة بإفراط تهدّد بناء الذات» من خلال الإرادة الدائمة للظهور بطريقة جذابة، في منافسة محمومة مع الآخرين يذكيها السعي المرضيّ للحصول على الاعتراف. فالدافع

(37) J. Soler, cité par G. Bronner, *op. cit.*

الذي يدفع الجميع إلى التباهي بحياتهم الحميمة يفضي إلى صورة ذاتية مشوهة للغاية. ويؤدي تعرّض الأطفال الصغار المفرط للشاشات إلى تعطيل قدرتهم على التواصل مع الآخرين. فالواقع الافتراضي يأخذهم بعيداً عن الإدراك الحسي للعالم المادي والبيئة الاجتماعية، بمعنى أنَّ الواقع يصبح باهتاً [38].

النكاح فقط

حللت إيفا إيلوز التحول الذي يفرضه العالم الرقمي على الحب بطريقة تضيء بشكل مثير للإعجاب تحوّل حساسيتنا [39]. وكتبت قائلة إنَّ مئات الملايين من الأشخاص استخدموا «هواتفهم كنوع من نوادٍ للعازبين مفتوحة طوال ساعات اليوم». لقد كان لدى المجتمع البورجوازي بيوت دعارة لتوجيه الرغبة الجنسية التي أدانتها الأخلاق. وشرَّع المجتمع الرقمي نوافذ واسعة لبيوت الدعارة الافتراضية حيث تم إطلاق العنان للجنس. وثلث الوقت الذي يُقضى على الإنترنت يكرَّس للمواد الإباحية. وقدرت دراسة استقصائية أجراها المعهد الفرنسي للرأي العام سنة 2017 أنَّ 63٪ من الشبان و37٪ من الفتيات شاهدوا المواقع الإباحية. بالنسبة للشبان، فإنَّ علاقتهم بالجنس اضطربت بالكامل، فأصبح من الصعب جداً على هؤلاء المراهقين أن يعيشوا حياة حب تحترم

(38) B. Jarry-Lacombe *et al.*, *Pour un numérique au service du bien commun*, Paris,Odile Jacob, 2022.

(39) E. Illouz, *La Fin de l'amour*, Paris, Le Seuil, 2020.

الآخر.

ووفقاً لفيلم وثائقي تمَّ بثُّه على قناة M6، فإنَّ «44٪ من المراهقين الذين يمارسون الجنس صرَّحوا عن قيامهم بممارسات رأوها في الأفلام الإباحية. وتشعر الفتيات بأنهن «مجبرات» على القيام بأشياء معينة، وأوضاع جنسية معينة، ويعتقد الشبان أنه لا بد من أن يطلبوا ذلك منهن»[40].

تفحّصت إيلوز برنامج «تندر» Tinder بوصفه الركيزة الأساسية لهذه الحياة الجنسية الجديدة. وقامت بتحليله على أنه طريقة لاختزال الحبِّ إلى «نكاح فقط»، من دون «إضاعة» الوقت في المغازلة، ومن دون إدارة عاطفية لعواقب العلاقة الجنسية. من المؤكد أنَّ «المضاجعة لليلة واحدة» ليست أمراً مبتكراً جداً في تاريخ البشرية، ولكنَّ الجديد هو المكان الذي تحتله الآن في خيال المراهقين. بالأمس «كانت العلاقة الجنسية إيذاناً بنهاية الغزل العاطفي، واليوم هي بداية لقصة مريبة».

وكما قالت **كلير**، وهي أحدى اللواتي استجوبتهن **إيلوز**، فإنَّ النشاط الجنسي في العصر الرقمي تخلَّص من متاعب الاضطرار إلى إدارة «التراكمات العاطفية للآخر». لقد أوضح **رولان بارت** بشكل رائع في «شذرات من خطاب في العشق» الطريقة التي يغذّي بها هذا القلق مشاعر الحب. هل ستتصل بي؟ هل كنتُ فظّاً؟ هذا القلق الوجودي هو الذي يزول في موقع «تندر». فالجنس من دون

(40) N. Chuc, *Le Figaro*, mis en ligne le 9 janvier 2022.

مستقبل يخلق حالة نفسية بحيث يعتقد كل طرف أنه يمسك بزمام الأمور تماماً، من دون الاعتماد على الطرف الآخر، وهو تقريباً عكس ما تنطوي عليه العلاقة العاطفية. لقد ميَّزت الحياة الجنسية الرَّقميّة الجنسَ من الشعور بالحب، فأفقدت المرء القدرة على التعرّف على الآخر بكامله، كجسد وروح، في إطار علاقة يتوقع فيها كلّ طرف أن يفتح له الطرف الآخر المحبوب أبواب حياة مبتكرة.

يؤدي الحبُّ وفقاً لـ «تندر» إلى فراغ وجودي يجب على الطرف المعني أن يملأه من خلال مضاعفة اللقاءات كنوعٍ من الهروب الذي يمثّل تماماً السلوكيات الإدمانية التي يتسبب بها المجتمع، إذ يتحوّل النشاط الجنسي عبر الإنترنت إلى منافسة هائلة لا تختلف كثيراً عن المنافسة الاقتصادية.

إنّ مواقع التعارف حققت **النيوليبرالية الجنسية** التي وصفها ميشيل ويلبيك Michel Houellebecq في كتابه الأول الذي يحمل عنوان «امتداد ساحة النضال» Extension du domaine de la lute. لقد اختصر **ويلبيك** الحياة في المجتمع، وبطريقة داروينية للغاية، إلى معركة هائلة يخوضها المرء للعثور على شريك. وبفضل موقع «تندر»، استطاعت هذه الأيديولوجية المتطرفة أن تجد في أعماق حياتنا وفي انجذابنا العاطفي أحد أهم إنجازاتها.

رأسمالية المراقبة

هناك حلقة أخرى مثيرة للإعجاب من مسلسل «المرآة السوداء»، وهي الحلقة التي تحكي قصة فتاة صغيرة مهووسة بتصنيفها الاجتماعي notation sociale، الذي يقاسُ بعدد النجوم التي منحها لها أقاربها أو زملاؤها، بالطريقة التي يتمّ فيها تصنيف سائقي أوبر Uber أو المستأجرين عن طريق موقع «إير بي إن بي» Airbnb.

في المسلسل، يمكن لأيّ شخص تقابله أن يتقبّلك أو يرفضك، وأن يعبّر عن الفرح أو الحزن الذي تبعثه في نفسه من خلال منحك علامة جيدة أو سيئة.

العلامة «الجيدة» هي تلك التي تسمح لك بكسب أكبر عددٍ ممكن من النجوم. وهذه النجوم تحلُّ فعلياً محلَّ المال الذي ينطوي على الهدف نفسه المتمثل في تحديد مكانة الأشخاص في الفضاء الاجتماعي.

في هذه المغامرة الغريبة، أرادت البطلة الشابة دعوة نفسها لحضور حفل زفاف صديقة تتمتع بمكانة عالية وتأمل أن تحصل منها على أكبر عدد من النقاط. لكن لا شيء سار كما هو مخطط له. فتعرّضها لسلسلة من المغامرات الفاشلة وتأخّرها عن موعد الطائرة وتعطّل سيارتها وما تلا ذلك من غضب تسبَّبَ لها في فقدان ميراثها الثمين

وأودى بها إلى السجن. ونسيتْ إذّاك أن تتحفظ في استخدام الكلام، فأهانت زميلها السجين، واستخدمتْ ألفاظاً لا تليق إلا بسائقي الشاحنات، فلم يكن أحدٌ يصدق أنها من الممكن أن تتلفظ بها. ومع ذلك، فإنَّ قسمات وجهها وسلوكها، يعكسان ارتياحاً كبيراً: إنها حرّة.

الطريقة التي خضعت بها الشخصية في هذه الحلقة لعملية التقويم الاستبدادية عن طريق تسجيل العلامات هو الشكل التخيّلي لعملية المراقبة العامة التي تُستخدَم بالفعل على الويب. ففي الوقت نفسه الذي يتم فيه «تخبيلِ» الأفراد وإفساد عقولهم من خلال استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، فإنَّ النظام ككل يدير الحياة الاجتماعية بطريقة عقلانية تماماً.

في الصين، تُعدّ «درجة المواطن» بمنزلة تصنيفٍ للأشخاص بالفعل، سواء أكان الأمر يتعلق بحوادث سياراتهم، أو بتغيّبهم عن العمل، أو باستهلاكهم للكحول، أو بمدفوعاتهم المتأخرة، أو بالتعليقات التي يدلون بها «بشكل طبيعي» في مدوناتهم. والدول الديمقراطية التي تعتقد أنها محصَّنة ضد مثل هذه الديكتاتورية الخوارزمية هي ليست كذلك.

بفضل برمجيات التعرّف على الوجه، سنعرف قريباً كلّ شيء عن تحركاتك. ولن يكون من الضروري قريباً التحقق من صحة تذكرة النقل، حيث ستتكفل بهذا الأمر شريحة متعددة الوظائف مثبَّتة في جسمك. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات التي بدأت

تُتَّخذُ بشأنِ استخدام البيانات، سيكون من الصعب للغاية منع المشغِّل من تقديم قروض مصرفية مفيدة لك أو عرض عمل يتناسب مع المعلومات التي سيتم جمعها عنك. ولا يسع المرء إلاَّ أن يفكّر في الرواية الشهيرة لجورج أورويل الموسومة بعنوان «1984».

في هذه الرواية، يوضَع المجتمع تحت المراقبة لتجنب أية معارضة، ومع ذلك فإنَّ هناك فترات يُسمح فيها بإطلاق صرخات الكراهية.

نحن نعيش نبوءة أورويل بطريقة غير متوقعة تماماً. فهناك اتحادات خاصة تراقب الأفراد. وهذا ما يعدّ انقلاباً رائعاً للفكرة التي مفادها أن الدولة تشكّل التهديد الأكبر. لكن في «الأخ الأكبر» [41] Big Brother بنسختة المسماة «غافا» GAFA [42]، ليس الهدف إسكات الناس، بل على العكس دفعهم للكشف عن رغباتهم واحتياجاتهم وميلهم للاستهلاك. لقد رُصِدَ كلّ شيء بدءاً باهتمامك ببرنامج تلفزيوني وانتهاءً بكيفية قيادتك للسيارة. وفي الحياة من منظور **غافا** (أي: غوغل و آبل وفيس بوك وأمازون)، تضيع «الذات الحميمة»، إذ إنَّ المنزل المتّصل يجلب عدداً كبيراً من

---

(41) تجدر الإشارة إلى أن الأخ الأكبر هو شخصية في رواية الخيال العلمي "1984" للكاتب الإنجليزي جورج أورويل، والتي نُشرت في عام 1949. في هذا الكتاب، يراقب الأخ الأكبر الحياة الخاصة للناس من خلال نظام مراقبة بالفيديو حتى يحترم الجميع القواعد الصارمة التي يفرضها. (المترجم)

(42) - تمت صياغة هذا الاختصار في فرنسا للإشارة إلى العمالقة الرقميين وهم غوغل وآبل وفيسبوك وأمازون (المترجم)

الموّردين المحتملين إلى قلب حياة العائلات [43].

اقتصاديات غوغل

في كتاب مؤثّر عنوانه «**عصر رأسمالية المراقبة**»، تروي شوشانا زيبوف Shoshana Zuboff قصة استحواذ العمالقة الرقميين (غوغل و آبل وفيسبوك وأمازون) على المجتمع. وعملت زيبوف مقارنة مثيرة بين هنري فورد وستيف جوبز مؤسس شركة آبل. فقد قام هنري فورد «باكتشافٍ» أحدثَ ثورةً في العالم الصناعي.

فأثناء تجواله في مسالخ اللحوم في شيكاغو، لمعت في رأسه فكرة وفَهِمَ المبدأ الذي سيطبقه على خطوط التجميع من خلال مراقبته للطريقة التي تتحرك بها قطع اللحم البقري ليقطّعها جزّار ثابت في مكانه. لقد كانت السيارات الموجودة سابقاً عربات فاخرة، لكنَّ فورد Ford نقل صناعة السيارات إلى عصر الإنتاج الضخم بفضل خط التجميع. وتكررت ثورة مماثلة مع آبل. فقد قام ستيف جوبز، بتسويق جهازiPod، في تشرين الأول عام 2003، فقلَب صناعة الموسيقى رأساً على عقب.

كانت هذه الصناعة تعمل سابقاً على الطراز الفوردي وكانت العلامات التجارية الرئيسة تدلّ المستهلك على الفنانين الذين يجب شراؤهم من خلال حملات تسويقية ضخمة. لكن جوبز حمل راية

---

(43) وبالطبع يسمح المجتمع الرقمي أيضا بمراقبة كلاسيكية للغاية من النوع البوليسي. ليس من قبيل المصادفة أن الصين تتنافس على التفوق الرقمي مع الولايات المتحدة.

الدفاع عن حداثة جديدة، إذ فتح أمام الزبائن إمكانية القيام بخيارات لا نهائية.

ويتجلى التشابه بين جوبز وفورد أيضاً في ابتكار التسعير الذي انخرطا فيه. كان على فورد أن يناضل ضد التغيّب المتكرّر لعماله، ويثور بصمت على التجريد من الإنسانية الذي يسبّبه العمل في ورش التجميع.

كانت طريقته التي أُطلق عليها اسم «الفوردية» تكمن في مضاعفة أجور العمال لإثارة اهتمامهم بعملهم، وخلق حلقة جديدة من خلال رفع الأجور الذي سيؤدي إلى زيادة الإنتاجية، والتي ستعود بأثر رجعي عليهم.

وبالقدر نفسه من الثورية، سرعان ما أصبح واضحاً لجوبز أنَّ فكرة بيع الأغاني بشكل فردي، كما في الإصدارات المبكرة من iTunes، كانت بدعة اقتصادية، في الوقت الذي لم يكن يكلّف الشركة شيئاً أن تبيع مئة أو ألف أغنية بالسعر نفسه.

استاءت جميع الشركات الرَّقميّة من القرصنة التي تطورت في السوق السوداء، فالتزمت بنموذج جديد هو البث الحي streaming. وهذا ما أتاح حق الاستخدام غير المحدود لقاء اشتراك ثابت. هذا ما أطلق عليه الخبير الاقتصادي جيريمي ريفكين «عصر الوصول». لم تعُد الأشياء، حتى لو كانت غير مادية، هي التي تشترى، بل الانتماء إلى مجتمع، أو نادٍ افتراضيّ يهتم برغباتك كلّها.

غير أنّ الابتكار الحقيقي للـغافا (غوغل وآبل وفيسبوك وأمازون)، فيما يخص الفوردية تجلى في سجل آخر، وصفته شوشانا زوبوف بالانتقال من رأسمالية قائمة على استخراج فائض القيمة إلى رأسمالية قائمة على استخراج البيانات. ذكّرتنا زيبوف بالأيام الغابرة عندما عبّر مؤسّسا غوغل وهما لاري بايج Larry Page وسيرغي برين Sergueï Brin، عن كراهيتهما للإعلانات. عندما تم إنشاء الشركة في عام 1998، لم يكن لديهما الرغبة في فعل أيّ شيء من شأنه المساس بمصداقية محرك البحث الخاص بهما. ثم فكر غوغل في تأجير خدماته لعدد قليل من الشركات مثل «ياهو»!

وحدثت القطيعة عندما أدركا أنهما كانا يتربعان على عرش من ذهب، عرش قدمته المعلومات المتراكمة حول المستخدمين، وهو ما يسمى UPI: «معلومات ملف تعريف المستخدم». يُشير هذا المنعطف إلى تحوّل الشباب التحرريين (الليبرتاريين) إلى رأسماليين متطرفين لا يُبدون أيّ احترام لعملائهم.

وما سمّي (اقتصاديات غوغل) Googlenomics كان من ابتكار **هال فاريان** وهو خبير اقتصادي وأستاذ جليل في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، قرأ كتابه التمهيدي عن الاقتصاد الجزئي ملايين من الطلاب وعملَ في غوغل عام 2002. أوضح **فاريان** لمؤسسي الشركة أنَّ نظريات «المزاد العلني» الجديدة، الشائعة جداً بين الاقتصاديين، يمكن تطبيقها على الإعلان عبر الإنترنت. وبإلهامٍ منه حظيت شبكة إعلانات جوجل الجديدة «أدووردز»

Adwords، نجاحاً باهراً. وحققت الشركة أرباحاً هائلة عندما تحولت لتصبح «أدسنس» Ad Sense في عام 2010. فمحرّك البحث لم يُستخدم للإعلان «السلبي» فقط، بل فرض نوعاً من «الضرائب الثورية» على الشركات لكي تتصدّر قائمة التوصيات المقدَّمة للمستخدمين. وكما يوضح أحد المنتجين، فإنَّ الظهور على الصفحة الثانية من نتائج البحث على غوغل يؤدي حتماً للموت الرقمي.

أما شركة فيسبوك التي تأسَّست في العام الذي تمَّ فيه إدراج غوغل في البورصة، فقد أدركت بدورها على الفور كيفية تحقيق الثراء. شيريل ساندبرغ، التي ابتكرت «**أد ووردز**» ، تم توظيفها في شركة مارك زوكربيرغ فجعلت منها عملاقاً إعلانياً آخر على الإنترنت[44]، ويُعدُّ ذلك بالنسبة لـ **زيبوف** اللحظة التي حلَّ فيها «استخراج البيانات» من المستهلكين محلّ «استخراج فائض القيمة» من العمال. فبُذلت قصارى الجهود للدخول في خصوصية

(44) شغلت ساندبرغ منصب نائبة العمليات والمبيعات العالمية عبر الأنترنت في شركة غوغل ثم تولت منصب رئيسة للعمليات في فيسبوك. كانت مهمة ساندبرغ في "غوغل" أن تبني الجانب الإعلاني الذي لم يتجشم مؤسسا "غوغل" لاري بايج وسيرغي برين عناء إنشائه. قدمت "غوغل" تحت قيادتها منتجين متصلين مخصصين للإعلانات "أد ووردز" AdWords و"أد سنس"AdSense ، وأولهما عبارة عن نظام مؤتمت يتيح للشركات التنافس على موقع في أعلى صفحة نتائج البحث على "غوغل" عبر تحديد السعر الذي توافق على دفعه في كل مرة ينقر فيها أحد مستخدمي محرك البحث على إعلانها. وإذا بدا أن "أد ووردز" يتوقع رغبات المستهلكين عبر تقديم رسائل مصممة خصيصاً لتتوافق مع ما يبحثون عنه، فإن "أد سنس" حاول القيام بالأمر نفسه من خلال استخدام برنامج يجري مسحاً لمحتوى المواقع الإلكترونية ثم يقدم إعلانات خصيصاً لهذا المحتوى. (المترجم)

المستخدمين. واجتمعت الشركتان للضغط بقوة لتجنب ضبط نظام جمع البيانات. كما تمكنتا من إقناع سلطات المزاحمة بالسماح لهما بشراء منافسيهما. وهكذا اشترت غوغل موقع يوتيوب مقابل 1.65 مليار دولار، وهو مايعادل أكثر من 25 مليون دولار لكلّ موظف من موظفي يوتيوب البالغ عددهم خمسة وستين شخصاً فقط، كان معظمهم مهندسين من ذوي المهارات العالية. وفي أبريل عام 2012، استحوذ فيسبوك على أنستغرام مقابل 1 مليار دولار، وهو ما يمثّل حوالي 77 مليون دولار لكل عامل من عمال الشركة البالغ عددهم ثلاثة عشر شخصاً. وفي عام 2014، قام فيسبوك بشراء **واتس آب** مقابل 19 مليار دولار، أي بمعدل قدره 345 مليون دولار عن كل موظف من موظفي **واتس آب** البالغ عددهم خمسة وخمسين موظفاً.

لا يسعنا إلاَّ أن نندهش لرؤية هذا الكمّ الكبير من الذكاء والمعرفة، الذي يتمّ تسخيره لخدمة هدف واحد ألا وهو الإعلان عبر الإنترنت، وهو هدف يبدو سخيفاً في ضوء الوسائل التي من المحتمل أن يقدمها الذكاء الاصطناعي. فنحن نريد أن نصدّق أنَّ هناك استخدامات أخرى له.

وبخصوص العمالقة الرقميين الأمريكيين (أي: غوغل وآبل وفيسبوك وأمازون المُشار إليهم بالاختصار GAFA)، فمن الواضح أنَّ ملعبهم لن يبقى محصوراً إلى الأبد في ذلك. فقد أراد فيسبوك إنشاء عملته الخاصة وهي Libra ، ليس فقط للتنافس مع البنوك التقليدية ولكن مع القوة السيادية للبنوك المركزية. فشلت التجربة مؤقتاً

(استمرت تحت اسم آخر وهو Diem)، لكن لا شك في أنها ستظهر مجدّداً بطريقة أو بأخرى. في غضون ذلك، ينتقل فيسبوك إلى عالم ميتافيرس metavers[45]، (ماوراء العالم)، حيث يرغب أن تستقر فيه أوجه كاملة من الحياة الاجتماعية: اجتماعات عامة أو مهنية، وألعاب بالحجم الطبيعي، ورحلات خيالية... هناك تحوّل هائل قيد الإعداد، والذي لا يقتصر على جعل البشر معتوهين، ولكن ينبغي إعادة النظر في كل شيء فيه. استغرق الأمر أيضاً وقتاً حتى تُحقق المطبعة نتائجها الكاملة، ومن بين أسباب ذلك أنَّ الغالبية العظمى من السكان كانوا أميين عندما طبع غوتنبرغ أول كتاب مقدس له.

(45) ميتافيرس بالإنجليزية Metaverse : كلمة تتكون من شقين الأول «meta» (بمعنى ما وراء، أو الأكثر وصفاً) والثاني "Verse" مُصَاغ من «Universe» وتفيد (ما وراء العالم). وقد كان أول استخدام لهذا المصطلح في رواية الخيال العلمي تحطم الثلج (Snow Crash)عام 1992 التي كتبها نيل ستيفنسون، حيث يتفاعل البشر كشخصيات خيالية مع بعضهم بعضاً ومع برمجيات، في فضاء افتراضي ثلاثي الأبعاد مشابه للعالم الحقيقي، وقد تم تطوير استخدام المصطلح مع الزمن، وكانت استخداماته الأولى في منصات العالم افتراضي كمنصة سكند لايف. بدأ المؤلفون في دي سي كومكس في استخدام مصطلح «ميتافيرس» اعتباراً من عام 2019 للإشارة إلى نسخة مركزية من الواقع تؤثر على الإصدارات الأخرى في الخطوط الزمنية البديلة. وقد استغلَّ هذا المصطلح لأغراض تطوير وتضخيم العلاقات العامة لمختلف التقنيات والمشاريع من النوع نفسه. ونظراً لأن العديد من الألعاب الجماعية عبر الإنترنت تشترك في الميزات مع الميتافيرس ولكنها توفر الوصول فقط إلى الحالات غير الدائمة، التي يشاركها ما يصل إلى عشرات اللاعبين، فقد تم استخدام مفهوم الألعاب الافتراضية متعددة الأكوان لتمييزها عن الميتافيرس. يستخدم المصطلح عادةً لوصف مفهوم الإصدارات المستقبلية المفترضة للإنترنت، المكون من محاكاة ثلاثية الأبعاد لا مركزية ومتصلة بشكل دائم. هذه العوالم الإفتراضية يمكن الولوج إليها عبر نظارات الواقع الافتراضي أو الواقع المعزز والجوالات والحواسب المكتبية ومنصات الألعاب. (المترجم، عن ويكيبيديا).

.III

بانتظار الروبوتات

موت الملوك

كشف الحظر خلال وباء الكورونا عن الإمكانات الهائلة للتقنيات الجديدة. وظهر العمل عن بُعد فجأةً بالنسبة لأكثر من ثلث الموظفين، كخيار ممكن على الفور. وانطلق التطبيب عن بُعد عندما تم إدراك أنَّ العلاقة بين المريض ومقدِّم الرِّعاية لا تتطلَّب أن يكون المريض موجوداً على الدَّوام في عيادة الطَّبيب. ونشأَت طريقةٌ جديدةٌ لتصوُّر العالم المنتج، بعيدة كلّ البعد عن الممارسات السابقة. فاللقاء وجهاً لوجه، مع الزملاء أو العملاء، أصبح خياراً من بين خيارات أخرى.

ولكي نفهم هذا التواطؤ المذهل بين ظهور الفيروس والرأسمالية الرَّقميّة، علينا العودة إلى الوراء. اقترح الاقتصادي الفرنسي جان فورَستييه Jean Fourastié ، في وقت مبكر من عام 1948 ، تحليل التحولات الاقتصادية التي توفّر مفتاحاً أساسيَّاً لفهم التَّغيير الذي سرّعت وتيرته الكورونا. لقد أعلن فورستييه «الأمل العظيم للقرن العشرين» المتمثّل في الانتقال من مجتمع صناعيٍّ إلى مجتمع خدميٍّ. وأوضح أنَّ الإنسان عملَ على زراعة الأرض لآلاف السنين، ثم عملَ على تحويل المادة في القرنين الماضيين. أمّا في المجتمع الخدميِّ الذي أعلن فورستييه ازدهاره، فقد بدأ الإنسان بالعمل على

الإنسان نفسه. كان أمله الكبير أن يتمكَّن الاقتصاد أخيراً من إضفاء الطابع الإنسانيِّ على نفسه في عالم يقوم فيه كلّ فرد، بوصفه مدرّباً أو معلّماً أو مقدمّاً للرعاية، بالاهتمام بالآخر. في مواجهة هذه الأخبار الممتازة، أشار فورستييه إلى «مشكلةٍ» لم تكن في الحقيقة مشكلةً فعليَّة في نظره. فهذا الاقتصاد الخدميُّ من شأنه أن يتمخَّض عن نمو بطيء جداً. إذا كان المنتج الذي أبيعه هو الوقت الذي أقضيه مع الزبون، بوصفي مقدمّاً للرعاية أو معلماً، فلا بدَّ إذاً وأن يصاب الاقتصاد بالركود، إلاَّ في حال زيادة العمل لزيادة الكسب.

في كتاب رائع بعنوان «**الفنون الأدائية: المعضلة الاقتصادية**» Performing Arts : The Economic Dilemma، وسَّع ويليام بومول William Baumol وويليام بوين William Bowen أفكار فورستييه ورؤاه بشكل غير مباشر من خلال مثال واضح يتعلق بالعروض الحية. انطلق **بومول و بوين** من ملاحظة بسيطة مفادها أنَّ أداء مسرحية لشكسبير يستغرق اليوم الوقت نفسه الذي كانت تستغرقه يوم ابتكارها، إذ إنَّ الوقت متعلّق بكلام الممثلين. فريتشارد الثاني يسمع «الحكايات الحزينة عن موت الملوك» بالسرعة نفسها التي لا تتغير. ولكن لأنَّ المسرح محروم من «أرباح الإنتاجية»، فقد أصبح أكثر تكلفة مقارنة بقطاعات الاقتصاد الأخرى، تلك التي تستفيد من التِّقنيَّات الجديدة لتقليل وقت العمل اللازم لإنتاجها. يظهر «مرض التكلفة» هذا على

الدوام، مما يجعل إقامة الباليه والأوبرا مكلفاً، لعدم توافر الوسائل التي تسمح بتحقيق مكاسب في الإنتاجية. وهكذا، ازدادت أسعار «أوركسترا نيويورك الفيلهارمونية» بمقدار خمسة أضعاف، على مدى قرن، بعد أخذ التضخم في الحسبان. وهذا ما يفسر سبب التراجع المطرد في حضور المسرح، وسبب تردي حياة الفنانين. فهم يمارسون غالباً وظيفة أخرى، ويعملون كمعلمين في أغلب الأحيان. وعلى الرّغم من رواتب النجوم، فإنه من الصَّعب الإبقاء على رواتبهم عند الحدّ المتوسط في سلَّم الدخل. ويتلخَّص هذا المرض في المقارنة الآتية : انخفضت تكلفة الأشياء بالتدريج، والإنسان هو الذي أصبح أغلى سلعة، لا سيما عندما يتجمع الناس في المكان نفسه. فعلى سبيل المثال، يعدّ الذهاب إلى المسرح اليوم أكثر تكلفة بكثير من شراء الكتاب المقدس، بينما نَجدُ عكسَ ذلك في زمن شكسبير. وتنسحب هذه الملاحظة على الفنون الحيَّة كافة. فاستئجار فرقة من الممثِّلين، ودفع إيجار قاعة قادرة على استيعاب جمهور كبير في وسط المدينة أصبح الآن مكلفاً للغاية.. وازدادت التكاليف التي يدفعها قطاع مثل المسرح حيث الإنسان فيه هو «المادة الخام الرئيسة».

هذا ما خلص إليه بومول وبوين من ملاحظات دامغة في نهاية تحليلهما الذي أحدث صدمة لدى السلطات وجعل الدولة الأمريكية تدرك ضرورة منح مزيد من المساعدات الحكوميَّة للثقافة. لكنَّ ذلك لم يمنع مسار التاريخ «الطَّبيعي» من

الحدوث. فمن خلال الراديو والتلفزيون ونتفليكس اليوم ومنتجات أخرى عبر الإنترنت، تمّ التهام الأداء الحي le spectacle vivant من قبل جميع وسائل الإعلام، فأصبح بإمكان أكبر عدد من الأشخاص ومن دون أن يتجشموا عناء السفر أن يستمعوا للممثل الذي يروي «الحكايات الحزينة لموت الملوك».

يمكن القول بأنَّ الثَّورة الحالية تقدِّم حلاً مشابهاً لمجتمع الخدمات ككل. والإنسان هو المعني، على حدّ قول فورستييه. غير أنه يتم اليوم فعل كل شيء لـ «تحسين» optimiser العلاقة التي يقيمها هذا الإنسان مع الآخرين.

تصنيع الخدمات

الخدمات : يمكن تعريفها بأنها جميع الأنشطة التي يجب أن يلتقي فيها الزبون مع مزوّد الخدمة حتى يتم الإنتاج. فعلى مصفف الشعر أن يقصَّ شعر زبونه «وجهاً لوجه» (في الوقت الحالي ...)، كما على الممثل المسرحي أن يقوم بالتمثيل أمام جمهوره. و«تصنيع الخدمات» هو تعبير متناقض ظاهرياً يشير إلى عملية الترشيد التي تهدف إلى خفض تكلفة هذا التفاعل قدر الإمكان. هناك طرق عدَّة لذلك. فالتلفزيون هو مثال على تقنية تُضاعف عدد زبائن مزود الخدمة نفسه. وهذا ما يسمى تحقيق وفورات الحجم. ولكن هناك أموراً أخرى، فعلى سبيل المثال يمكنك استبدال المنتَج بخوارزمية، والسماح للعميل بإدارة الأمر بنفسه، وهو سيناريو شائع بشكل متزايد ! هذا ما يحدث عندما يتعين عليك إدارة حجوزاتك أو حساباتك عبر الإنترنت من دون مساعد. الطريقة الثالثة هي التي تقدمها الطبابة عن بُعد. يظل مقدِّم الخدمة والعميل وجهاً لوجه، ولكن ليس بالضرورة في المكان نفسه، إذ يتمّ الحفاظ على الاجتماعات الأساسية فقط. ومن الواضح أن المسألة الأساسية تكمن في معرفة الكيفية التي نقرر بها ما هو «أساسي».

كتبت **إستر دوفلو** كتاباً عنوانه «**الاقتصاد المفيد للأوقات الصعبة**» وذلك بالمشاركة مع **أبهيجيت بانيرجي**، وقدّمت فيه مثالاً

يبعث على القلق عن ثورة الخوارزميات: المثال يتعلق بأختها التي تدير منظمة غير حكومية وليس لديها مساعد بشري، بل آلة «واتسون آي بي أم» تتولى جميع المهام الموكلة عادةً إلى مساعد: تحديد المواعيد وحجز تذاكر الطائرة وجمع مستندات الكمبيوتر للمحاسبة. وكما أشارت الخبيرة الاقتصادية **كاثرين شو** في هذا الصدد، فإنَّ أولئك الذين يُطلَق عليهم أحياناً «أصحاب المهارة المعرفية» knowledge workers، يقضون في الواقع كثيراً من الوقت في القيام بشيء آخر غير أعمالهم الأساسية. وبحسب تقديرها، فإنَّ الباحث يهدر نسبة 60٪ من وقته على المهام الإدارية، فينشغل عن عمله البحثي. الخطوة التالية مع الذكاء الاصطناعي هي الخطوة التي ستتمكن فيها الخوارزمية من اتخاذ المبادرات: كأن تحجز لك في الفندق بعدَ أن تسجِّل أن لديك موعداً في مدينة أخرى، وتقدم تقاريراً عن الاجتماعات التي شاركتَ فيها، وتتواصل مع الأجهزة الأخرى لتحضير محاضرة ...إلخ.

وهناك مثال آخر يتعلق بمراكز الاتصال. بصورة عامة، نُقلت هذه المراكز إلى البلدان الفقيرة الناطقة باللغة الإنجليزية فيما يخص الولايات المتحدة أوالفرنسية فيما يخص فرنسا. إن التدوين codification الدقيق لهذه المهام الموكلة إلى أشخاص ليس لديهم معرفة بالأسئلة المطروحة عليهم، أصبح ممكناً بموجب ما يسمى بمبدأ **باريتو** Pareto، والذي يفيد بأنَّ نطاق الأسئلة المطروحة محدودٌ للغاية في الواقع. على سبيل المثال، إذا كان السؤال الأكثر

شيوعاً يمثل 50٪ من الإجمالي، فإنَّ السؤال الثاني سيمثّل 25٪، والثالث 12.5٪ وهكذا دواليك. هذه الأسئلة الثلاثة تغطي هنا أكثر من 85٪ من السيناريوهات.

إنَّ القيام بهذا التدوين هو الذي سمح بالأمس بنقل مراكز الاتصال إلى مزوّدي الخدمة الأجانب والذي يسمح اليوم للكمبيوتر بتولي المسؤولية بدلاً من البشر. هذا هو السبب الذي يجعلنا نقضي مرّات لا حصر لها في كتابة الأرقام 1 أو 2 أو 3 للحصول على استجابة من جهاز ما (تلفازي معطل، ماذا أفعل؟) بانتظار أن يظهر في نهاية المطاف ذلك الشخص الذي سيحلُّ المشكلة. ويحدث في كثير من الأحيان أن يقوم الشخص الذي استعنتَ به بتكرار البروتوكول الرقميٍّ نفسه قبل أن يوجهك، إذا اقتضى الأمر ذلك، إلى أخصائيٍّ تقني حقيقيّ.

الحوار العاطفيُّ هو أحد التَّحديات المتبقية. تقول لورانس دوفيلييه Laurence Devillers، إنَّ التَّعرف على الانفعالات ومحاكاتها، وذلك بفضل إشارات تتجلى عبر الصوت والوجه والإيماءات يتمثّل في مرحلة قيد التَّطوير تسمَّى «روبوتات المحادثة» chatbots، أو وكلاء المحادثة.[46]

الطبُّ أيضاً معنيّ بالأمر بشكل مباشر. فالخوارزميات الطبية قادرة على أن تستخرج من مكتبة تحتوي بيانات ومقالات لا حصر لها، العناصر الملاءمة لتحليل مثل هذه الأعراض أو تلك. ويعرِف

(46) L. Devillers, *Les Robots émotionnels*, Paris, Éd. de l'Observatoire, 2019.

أطباء الأمراض الجلدية بالفعل كيفية الاستفادة من ملايين الصور التي تم تحليلها وتشخيصها، مما يسمح لهم بالعثور مباشرة على المراجع الملائمة. يعدُّ ذلك قبل كل شيء وسيلة مساعدة في التشخيص، ولا أحد يفكر حالياً في إحلال الخوارزمية محلَّ الطبيب. لكنَّ أطباء الأشعة هم الأكثر عرضة للخطر. وتكمن وظيفتهم في إجراء صور بالأشعة السينية، وتقديم تحليل فوري لزملائهم.

سيكون الذكاء الاصطناعي قادراً على القيام بالتشخيص الأولي، على أن يتولى الطبيب الذي طلب ذلك التشخيص سماع رأي المتخصصين القلائل الناجين من التطهير الرقمي purge numérique إذا رأى ضرورة لذلك. والطبابة الذاتية هي مجال آخر يزدهر على هامش القانون. فإذا شعرت أن لديك ارتفاعاً في درجة الحرارة والتهاباً في الحلق، فإنَّ مقدِّم الرِّعاية الرَّقميّ، سيقوم بطمأنتك وسينصحك بتناول قرصي أسبرين وجرعة من خليط شراب الروم مع الماء المغلي. وفي حال عدم شفائك، سيتوجب عليك استشارة الطيب في اليوم التالي.

والخبر السَّار هو أنَّ هذه الخوارزميات تُستخدم أيضاً لإعادة تأهيل مساعدي الممرضين، والذين سيصبحون وسطاء فعّالين بين المريض والطبيب .إنَّ تصنيع الخدمات يحاكي أيضاً عملية الترشيد التي لوحظت في المصانع، باستثناء أنَّ المستهلك هنا تتمّ إداراته

علمياً taylorisé[47].

وهناك مراكز التسوق التي لا يوجد بها موظفون بالفعل، خاصةً يوم الأحد. وهكذا بإمكانك أن تدخل وتقوم بالتبضع وتخرج. وهناك آليات للتعرّف على الوجوه ستحدّد هويتك، وتخصم من بطاقة الائتمان التي قمت بتسجيلها مسبقاً. (يمكننا أن نتخيل أن يصبح بمقدورك التحقّق من صحة النفقات المدفوعة إذا كنت ترغب حقاً في ذلك).

إنَّ فكرة الدخول إلى مركز تسوق خالٍ من البشر تماماً مخيفة، لكنَّ الخطوة التالية موجودة بالفعل، مع **أمازون**، ولا حاجة لأن تحرّك جسدك للحصول على طلبك.

السيارة ذاتية القيادة

من غير الشائع بعد أن نركبَ سيارة تعتمد على الخوارزمية، ولكن ذلك قد يصبحُ ممكناً في وقت قريب. فقد حاولت خمس عشرة مركبة ذاتية القيادة تحت رعاية (وكالة مشاريع الأبحاث الدفاعية المتقدمة) DARPA، ومنذ ما يقارب عشرين عاماً، أن تسافر لمسافة مائتي كيلومتر انطلاقاً من بلدة بارستو في كاليفورنيا،

(47) تُعرف الإدارة العلمية باسم التايلورية دلالة على مؤسسها فريديريك تايلور. والتايلورية هي طريقة التنظيم العلمي للعمل الصناعي من خلال تحليل مفصّل لأساليب الإنتاج وتقنياته. (المترجم)

في قلب صحراء موهافي [48].

لم تنجح أية مركبة من هذه المركبات في تلك المهمة، وتوقف معظمها بعد بضعة كيلومترات من خط البداية. وبعد مرور عام، أي في 8 تشرين الأول عام 2005، كانت النتائج أكثر إقناعاً. تضمَّن مسار المركبات مائة منعطف وثلاثة أنفاق وممراً جبلي. فازت بالسباق الذي استمر سبع ساعات سيارة فولكس فاغن تافاريس، من تصميم وقيادة سيباستيان ثرون من جامعة ستانفورد. وسرعان ما اقتنصت غوغل الفرصة وقامت بتوظيف سيباستيان ثرون وفريقه في عام 2008. كانت النتيجة بحجم الآمال المعقودة: ففي عام 2012 ، كان أسطول غوغل قد قطع ثلاثة آلاف ميل من دون حوادث على الطرق التي تربط بين العواصم الكبرى.

استمر نجاح السيارات ذاتية القيادة في النمو بعد ذلك، إلى أن جاء انتصار الشركة المصنعة للسيارات الكهربائية Tesla، بنسبة 100 ٪ بقيادة إيلون ماسك Elon Musk، والمعروفة أيضاً بمكوكات الفضاء الخاصة بها. إنَّ تطور السيارة ذاتية القيادة واضح. ومع ذلك لا يزال من الصعب القبول بأن تُسند سلامة الركاب إلى خوارزمية قد يودي أيّ خلل فيها بحياتهم.

حتى لو كانت المخاطر أقل من الناحية الإحصائية مقارنة بالمخاطر المترتبة عن وجود سائق بشري، فمن الواضح أننا لا

---

(48) M. Ford, *Rise of the Robots, Technology and the Threat of a Jobless Future*,New York, Basic Books, 2015.

نستخدم المعايير نفسها للحكم على موثوقية سائق الحافلة والخوارزمية. فالصرامة التي سيحكم بها على الآلة التي تدهس المشاة الذين لا يحترمون إشارة المرور ستكون أشد من تلك التي يحكم بها على الإنسان.

في الواقع، لن تجد السيارات ذاتية القيادة الراحة حقاً إلاّ عندما يتم حظر تلك التي يقودها البشر. وبمجرد أن تُحقِّق احتكار حركة المرور في المناطق الحضرية، سيكون بإمكانها التواصل مع بعضها بعضاً من دون صعوبة وستتجنب الحوادث والاختناقات المرورية. ولا شك بأنَّ متعة القيادة ستنتهي، و لن يتقبّل بعضهم الأمر، ولكن تلك هي الحياة العصرية !

الروبوت المفكر

يشغل هاجس الروبوتات المجسَّمة مساحة في الخيال المعاصر. وقد قام **جيل برات** بقياس الظاهرة مع تطوّر البصر قبل 500 مليون سنة. فقد ساعد البصر في تكاثر الأنواع الحية على الأرض[49]. ولعلَّ الروبوتات ستصل إلى تلك المرحلة. فمعدّل الخطأ في تصنيف محتوى الصورة انخفض من أكثر من 30٪ في عام 2010 إلى أقلّ من 5٪ في عام 2016، وهي الآن أقلّ من عتبة الخطأ البشري. وحقَّق التعرّف على الصوت تقدُّماً مذهلاً بالقدر نفسه. فقد اعتمد «سيري» الذي يعمل كتطبيق لشركة آبل و«مساعد غوغل» و«أمازون أليكسا» على واجهات interfaces إضافية للتعرف على الكلمات المنطوقة وتفسير معناها والاستجابة وفقًا لذلك.

وأشار **برات** أيضاً إلى أنَّ الآلات الرَّقميّة تتمتَّع بقدرة ثوريَّة على مشاركة المعرفة على الفور فيما بينها. بناءً على هذه التطورات، يعمل الباحثون على إنشاء روبوتات ذات ملمس ناعم يضفي إحساساً لطيفاً على تفاعلاتها مع البشر[50].

(49) Ce qu'on appelle l'« explosion cambrienne ». G. Pratt, « Is a cambrian explosion coming for robotics ? », *Journal of Economic Perspectives*, août 2015.

(50) Au centre Georgia Tech, cité par M. Ford, *Rise of the Robots, op. cit.*

تتصدَّر اليابان الطليعة في هذه المجالات كلِّها، وذلك بسبب الارتفاع السريع في نسبة المسنين بين السكان. وهي دولة تمنع الهجرة تماماً في حين أنَّ القوى العاملة في معظم الدول الأخرى (في الولايات المتحدة خاصة)، غالباً ما تكون أجورها قليلة، ويمكن استغلالها، وتعتني بالأشخاص العجزة. هذا هو في الواقع الجدل الذي تنطوي عليه مسألة الهجرة: إغلاقُ باب الهجرة يعني تسريع **روبتة** robotisation رعاية المسنين. لذلك يقوم قطاع أتمتة المنزل ببعض التحضيرات، من خلال حوسبة منازلهم باستخدام أجهزة استشعار لمراقبة حالتهم الصِّحيَّة وحالات سقوطهم على الأرض المتحملة.

إنَّ وجود الروبوتات في شقق كبار السن أوالعجزة يتيح لمقدمي الرِّعاية التحكم عن بُعد في مرضاهم للقيام بمهام بسيطة مثل إعطاء الدواء، أو قياس درجة الحرارة، أو ببساطة لتزويد العاملين الطبيين بمجال رؤية كامل، لأنَّ الروبوت يستطيع مرافقة المريض في أركان حياته كلّها.

التوظيف وإبداء الحكم

أصبح استخدام الذكاء الاصطناعي في إجراءات التَّوظيف أو التَّشغيل منتشراً على نطاق واسع. فالجامعات تَستخدم بالفعل الخوارزميات لتقييم ملفات المتقدِّمين، مع الأخذ في الحسبان المؤسسات التي التحقوا بها، وربَّما تمنح مكافأة لأولئك الذين

يقومون بأنشطة خارج نطاق المناهج الدراسيَّة. والخطوة المطبَّقة بالفعل في القطاع الخاص تكمن في القدرة على إجراء مقابلة خوارزميَّة لمقدِّم الطَّلب، وإبداء الحكم على كلّ من المحتوى والشكل: سهولة الإلقاء، والابتسامة، والتَّعاطف.

أقامت برامج التَّوظِيف مثل أنظمة تتبُّع المتقدِّم (OSC) شراكات مع معظم المواقع المهنيَّة على غرار موقع «لينكد إن» Linkedin أومونستر.كوم Monster.com. سيتمّ قريباً الاتصال بك تلقائياً من قبل جهات التَّوظيف، ولن تحتاج إلى اتخاذ أية خطوة، إذ يكفي أن يكون لديك سيرة ذاتية ملوَّنة وفيديو يسمح لك بتقييم نفسك.

في فيلم **إيليزيم** Elysium، جسَّد مات ديمون وجودي فوستر عالم الواقع المرير Dystopie[51] على الشَّاشة، وذهبت الخوارزميات

(51) الديستوبيا هي كلمة يونانية تعني المكان الخبيث أو المكان الفاسد وهي عكس المكان الفاضل (يوتوبيا). ويصوِّر هذا المكان المستقبل بشكل سوداوي في عالم يعمّ فيه الفساد جميع الأماكن، ويتجرّد فيه الإنسان من إنسانيته ليصبح مثل الآلة لا يفهم سوى تنفيذ الأوامر، ويتحول فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ المتناحرة. ظهرت الديستوبيا بوصفها نوعاً من التنبؤ أو تحذيراً مما ينتظر البشر من مصير مظلم، فالإنسان في طريقه إلى البحث عن اليوتوبيا يتّجه من دون وعي إلى الأفعال الفاسدة، ومن هنا تأتي الديستوبيا: ديستوبيا التلوث، ديستوبيا المسافة بين الأغنياء والفقراء، ديستوبيا الحكم الشمولي الظالم. بدأ الأدب الديستوبي في الانتشار مع الثورة الصناعية، حين اتّسعت الفوارق الاجتماعية بين العمال والطبقة الغنية، مما دفع الأدباء وقتها للغرق في التشاؤم ولعلَّ أشهر ما كُتب في ذلك الوقت رواية "العقب الحديدية" للروائي الأمريكي جاك لندن. بعد الحرب العالمية الأولى، شعر الأدباء والفنانون بمدى الانحطاط الذي وصل إليه العالم، وساد تيار تشاؤميّ عدميّ في إنتاجهم، ويُعدّ الروسي "يفغيني زامياتين" بروايته "نحن" الأب الروحي للأدب الديستوبي الحديث. أثّرت "نحن" في روايات تلتها، مثل رواية "1984" لجورج أورويل، و"فهرنهايت

إلى أبعد من ذلك، إذ أوكلت مهمة الشرطة والعدالة إلى الروبوتات التي تتبع بروتوكولاً صارماً. فالقاضي الآلي هو الذي كان يحسب احتمالات العودة إلى الإجرام ويحدِّد الحكم وفقاً لذلك. وعرض الروبوت على **دامون** أن يرفع دعواه إلى الإنسان. وهو اقتراح رفضه خوفاً من أن تكون العقوبة أكثر صرامة.

إنَّه مجرَّد خيالٍ علميٍّ، لكنَّ كتاب «الضوضاء»، الذي كتبه كانيمان بالمشاركة مع ثلاثة مؤلفين[52]، قدَّم حجة قويَّة للغاية يمكن تفسيرها على أنَّها مطالبة بالعدالة الخوارزميَّة ! إنَّ نقطة البداية في تحليلهم هي البرهان الراسخ على قابلية الحكم البشري للخطأ.

القضاة ملوثون بأمزجتهم مثل بقية البشر. فقد أظهر تحليلٌ لعدة آلاف من الأحكام القضائية أنهم يصدرون أحكاماً أكثر صرامة يوم الإثنين بعد خسارة فريق كرة القدم المحلي (الأمريكي) ! وفي فرنسا، أظهرت دراسة شاملة بالقدر نفسه أنَّ القضاة يكونون أكثر تساهلاً في يوم عيد ميلاد المتّهم. (ويعلق كانيمان على ذلك بخبث بقوله إنَّ افتراض أنَّهم أكثر تساهلاً أيضاً في عيد ميلادهم الشخصيٍّ لم يتم اثباتها). هيئات المحلفين هي أيضاً ضحايا لنظريات إحصائية

451" لـراي برادبوري، و"عـالم جديد شجـاع" لـ ألدوس هكسلي. ولأنَّ هناك علاقة وثيقة تربط الأدب بالسينما، ولأنَّ السينما بعد الحرب العالمية الأولى كانت مولوداً جديداً لم يتجاوز عمره 20 عاماً، كان تقديم الديستوبيا شيئاً ملفتاً ومثيراً حينذاك. أولّ تلك الأعمال كان Metropolis 1972 للألماني الكبير فرتز لانغ الذي قسَّم المجتمع إلى طبقتين، الأولى تعيش في رفاهية وترف والثانية تعمل من دون توقّف أو راحة، وكان ذلك التصور نتيجة للنشاط الصناعي الذي احتاج إلى كثير من الأيدي العاملة وشطر المجتمع إلى نصفين (المترجم).

(52) D. Kahneman *et al.*, *Noise, A Flaw in Human Judgement*, *op. cit.*

خاطئة. فهم على سبيل المثال يجدون صعوبة أكبر في منح اللجوء للمهاجر إذا كانوا قد منحوا هذا اللجوء بالفعل لمتقدمَين اثنين من قبله). ويتأثَّر القضاة أيضاً للغاية بحرارة الجو الخارجيَّة. فقد أظهرت دراسات عديدة أجريت على مئات الآلاف من الحالات أن الإدانات تكون أكثر صرامة في الأيام الشديدة الحرّ. تم أيضاً تحليل تأثير الطقس الجيد على سلوك سوق الأسهم : ترتفع سوق الأسهم عندما يكون الطقس جيداً (ولكن، بلا شك، ليس عندما يكون حاراً جداً).

وأظهرت دراسة استشهد بها **كانيمان** أنَّ لجان الحُكم في الجامعات ليست محصَّنة ضد هذا التأثر بحالة الطقس. فعندما يكون الطقس معتدلاً، تهتم لجان الحكم إلى حدّ كبير بالجودة الأكاديمية : أي بالدرجات الممنوحة ونوعية الرسائل الجامعية. من ناحية أخرى، عندما يكون الطقس لطيفاً، تكون هذه اللجان أكثر حساسية تجاه المزايا غير الأكاديمية للمرشحين.. ويتأثّر الأطباء كثيراً بالقدر نفسه. فبعد يوم عمل طويل، يكون ميلهم لوصف الأفيون لمرضاهم أقوى من ميلهم لهذا الأمر في بداية اليوم، وكأنَّ إرهاقهم ينعكس على هؤلاء المرضى.

في مواجهة هذه الأخطاء في الحكم، قدَّمت الخوارزميات بديلاً لا يتعلق بالوقت المستغرَق في العمل ولا بدرجة الحرارة الخارجية. فقد قام فريق من الباحثين بقيادة سينثيل موليناثان Sendhil Mullainathan من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بتدريب

الذكاء الاصطناعي على محاكاة الإفراج بكفالة عن السجناء. وحصل الفريق على المعلومات نفسها التي حصل عليها القضاة فيما يتعلق، على وجه الخصوص، بالتاريخ الجنائي للجاني. ولتجنُّب أيّ حكم نمطي، لم يتم تزويد الكمبيوتر بأية بيانات تتعلق بالجنس أو العرق. مقارنةً بالبشر، عملَ الذكاء الاصطناعي على تحسين جودة الأحكام بشكل كبير. فعمليات الإفراج بكفالة الصَّادرة عن منظمة العفو الدولية خفَّضت معدل الجريمة بنسبة 25٪ تقريباً. وأظهر باحثو معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا أيضاً بأنه يمكن تقليل معدَّل الحبس هذا بنسبة 40٪، بخصوص عودة الجناة إلى الجريمة. بمجرّد أن يكون الهدف بسيطاً في التعبير الإحصائي، أي عندما يتمثَّل هذا الهدف، كما هو الحال هنا، في تقليل النسبة المئوية المتوسِّطة لمعاودة الإجرام، فإنَّ الغلبة تكون للذَّكاء الاصطناعي من دون غموض.

لكنَّ كانيمان والمؤلفون المشاركون معه حذَّروا من فضائل الذكاء الإصطناعي بعد هذا البرهان المطوَّل المؤيد له. توحي تخيّلات فيلم مثل «المرآة السوداء»، المستوحى من كتاب مشهور في الخيال العلمي، بوجود علمٍ يلقي بظلاله على العالم اليوم قد يكون لديه الوسائل للتنبؤ بالسلوك البشري بشكل مثالي. حتى في الحالات البسيطة عندما يتعلق الأمر بالتنبؤ بالنوبات القلبية، فإنَّ الذكاء الاصطناعي بالتأكيد أفضل من الأطباء، لكن النتيجة النهائية تظلّ هزيلة. في الواقع، إنَّ أخطاء الأطباء تعود لضعف قدرتهم

«الموضوعية» على التنبؤ بالنوبات القلبية، أكثر مما تعود لمحدوديتهم الخاصة. المشكلة تكمن في الإنكار الذي يستولي على الخبراء بقدر ما تكمن في الاتهام المعاكس بالجهل الموجه إليهم.

الأخلاق الرّقميّة؟

لقد أجبَر تطوير السيارات ذاتية القيادة المصنّعين على إثارة قضايا أخلاقية لم تكن بالحسبان. والسؤال هو: إذا واجهت السيارة ذاتية القيادة معضلة تتمثل في دهس أحد المشاة تجنّباً لدهس اثنين آخرين، فماذا ستفعل؟ هل تأخذ في الحسبان حقيقة أن المترجّل المتعرّض للخطر شاب والآخران عجوزان؟

هل ستدرك السيارة حقيقة أنَّ المترجل المهدَّد يتصرَّف بموجب حقوقه المتعلقة بممرات عبور المشاة؟ هذه الأسئلة المسلّية أو المخيفة لاتزال في بداياتها. إنها لا تخيف بأية حال منظّري الخوارزميات لأنها تعدّهم للعالم الذي يدور في أذهانهم: مجتمع ستتخذ فيه الآلات عدداً متزايداً من القرارات، بما في ذلك معالجة المرضى أو إصدار حكم.

أظهر مارتان جيبرت Martin Gibert في كتاب لا يخلو من الحسِّ الفكاهي عنوانه «إعطاء دروس أخلاقية للروبوتات»، أنَّ هذه النقاشات غالباً ما تنطلق من معضلة طرحتها الفيلسوفة البريطانية **فيليبا فوت** عام 1967، وهي معضلة الترام أو القطار. لنتخيل أنَّ قطاراً يسير بسرعة عالية سيقتل خمسة أشخاص دفعة

واحدة إذا لم يُحوَّل عن مساره. إنَّ تحريك ذراع التحويل سيحرف القطار إلى سكة أخرى، ولكن يوجد على هذه السكّة عامل سكَّة حديدية آخر، مما يعني أن تغيير مسار القطار سيؤدي لقتل ذاك الشخص البريء. ما العمل عند ذلك؟ للإجابة على هذا السؤال، أنشأ معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا موقعاً على شبكة الإنترنت، بعنوان «تجربة الآلة الأخلاقية»، والتي تختبر الفضائل الأخلاقية للناس، وفقاً لأعمارهم وجنسهم وتعليمهم. وإجمالاً، يفضّل الناس إنقاذ أكبر عدد ممكن من الأشخاص، وخاصة إذا كانوا شباباً. ومع ذلك، في بعض الأحيان، يرغب الناس بإنقاذ كبار السن، في بلدان آسيا والشرق الأوسط، على سبيل المثال. هذه الأخلاق العفوية تسمى النَّفعية والتي وضع أسسها في القرن الثامن عشر **جيريمي بنثام**. لقد اعتبر **بنثام** أنَّ الفعل يكون له مبرراته الأخلاقية إذا زاد من مجموع ملذَّات الناس المعنيين. فالتضحية بشخص واحد لإنقاذ خمسة أشخاص هو عمل أخلاقي مرغوب فيه بالنسبة **لبنثام**. في الواقع، الإنسان النَّفعيُّ الحقيقيُّ سيكون أكثر دقة: إذا كان الأمر يتعلَّق بخمسة رجال كبار في السن من ناحية، وشاب أو شابة من ناحية أخرى، فإنَّ الحساب الدقيق قد يكون مختلفاً... هذه هي الأخلاق التي يتذرَّع بها الاقتصاديون في أغلب الأحيان. إنها تؤدي إلى حسابات مروِّعة حول «سعر» حياة الإنسان (وصل الرَّقم في فرنسا إلى ثلاثة ملايين يورو) والذي، على سبيل المثال، يجعل من الممكن البتّ في مسالة ما إذا كانت الأشغال المكلفة على مسار معين مبرَّرة أم لا. هذه الأخلاق القائلة بأن العبرة بالنتائج أو بأن «الغاية

تبرر الوسيلة»، تحكم على قيمة الفعل من حيث نتائجه.

في مقابل أخلاقيات بنثام، نجد غالباً أخلاقيات **كانط** الذي يستنتج الفعل الصحيح من المبادئ التي توجهه بدلاً من النظر في نتائجه. تنص هذه الأخلاق «الواجبة» **déontologique** على أنَّ هناك مبادئ مطلقة يجب مراعاتها في الظروف كافة: على سبيل المثال، عدم تعذيب الآخرين. ثمة طريقة لفهم ما تقتضيه هذه الأخلاق في حالة القطار تكمن في اتّباع التجربة الفكريَّة التي اقترحتها فيلسوفة أمريكية أخرى، وهي جوديث جارفيس طومسون Judith Jarvis Thomson. في المثال الذي قدمَّته، لم يَعُد بإمكاننا إنقاذ الأشخاص الخمسة المهدَّدين من خلال توجيه القطار، ولكن يمكننا القيام بذلك عن طريق دفع شخص آخر إلى مسار سكة الحديد، لأنَّ سقوط هذا الشخص سيؤدي إلى إخراج القطار عن مساره وتجنب وفاة الأشخاص الخمسة الأبرياء ...لنفترض أنَّ الشخص الذي يجب أن يتّخذ القرار بإلقاء نفسه هزيلٌ نحيف البنية بحيث لن يكون من المجدي أن يضحّي بحياته لأنَّ سقوطه لن يؤدي إلى خروج القطار عن السكة الحديدية، فهل يجب عليه أن يقوم طواعية بدفع الرجل الأكثر سمنة الذي يقف بجانبه؟ معظم الناس الذين سيُسألون هذا السؤال سيعترضون على الأمر بشكل عام، على الرَّغم من أنَّهم كانوا موافقين على تغيير مسار القطار. من وجهة النظر الأخلاقية الجديدة هذه، حياة الآخر ليست ملكاً لنا ولا يمكننا أن نلقي شخصاً أمام القطار (لنَقُل من دون

موافقته)، حتى لإنقاذ أكثر من خمسة أشخاص. هناك مبدأ في الأساس وهو الاحترام المطلق لـ «كرامة» كلِّ فرد، والذي يرفض الحق في جعله وسيلة لخدمة غاية.

أية أخلاق نختار من أجل القيادة بمساعدة الكمبيوتر؟ هناك طريقة ثالثة، بحسب جيبرت، وهي «الفضيلة». لم يَعُد الأمر يتعلق بوضع معايير نفعيَّة أو كانطيَّة، بل بالتَّصرف كشخص فاضل في موقف مماثل. هذا ما أسماه أرسطو «التعقّل» (phronesis : العقل العملي)، أي القدرة على التصرف بالطريقة الصَّحيحة في الوقت المناسب. كيف سيكون ردّ الحكيم على طفل يؤمن بوجود بابا نويل :هل يتركه لأوهامه (أي لراحته، متبعاً بذلك نهجاً نفعياً) أم يُعلّمه الحقيقة (متبعاً بذلك نهجاً مبدئياً)؟ لا شك أنه سيقدّر اختيار اللحظة المناسبة، وسيحقق توازناً دقيقاً بين الاثنين..

تكمن مشكلة الذكاء الاصطناعي في أنَّ هذا النهج يتألف من تعديل المرء لسلوكه وفقاً لمجموعة متغيرة وطارئة من الظروف التي يصعب معها معرفة كيفية جمعها معاً.

هل ترغب في أن تُقاد سيارتك مثلما يمكن أن يقودها **مارتن لوثر كينج** أم مثلما يمكن أن يقودها **نيلسون مانديلا**؟ كيف بالإمكان الحصول على المعطيات التي تُمكّننا من فهم الطريقة التي تقوم بها هاتان الشخصيتان الحكيمتان بالتحكيم في مواقف غير متوقعة؟

لن يكفي استبدال السيارة أو الحصان من قبيل الحذر. ولكن إذا

كان بالإمكان إحياء الموتى، لن يكون هناك شكٌّ في إمكانية إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة.

قضية القرن

كتب إيريك سادان: Éric Sadin الإنسان مفعم بعاطفة مثيرة للقلق تكمن في استنساخ نفسه، اقتداءً بالله الذي خلق آدم على صورته. يُعدُّ **سادان** واحداً من أفضل مفكري الذكاء الاصطناعي، وهو يصف هذا الذكاء بأَنَّه قوةٌ حقيقيَّةٌ puissance aléthéique، فكلمة alètheia تعني الحقيقة في اليونانية.

يختلف عصر التكنولوجيا التجسيمية anthropomorphique الجديد اختلافاً كبيراً عن ذلك الذي قدَّم للبشر رافعة لزيادة قوتهم في العمل. فالذكاء الاصطناعي يقوم بأكثر من مجرد تنظيم علاقة فعَّالة بين الإنسان والمادة: إنَّه يأخذ مكان البشر لإدراك الواقع، والآلة الآن «تُعدُّ أكثر موثوقية منا».

يجادل **سادان** بأنَّ «قضية القرن» تكمن في قدرتنا على عدم القبول «بالفرض الأحاديّ الجانب للحقيقة الذي يكمُّ أفواهنا، ويصادر حقنا في الكلام». ويضيف قائلا بأَنَّه تمَ تاريخياً تشكيل القواعد والاتفاقيات والأحكام المسبقة في العديد من الأماكن. فلا شيء أكثر إلحاحاً من الحفاظ على المؤسسات التي تتطوَّر فيها الحياة الاجتماعيَّة، سواء أكانت مدارس أو برلمانات أو محاكم. لحسن الحظ يمكن للمرء أن يقول إنَّ إحلال الخوارزميات محلّ البشر ليس في الواقع بالأمر البسيط على الإطلاق. فقد وجَدت دراسة استقصائية

أجريت في معهد ماكينزي العالمي على ثلاثة آلاف مدير تنفيذي أنَّ اعتماد الذكاء الاصطناعي خارج قطاع التكنولوجيا لا يزال في بدايته. ولا يزال هناك عقبات عديدة يجب التغلب عليها قبل أن يحلَّ الروبوت محلَّ الإنسان.

فالروبوت يفتقر إلى «الفطرة السليمة» التي تحدَّث عنها لو كون. فالتمييز بين القِدر المتسخ الذي يحتاج إلى التنظيف والأصيص الذي زُرع فيه نبات هو أمر بسيط بالنسبة للإنسان. أما الروبوتات فهي لا تزال عاجزة عن القيام بذلك. هناك روبوتات تُستخدم لمهمة واحدة، وهي قادرة على القيام بمهام محدَّدة مثل تنظيف الأرضيات، ولكن لايوجد بَعد نموذجٌ متعدد المهام قادرٌ، على سبيل المثال، على اكتشاف النفايات والقضاء عليها. ولا تَجد الروبوتات الراحة إلاَّ في أماكن معيَّنة مثل المصانع أو المستودعات حيث يُحدَّد لها كل شيء.

ومع ذلك، فإنَّ الحالات القصوى المتعلقة بمصانع تحكمها الخوارزميات بالكامل هي خيالية تماماً. ويمكن التدليل على خيبة الأمل هذه عبر مثال يجسّده إيلون ماسك Elon Musk. ففي عام 2016، أعلن أنَّ الطراز الجديد من سيارته «تسلا»، وهو الموديل 3، سيتم بناؤه بطريقة آلية بالكامل. وكان اسمه الرمزي وهو «المدرّعة الغريبة» «Alien Dreadnought»، يوحي بدلالات خيالية هادفة. لقد تم تطبيق تقنيات متقدمة للغاية تتجاوز الممارسات الشائعة بكثير. وكان من المفترض أن تعمل أتمتة المهام الكاملة على توفير السرعة. فتذهب المواد الخام إلى جهة، والسيارات

إلى جهة أخرى، وفي المنتصف يكون لدينا روبوتات تقوم بكل شيء بسرعة عالية جداً. لكنَّ المصنع الذي كان من المفترض أن يعمل بكامل طاقته في نهاية عام 2018 لم يعمل. وبحلول منتصف عام 2018، أصبح من الواضح أنَّ الإنتاج يخلق مشكلات لا يمكن إصلاحها. ووُصِفَت العملية بأنها جحيم «قبل أسابيع قليلة من الكارثة». لقد كانت الأتمتة الكاملة ضرباً من الخطأ. وخَلُص «ماسك» إلى نتيجة غامضة عبّر عنها على تويتر قائلاً: Humans are underrated «لا يحظى البشر بالقدر اللائق من التقدير». أما آلان سوبيو Alain Supiot فقد شجب في مقابلة مع صحيفة **لوزين نوفيل** «وهمَ قيادة الشؤون الإنسانية آليا»[53]. فالتكنولوجيا الجديدة تحتاج للوقت حتى تشقّ طريقها.

ربما يكون جهاز إي.بي.إم واتسون IBM Watson أداة هائلة، قادرة على الحلول محلّ البشر للقيام بالعديد من المهام الإدارية، غير أن قلَّة هم من يملكون الجرأة على تكليف هذا الجهاز بمهمة تبدو بسيطة وهي دفع فواتيرهم. الكهرباء هي مثالٌ كلاسيكي يشهد على الزمن الذي يمكن أن يفصل بين اكتشاف تقنية جديدة ووضعها قيد الاستخدام الكامل. وهكذا أوضح الخبير الاقتصادي **بول ديفيد** أن نصف الشركات الأمريكية لم تكن في عام 1919 تستخدم الكهرباء، على الرغم من أن التيار المتناوب كان قد اكتُشِف قبل ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ. وفي نهاية المطاف

(53) A. Supiot, « Restaurer un travail réellement humain est sur le long terme la clé du succès économique », *Usine nouvelle*, 24 avril 2015.

أُضيئَت المدن بالكهرباء، ومن ثم الشقق السكنية، ويعدُّ ذلك مكسباً مباشراً في حدّ ذاته. لكنَّ الاستخدام الكامل للكهرباء اعتمَد على كثيرٍ من التطبيقات اللاحقة مثل الراديو والتلفزيون والغسَّالة، التي اختُرِعَت فيما بعد.

إنَّ خاصية التكنولوجيا المتقدمة هي تقديم مجموعة من الاحتمالات التي تتجاوز فهمَ مخترعيها. وهكذا استُخدم المحرِّك البخاريُّ في البداية لضخِّ المياه من المناجم، واستغرق الأمر عقوداً عديدة قبل أن ندرك أنه يمكن أن يسمح للسكك الحديدية بنقل آلاف الركاب من مكان إلى آخر. وما أكثر ما يُخطئ المخترعون أنفسهم في تحديد فائدة اكتشافاتهم ! فقد اعتقد أديسون أنَّ الفونوغرام (التسجيل الصوتي) سيُستخدم لتسجيل وصايا الموتى. واعتقد بيل Bell أن الهاتف سيجعل من الممكن الاستماع إلى حفلة موسيقية من مكان إلى آخر!

عدم اليقين الحالي بشأن المنافذ المحتملة للذكاء الاصطناعي هو خبر جيّد وسيء في آن معاً. إنه خبر جيّد لأننا غير خاضعين للمكتوب. وهو سيء لأننا لا نعلم ما ينتظرنا في المستقبل. فلا أحد يستطيع أن يقول اليوم ما هي الاستخدامات التي ستُثبت أنها مفيدة للغاية. إنَّ قانون أماراAmara، الذي سمي على اسم «روي أمارا»، الرئيس السابق لمعهد المستقبل في كاليفورنيا، يوضّح بأننا نميل إلى المبالغة في تقدير تأثير التكنولوجيا الجديدة على المدى القصير والتقليل من شأنها على المدى الطويل. إذا لم يحدث شيء

هائل على الأرجح في السنوات الخمس إلى العشر القادمة، فما الذي يمكن أن يحدث على المدى الطويل (إلى حدّ ما)؟

إنَّ حركة المرور في المدن وإدارة الحسابات المصرفية والصحة ستنتقِل بلا شك إلى مجال علم الخوارزميات. ولكنَّ مجالات عديدة أخرى ستتحول أيضاً: واجهة التفاعل بين الدماغ البشري والآلة، الحياة في عالم «الميتافيرس»[54] ...إلخ. ما يبدو مكتوباً هو أنَّ الثَّورة الرَّقميّة ستُعيد تشكيل الحياة الاجتماعية بشكل عميق. سيُطلَب من الجميع التفكير في كيفية إحلال مشاركين خوارزميين محلّ مساعدين من البشر، لتنظيم تخفيض كبير في الاجتماعات وجهاً لوجه، مما يؤدي إلى اضطراب جذري في العلاقة مع الآخرين. إنَّ هذا الخطر الكبير المتمثل في التَّفكك الاجتماعي هو الذي يتسبب بالفعل في اضطراب مجتمعاتنا، مما يؤدي إلى قدر لا يحصى من الضرَّر النفسي والاجتماعي.

---

(54) يستخدم المصطلح عادةً لوصف مفهوم الإصدارات المستقبلية المفترضة للإنترنت، المكون من محاكاة ثلاثية الأبعاد لا مركزية ومتصلة بشكل دائم. هذه العوالم الافتراضية يمكن الولوج إليها والوصول لها عبر نظارات الواقع الافتراضي أو الواقع المعزز والجوالات والحواسب المكتبية ومنصات الألعاب. (المترجم)

.IV

التخلخُل السياسي

النمو المُفقر

من المفترض أن تعمل الثَّورة الرَّقميّة على تحسين الظروف المعيشية للمجتمعات المتقدمة. ومع ذلك، فإنها تمثّل مفارقة التكنولوجيا «المُفقِرة». ففي الولايات المتحدة حيث ولدت، بالكاد ازداد أجر العامل خلال الخمسين عاماً الماضية [55]. ورافق هذا الركود انفجارٌ في أجور من كان أكثرهم ثراءً.

أظهرت أبحاث توماس بيكيتي Thomas Piketty والمؤلفين المشاركين معه أنَّ نصف السكان الموجود في القاع شهدَ اضمحلالَ حصّته من الدخل القومي، حيث انخفض في غضون خمسين عاماً من 20 ٪إلى 10٪ من الإجمالي. وفي الوقت نفسه، كانت نسبة 1 ٪ من أغنى السكان تمضي في الاتجاه المعاكس تماماً، فقد ارتفعت حصتها من 10٪ إلى 20 ٪ خلال الفترة نفسها! هذا الارتفاع في مستويات التفاوت الأمريكية يتناقض بشكل مذهل مع سنوات ما بعد الحرب حيث كان نمو القوة الشرائية متطابقاً تقريباً في طبقات المجتمع كلها. حدثت الثَّورة الرَّقميّة في أعقاب ملحمتين صناعيتين عظيمتين، ملحمة الكهرباء

---

(55) راتب العامل الأبيض الذي لا يمتلك مؤهلات فقد 13٪ من قوته الشرائية (بعد تعديل التضخم) خلال خمسين سنة.

في القرن الماضي وملحمة المحرك البخاري في القرن الذي قبله. كان لهاتين الثورتين تأثيرٌ كبير على المجتمع، لكنّهما مختلفتان تماماً عن بعضهما بعضاً. فالثَّورة الكهربائية أنتجت خطوط تجميع كبيرة، تجلى تأثيرها في تعميق العلاقات الاجتماعية، وإعطاء قوة جديدة للنقابات.

أما الثَّورة الصناعية الأولى، ثورة المحرّك البخاري قبل قرن من الزمان، فقد أدّت إلى إنشاء المصانع الحديثة الكبرى، أعني نظام المصنع factory system، لكنَّ آثارها الاجتماعية كانت أكثر وحشية بكثير، إذ اضطرَّ الفلاحون إلى ترك مجتمعاتهم الأصلية، والهجرة إلى المدينة لتشكيل «جيش احتياطي صناعيٍّ» هائلٍ، على حدّ تعبير ماركس. وعلى مدى أكثر من نصف قرن، استمرّ تدهور وضع الطبقات العاملة الإنجليزية [56]. فانخفضت أجور عمال النسيج بشكل مطّرد حيث حلَّت الآلات محلّهم، ولم يتوقف هذا التدهور إلا بعد زوالهم تماماً.

في كتابه حول حالة الطبقة العاملة في إنجلترا والذي نُشر عام 1845، كان **إنجلز**، المؤلف المشارك لماركس، قلقاً بشأن «وضع

---

(56) أشارت التقديرات إلى ارتفاع حاد في إنتاجية العمل (النسبة بين الإنتاج وساعات العمل) بين عامي 1780 و 1840، بنحو 50٪. ومع ذلك ، كان الارتفاع في الأجر الحقيقي، بعد الأخذ بالحسبان معدل التضخم، أقل إجمالاً من 10٪، أي أقل بأربع مرات تقريباً. ثم تغير كل شيء. بين عامي 1840 و 1880، زادت إنتاجية العمل بنسبة 90٪ ، وزادت الأجور الحقيقية بنسبة 120٪، وهي أرقام قدمها R. Allen في:
Engels' Pause. A Pessimist Guide to the British Industrial Revolution, Oxford University, 2007.

الطبقة العاملة، أي وضع الغالبية العظمى من الناس. ماذا سيحلّ بهؤلاء الملايين من البشر الذين لا يملكون شيئاً، وينفقون في اليوم ما كسبوه بالأمس؟».

التناقض بين ظهور التقنيات التي يودّ المرء أن يعتقد أنها مواتية دائماً للتقدم الاقتصادي وإفقار الطبقات العاملة في القرن التاسع عشر لم يتوقف أبداً عن إثارة قلق الاقتصاديين. تحدَّث روبرت ألين Robert Allen عن «وقفة إنجلز»، في إشارة إلى المقطع المذكور لوصف تفاقم هذا البؤس داخل عالم يُعدّ أكثر إنتاجية.

تُقدم الثَّورة الرَّقميّة مثالاً جديداً حول ذلك. فهي في صلب إفقارٍ جديد للطبقة العاملة من دون أن تكون المسبّب الرئيس له دائماً. فالأصَل الرئيس للاضطراب الاجتماعي المعاصر، ولا سيما في الولايات المتحدة، يعود لثورة **ريغان** الليبرالية التي استهدفت قوة النقابات. فهذه النقابات أدّت على الدوام دوراً مهمّاً من حيث تحقيق المساواة في الأجور، ودفعت باتجاه شكل من أشكال إعادة التوزيع الداخلي لصالح أدنى درجات التسلسل الهرمي الاجتماعي. لكنَّ الشركات حطَّمت هذا الطموح من خلال استعانتها بمصادر خارجية لتأدية المهام التي تتطلب أقل المهارات. أظهر فيليبّ أسكينازي Philippe Askenazy في أطروحته أنَّ الشركات الأولى التي خضعت لإعادة الهيكلة، ولإعادة الهندسة، كانت في الغالب

الأشد نقابية [57].

في عالم الإنتاج الجديد الذي انتشر في الثمانينيات، تأتي تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إلى حدّ ما في أعقاب ذلك مباشرة : فقد أتاحت إمكانية تنظيم العمل حيث تمَّ تفويض المهام إلى الشركات البعيدة أكثر من أي وقت مضى. وكان الفاكس أول أداة ثورية لتسهيل نقل البيانات من شركة إلى أخرى. ثم جاء الإنترنت في التسعينيات ليُحدث تغييراً شاملاً.

في هذا النظام الجديد، أصبحت الشركات الأكثر كفاءة تعمل على تشغيل فسيفساء من الشركات الأخرى، وفوَّضتها بالأنشطة ذات الدخل الأقل. إنَّ ظهور الشركات المتميزة (superstars) التي لا تتوافر على فرص عمل مرتفعة هو التعبير الأوضح عن ذلك التحوّل. هذا هو النموذج الذي يمثله العمالقةُ الرقميون (غوغل وآبل وفيسبوك وأمازون) على نحو نموذجي، وإن كان في الواقع أكثر عمومية. فقد زادت الشركات الخمس الأعلى أداءً من حصتها في السوق بشكل كبير في القطاعات كافة. والحالُ أنها، باستثناء التمويل، أكثر كفاءة في العمل من منافسيها. وفي أيّ قطاع كان، كلّما قلّ تعيين الموظفين في الشركة، زاد نجاحها. لذا يتحدث الاقتصاديون في هذا الصدد عمَّا يسمى في الإنكليزية scale

(57) P. Askenazy, *La Croissance moderne : organisations innovantes du travail*, Economica, 2002.

without mass ، أي عن وفورات الحجم [58] بدون كتلة.

يمكن لـنتفليكس أو غوغل مضاعفة حجم إيراداتها من دون الحاجة إلى مضاعفة عدد الموظفين. المفاجأة هي أنَّ هذا النموذج يبدو أنه يفرض نفسه في كل مكان، وليس فقط في قطاع الصَّناعة الرَّقميّة. ففي الولايات المتحدة، أنتجت أكبر 100 شركة ثلث القيمة المضافة العالمية. وتبلغ حصتها اليوم 50 ٪ [59]. هذه الشركات «المتميزة» هي التي تُسهم بشكل كبير في خفض حصَّة الأجور في القيمة المضافة.

لم تتأثر جميع البلدان بهذه الثَّورة بالقدر نفسه. ففرنسا، على سبيل المثال، قاومت انخفاض حصَّة الأجور في الدَّخل الإجمالي. إنَّها مَدينة في ذلك لسبب وجيه وآخر خاطئ. السبب الخاطئ هو أنه

---

(58) في الاقتصاد الجزئي، وفورات الحجم هي مزايا التكلفة التي تحصل عليها الشركات بسبب حجم عملها (يقاس عادة بحجم الإنتاج المحقق)، فتتناقص تكلفة إنتاج وحدة إضافية من السلعة كلما زاد حجم الإنتاج. تنطبق وفورات الحجم على مجموعة متنوعة من المواقف التنظيمية والتجارية وعلى مستويات مختلفة، على مستوى الإنتاج مثلًا أو المعمل أو على مستوى المؤسسة بأكملها. عندما يبدأ متوسط التكاليف في الانخفاض مع زيادة الإنتاج، تحدث وفورات الحجم. لبعض وفورات الحجم، مثل التكلفة الرأسمالية لمرافق التصنيع والخسائر بالاحتكاك في النقل والمعدات الصناعية، أساسٌ مادي أو هندسي. مصدر آخر لاقتصاديات الحجم هو إمكانية شراء المدخلات بتكلفة أقل لكل وحدة إذا اشتريناها بكميات كبيرة. يُنسب هذا المفهوم الاقتصادي إلى آدم سميث وفكرة الحصول على عائدات إنتاج أكبر من خلال استخدام تقسيم العمل. والضد من وفورات الحجم هو تبذيرات الحجم .(المترجم)

(59) قدم M. Pak و P. A. Pioneer و C. Schwellnus نظرة عامة ممتازة عن هذه الأسئلة في كتاب عنوانه Économie et statistique (الاقتصاد والإحصاء) عدد 510-512 وهو عدد مخصص للذكرى السنوية الخمسين للمجلة، التي قدمت عرضا رائعاً لتطورات العقود الخمسة الماضية.

ليس لديها كثيرٌ من الشركات على تخوم التغيرات التكنولوجية مثل الولايات المتحدة. والسبب الوجيه هو أنَّ مؤسساتها الاجتماعية، التي تقف خلف الحدّ الأدنى للأجور أو الحماية الاجتماعية بشكل عام، جعلت من الممكن مقاومة تقلص أجور العمال على نحوٍ أفضل. وبالتالي، كانت فرنسا أقلّ تأثراً بارتفاع مستويات التفاوت، من دون أن تُستثنى منه تماماً [60]. ومع ذلك، وعلى غرار معظم البلدان المتقدمة، تعرَّضت فرنسا للتباطؤ العام في النمو الذي ما فتئ يتزايد، عقداً بعد عقد.

يمكن ملاحظة التباطؤ العام في مكاسب الإنتاجية في كلِّ مكان، والذي يترجم حتماً على المدى الطَّويل إلى تباطؤ في نمو الأجور [61]. فدخل الأسرة، لم يعد يزداد كثيراً، في حين كان يتضاعف كلِّ خمسة عشر عاماً في الستينيات. ولا ينفصل السبب العام لهذا التباطؤ في فرنسا كما في الولايات المتحدة، عن «مرض التكلفة» الذي تحدث عنه بومول Baumol: فتحقيق مكاسب إنتاجية في شركة خدمات يُعدّ أصعب من تحقيقها في شركة صناعية. إنَّ التَّحدِّي المتمثل في ثورة الخوارزميات يكمن بالتأكيد في «حلِّ» هذه المشكلة،

---

(60) G. Cette et al., *Économie et statistique*, no 510-512.
ومع ذلك ، انخفضت حصة الدخل لأعلى 1 بالمئة من 7 بالمئة من إجمالي الدخل إلى 10 بالمئة. زادت القوة الشرائية الأغنى 1 بالمئة بنسبة 2.2 بالمئة سنوياً مقارنة بأقلّ من 1بالمئة لـ 99 بالمئة المتبقية. انظر في العدد نفسه : B. Garbinti et J. Goupille-Lebret.

(61) انتقلت إنتاجية العمل، التي تلخِّص التَّقدّم المحرز في التقنيات من معدل نمو بمقدار 4.5٪ (بين عامي 1960 و 1975) إلى 2.1٪ (من 1974 إلى 1992) إلى 1.1٪ (من 1993 إلى 2008) ليقترب من الموت، بمعدل + 0.6٪ سنويا من عام 2008 إلى يومنا هذا.

لكنَّ هذه الثَّورة مازالت في بداياتها، ومن وجهة نظر العمَّال الذين يعانون من آثارها، قد يكون العلاج أسوأ من المرض.

تتمثَّل النَّتيجة الرَّئيسة الواضحة بالفعل لهذا التَّحول في النِّظام الإنتاجي في الانهيار المستمر للوظائف الوسيطة .[62] فقد شهدت انخفاضاً في حصتها [63] في كلِّ مكان في البلدان المتقدِّمة، مثل فرنسا والولايات المتحدة. والوظائف «الإبداعية»، التي تأتي في قمة السّلم الاجتماعيّ، هي التي تحظى بأفضل معاملة. فالتجار traders ولاعبو كرة القدم ومنتجو الخوارزميات هم أكبر الفائزين في العالم المعاصر. فأيّ شخص يستخدم التقنيات الرَّقميّة لزيادة حجم جمهوره بلا حدود استطاع الإفادة من العالم الجديد الذي يوطّد أركانه.

في الطرف الآخر، في أسفل السّلم الاجتماعي، كانت الأنشطة «الحسَّاسة» المتعلِّقة بأعمال الرِّعاية، أو «أعمال السخرة»، هي التي زاد عددها أكثر من غيرها، بينما ظلَّت منخفضة الأجر. هذا الاستقطاب بين الطرفين يحقِّق المنطق المعلن للمزيَّتَيْن النسبيَّتَيْن اللتين تميّزان الإنسان من الآلات، أي : الحساسية والإبداع. إنَّ

---

(62) وفقاً للموقع الإلكتروني للمعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصاديَّة INSEE تشمل هذه الفئة من الوظائف الحرف المختلفة التي تعتبر وسيطة بين المدير cadre والموظف employe. مثل رئيس العمَّال والممرِّضة الخاصَّة والمدرِّب الرياضيِّ الذي يعمل لحسابه الخاص ورجال الدين والفنيين الذين يختلف تخصّصهم عن تخصص الشركة (المترجم)

(63) A. Resheffet, F. Toubal, *La Polarisation de l'emploi en France*, Paris, Cepremap, Éd. Rue d'Ulm, 2019.

القوة التي لا هوادة فيها **لوفورات الحجم** تُثري بلا حدود مَنْ هم في قمّة السّلم الاجتماعي بينما تُفقِر من هم في أسفله، وتحرمهم من مكاسب الإنتاجية. النتيجة الأكثر أهمية من الناحية السياسية لهذه العملية هي التَّدهور المستمرّ للطّبقة المتوسّطة.

لقد انحسرت جميع المهام الإدارية والتجارية التي كان دورها يكمن في الرَّبط بين أعلى الشركة وأسفلها، كما لو أنَّ الشركات تستطيع أنْ تعمل بشكل فعَّال من دون الحاجة إلى هذه الوظائف الموجودة في منتصف التسلسل الهرمي. لقد أصيبت الطَّبقات الوسطى وكذلك الطّبقات العاملة المحرومة من فرص التَّرقية الموعودة بها بخيبات هائلة، إذ فقدَ المتضررون ثقتهم بأنفسهم وبمستقبلهم الاجتماعي مما شكَّل لهم صدمةً عنيفةً للغاية.



انتحار العمال

روى الاقتصاديان آن كيس Anne Case وأنغوس ديتون Angus Deaton في كتابهما العظيم الذي يحمل عنوان «**وفيات اليأس**» Deaths of Despair، قصة اليأس المتزايد للطبقات العاملة الأمريكية الواقعة بين سندان عالم صناعي آيل إلى الزوال، ومطرقة عالم رقميٍّ يرفض تلك الطَّبقات. هذا الكتاب الذي يُشخّص بداية القرن الحادي والعشرين يُشبِه تقريراً مشهوراً كتبه في القرن التاسع عشر الدكتور فيليرمي Villermé حول بؤس الطّبقات العاملة، وحذَّر فيه من الإرهاق العقلي والبدني للطبقات العاملة الفرنسية.

تجدر الإشارة إلى أنَّ كتاب «وفيات اليأس» هو بمنزلة ملحق باعث على الأسى لكتاب ألَّفه أنغوس ديتونAngus Deaton، الحائز على جائزة نوبل في علم الاقتصاد، عنوانه «الهروب الكبير» La Grande Évasion تناول فيه بالتحليل انحسار الموت في الغرب بفضل الاختراعات الطبيَّة العظيمة في القرن العشرين: المضادات الحيوية، والتقدم في مكافحة داء الكلب والكوليرا... لكنَّ ما قدَّمه الطبّ في الولايات المتّحدة استهلكه المجتمع.

الكتاب يغوص في تفسير الصّدمات التي يتعرّض لها الأمريكيون. فهو يروي قصة اكتشاف حقيقة إحصائية قاسية: الزيادة في معدل وفيات فئة اجتماعية محدّدة للغاية تمثّل البيض الذين

تتراوح أعمارهم بين 45 و 54 عاماً، ولا يملكون شهادة في التعليم العالي، ويُطلَق عليهم أحياناً «الفقراء من ذوي البشرة البيضاء». يشمل مصطلح «وفيات اليأس» الذي استخدمه كيس وديتون الانتحار والمخدرات والكحول. وقد تَضَاعف عدد هذه الوفيات كلُّها ثلاث مرات في أقل من ثلاثين عاماً.

إذ حُرمت الطبقات العاملة الأمريكية من المستقبل وعانت من عواقب العزلة الاجتماعية المتزايدة، فقد سقطت في فخّ الاستهلاك الجامح للمواد الأفيونية، بتشجيع من المختبرات عديمة الضّمير. كان الارتفاع في معدَّل الوفيات على مدى العقود الماضية بمنزلة صدمةٍ غير متوقعةٍ على الإطلاق. وأصبح الانخفاض في معدل إصابة البالغين بالأمراض أحد التوجهات التي لا تُقاوم في القرن العشرين، والذي لم تكن تعيقه لا ثلاثينيات القرن العشرين ولا الحرب العالميَّة. وبصرف النظر عن الإنفلونزا الإسبانية التي انتشرت في عام 1918، والتي تمثّل الكورونا صدى جزئياً لها، فقد بدا هذا التوجه حتمياً. في هذا الوباء الخفيّ المتمثّل في استهلاك الموادّ الأفيونية، كان عدم الحصول على شهادة التعليم العالي أحد أهم المؤشرات الأساسيّة. يبدو الأمر كما لو أنَّ هذا الافتقار للتعليم «أصبح معادلاً لبطاقة تعريفية شُطبت منها «الإجازة الجامعية» بخط أحمر»، على حدّ تعبير **آن كيس**. بالنسبة للجيل المولود في عام 1980، كان معدّل الانتحار لدى الأشخاص البيض غير الحاصلين على تعليم عالٍ أعلى بأربع مرات من بقية السكان.

الحالات التي حلّلتها **كيس وديتون** هي الجزء المرئي من ظاهرة إهمال أكثر عمومية تتعرض لها الطبقات العاملة. كانت وظائف الأمس تمنح للعمال هويّة اجتماعيّة قويّة، مما سمح لهم بأن يكونوا حقاً جزءاً من شركة يفخرون بها مثل شركة فورد، أو شركة جنرال موتورز. وقد لخَّص دارون أسيموغلو Daron Acemoglu المشكلة قائلاً بأنَّها تتمثل في زوال «الوظائف الجيدة»، ذات الأجر الجيد التي توفّر إمكانية الترقية [64]. فاندثار الشركات الصّناعيّة الكبرى أدّى إلى نسف هذه الإمكانيات في التّرقّي. ذكر بيودBeaud وبيالو Pialoux الملاحظة نفسها بخصوص فرنسا: لقد زالت إمكانية الترقية الاجتماعية المقدمة للعمال. فلم يَعُد لدى العامل أيّة فرصة تقريباً في أن يصبح من الكوادر الإدارية [65].

لقد نسف المجتمع ما بعد الصناعي هيكل المجالات المهنيّة السّابقة. فهوَس الاستعانة بمصادر خارجية للقيام بأيّ شيء دفَعَ موظفي الصيانة والسّائقين ومندوبي المبيعات نحو الشّركات

---

(64) S. Beaud et M. Pialoux, Retour sur la condition ouvrière, Fayard, 1999. وأظهر غو Goux وموران Maurin أيضاً، أن عدداً كبيراً من الشباب الحاصلين على تعليم عالٍ قرّروا تولي وظائف أقلّ احتياجاً للمؤهلات مما كان متوقعاً، فتنافسوا بحكم الواقع مع الشباب الأقل تعليماً الذين عانوا بالتالي من منافسة غير متوقعة، مما أدى إلى انخفاض رواتبهم. انظر:

Économie et statistique, no 510-512.

(65)S. Beaud et M. Pialoux, *Retour sur la condition ouvrière*, Fayard, 1999. Comme le montrent aussi Goux et Maurin, un grand nombre de jeunes ayant une éducation supérieure ont dû se résoudre à prendre des emplois moins qualifiés qu'espérés,rivalisant de facto avec des jeunes moins éduqués qui ont ainsi subi une concurrence imprévue, poussant leurs rémunérations à la baisse, *Économie et statistique*, no 510- 512.

المستقلّة التّي تقدّم أدنى أجور ممكنة. فلم يَعُد العمال من ذوي المهارات المتدنّية في قطاعات الخدمات منغمسين في العلاقات الاجتماعيّة القويّة التي تميّز المؤسّسات الصّناعية. هذه الأطراف الفاعلة نفسها هي التي احتلّت مكان الصدارة في حركة السترات الصّفراء. فالسائقون، ومقدمو الرِّعاية حاضرون جداً عند الدَّوارات الطُّرقية، في حين أن ممثلي النقابات غالباً ما يتمُّ إبقاؤهم على مسافة بعيدة.

عودة إلى دوركهايم

لفهم أسباب «وفيات اليأس» هذه يجب أن نعود إلى إميل دوركهايم وكتابه الموسوم بعنوان «الانتحار» Le Suicide والمنشور في عام 1897. إنَّه كتاب ذو دقّة استثنائيّة يُؤسس علم الاجتماع الفرنسي، كما يؤسس بشكل عام إمكانية وجود علمٍ للمجتمع. إن كونَ ظاهرةٍ فرديةٍ مثل الانتحار تتكرَّر بشكلٍ ملحوظٍ، من عام إلى آخر، يدلّ على أنَّها تخضع للقوانين العامّة التي يستطيع عالم الاجتماع القيام بدراستها. حرص دوركهايم على إظهار أنَّ الانتحار ظاهرة اجتماعية أكثر من كونها نفسية، ولاحظ على سبيل المثال، أنَّ المجموعاتِ الاجتماعيَّة الزائدة التّمثيل في مستشفيات الأمراض النّفسيّة مختلفة عن أولئك الذين يُقدِمون على الانتحار. فالنساء على سبيل المثال، ينتحرْنَ بنسبة أقلّ بكثير من الرجال، على الرّغم من أنّهن يعانين من الاكتئاب أكثر منهم. وبالمثل، عندما ندقّق في الأرقام المتعلقة بالانتماء الديني، نجد أنَّ نسبة الانتحار منخفضة بين

اليهود، في الوقت الذي يذهبون فيه أكثر من غيرهم نسبياً إلى المصحّات العقلية.

إن ما يتسبب في الانتحار، ليس الفرد نفسه، بل المجتمع. ففقدان اتصاله بالعالم الاجتماعي هو الذي يدفعه إلى إنهاء حياته. يحلّل دوركهايم أولاً ما يسميه «انتحار الوحدانية»[66]، والذي يؤثر على الأشخاص الذين فصلتهم الحداثة عن روابطهم. وفي القرن التاسع عشر كان أولّ ضحاياها من الفلاحين الذين أُجبِروا على ترك أراضيهم للعمل في المدينة. وبعد قرن من الزمان، على حدّ ما بيّنه كريستيان بودلو Christian Baudelot وروجيه إستابليه Roger Establet، ظهرت إحصائيات جديدة تفيد بأنَّ الأمور انقلبت تماماً، إذ ازداد في الريف عدد حالات الانتحار، لكن سبب الانتحار بقي كما هو من دون تغيير: العزلة الاجتماعية[67].

لقد فقدت قطاعات كاملة من السكان، من بينها الطبقات العاملة، الاتصال ببقية العالم الاجتماعي. وكما أظهر **بودلو واستابليه**، فإنَّ دوركهايم لم تكن عقليته بأيّة حال من الأحوال ماضوية قديمة passéiste، بل كان يصبو لرؤية وعود الحداثة كلها. لكن هذا لم يمنعه من إظهار التكلفة البشرية الباهظة

(66) انتحار الوحدانية أو انتحار العزلة الاجتماعية. يظهر هذا النوع من الانتحار نتيجة لانعزال الفرد عن المجتمع لسبب ما يتعلق بالفرد نفسه أو يتعلق بالمجتمع الذي ينتمي إليه الفرد ويتفاعل معه (المترجم).

(67) C. Baudelot et R. Establet, *Suicide, l'envers de notre monde*, Paris, Fayard, 2006.

التي كان يتعين دفعها.

إلى جانب العزلة الاجتماعية، يؤكّد دوركهايم على دور عامل آخر قريب، ولكن من نوع آخر، وهو ما يسمّيه «تخلخلاً اجتماعياً» anomie sociale، أعني الشعور بأنَّ المجتمع لم يَعُد يخضع للقوانين المعروفة. وهكذا عندما يصبح نظام العالم غير مفهوم، ترتفع نسبة الانتحار. المثال الأوضح، عندما كان يخط فيه دوركهايم سطوره، يتجسَّد في الطلاق. فهو يحرم الذين تعرَّضوا لهذه الظاهرة من المعايير المرجعية، ومن سبل التفكير في مكانهم في العالم، مما يولِّد حالة من الاضطراب والقلق والاستياء. وكانت المناطق التي تفشّت فيها ظاهرة الطلاق هي أيضاً تلك التي ارتفعت فيها نسبة الانتحار أكثر من غيرها. فالعازب، حسب دوركهايم، لا يملك القدرة على التخطيط للمستقبل. ويبقى حبيس حاضر يتعلل «بالآمال»، وهو شعور أكثر غموضاً من استشراف المستقبل.

التخلخل المعاصر

أوضح لوك روبان، الباحث في مركز البحوث السياسية في معهد الدِّراسات السِّياسية في باريس CEVIPOF، أنَّ الانقسامات الفرنسية هي الأعمق على أرضية هذه العزلة الاجتماعية [68]. وعند السؤال عمَّا إذا كانت فرنسا أمة من الجماعات الموحَّدة أم الممزقة، تبيَّن أن 42٪ من الفرنسيين فقط رأوا أنها موحدة، ورأى

(68) L. Rouban, *La France : une république désintégrée*, Paris, Sciences Po-CEVIPOF, 2021.

53٪ منهم أنها مجموعة من الجزر المتفرقة، مما يؤكد صحَّة فرضيَّة جيروم فوركيه [(69)]. ويلعب المنظور الاقتصادي نفسه دوراً ضعيفاً. فالإجابات لم تختلف كثيراً، سواء أكان المستجوَب ليبرالياً أو نصيراً للاقتصاد الموجَّه.

وبمزيد من البحث في المسألة، كشف معهد الدراسات السياسية في باريس مع ذلك واقعاً آخر غير واقع انقسام فرنسا إلى أيديولوجيات أو جماعات متنافسة. فجزءٌ متزايد من السُّكان تأثر بشكل أساسي بهذا «التخلخل الاجتماعي» الذي تحدَّث عنه دوركهايم، وبهذا الشعور بفقدان الفرد للانتماء إلى المجتمع، وعدم فهم الدور الذي يؤديه فيه. وهكذا قام هذا المعهد باستجواب الفرنسيين حول روابطهم الاجتماعية بالمعنى الواسع للغاية : «هل تشعر أنك تنتمي قبل كل شيء إلى المجتمع القومي، أو إلى مجتمع من الأشخاص الذين يشاركونك قيمك (الدينية أو غيرها)، أو إلى مجتمع من الأشخاص الذين يتحدثون اللغة نفسها، أو الذين ينتمون للأصول الجغرافية نفسها التي تنتمي إليها ؟ هل تشعر أنك تنتمي إلى مجتمع من الأشخاص الذين يتشاركون الأذواق نفسها، وطريقة الحياة نفسها، أم تشعر أنك لا تنتمي إلى أيَّة جماعة ؟».

على الرغم من المجموعة الواسعة جداً من الإجابات المقدَّمة، فإنَّ 45٪ من الفرنسيين قالوا إنهم لا ينتمون إلى أية جماعة. هذه

(69) J. Fourquet, *L'Archipel français*, Le Seuil, 2019.

المجموعة الشاذة أو المتخلخلة anomique تشكّل نسبة ساحقة من الطبقات العاملة، حيث أعلن 65٪ من المستجوَبين انعدام وجود أيّ انتماء، بينما انخفضت النِّسبة إلى 25٪ في الطبقات العليا. ولا غرابة أن يكون ناخبوا حزب «التجمع الوطني» أكثر «تخلخلاً» وبنسبة 54 ٪ منهم، في حين أنَّ ناخبي حزب «فرنسا الأبيَّة» وناخبي حزب «الجمهورية إلى الأمام» حققا نسبة متساوية وهي 34٪.

في الستينيات، كان صاحب اليد العليا هو اليسار المتطرّف، أما الآن فهو حزب اليمين المتطرف: بالأمس أردنا الخروج من مجتمع خانق، واليوم على العكس، نريد إيجاد وسيلة للانتماء إليه.

كتب جيروم فوركيه JérÔme Fourquet وجان لوران كاسيلي Jean-Laurent Cassely كتاباً رائعاً أظهرا فيه يأس العمال ومدى تردّي الوضع الاجتماعي الذي سقطوا ضحيَّته[70]. لقد وصفا الانتقال من عالم كان المصنع فيه هو القلب النابض لهوية الطبقة العاملة إلى عالم آخر تلعب فيه مراكز التسوق هذا الدور. وكمثال رمزي على هذا التطوُّر، لاحظ المؤلفان أنَّه في اليوم التالي للمظاهرة الأولى للسترات الصفراء، التي قامت في 18 تشرين الثاني عام 2018، أغلقَ وفدٌ من السترات الصفراء أكشاك رسوم دخول السيارات إلى ملاهي **ديزني لاند** للمطالبة بالدخول المجاني، بدلاً

(70) J. Fourquet et J.-L. Cassely, *La France sous nos yeux. Économie, paysages, nouveaux modes de vie*, Paris, Le Seuil, 2021.

من إغلاق مقرّ الشرطة. توضّح هذه الحكاية التَّحوّل من مجتمع صناعيٍّ إلى مجتمع خدميٍّ، حيث نجد البروليتاريا ذات المؤهلات المحدودة في أعمال تقوم بها أمينات الصندوق في السوبر ماركت، ومقدمو الرِّعاية في دور رعاية المسنين Ehpad أو عمال خدمة التوصيل في **أوبر إيتس** .Uber Eats. تمتلك فرنسا الآن أقلّ من 10٪ من القوى العاملة المحدَّدة في القطاع الصِّناعيٍّ، وهو رقم لوحظ أيضاً في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة. وأدّى تراجع التصنيع إلى تقطيع شريان الحياة في مناطق بأكملها، إذ تكيَّفت الصناعة مع المناطق النائية حيث تكون تكلفة الأرض منخفضة، والبضائع هي التي تنتقل إليها. وتمخَّض اتساع القطاع الثالث عن جغرافيا جديدة تماماً. فالوظائف في قلب المدن تكون أكثر قرباً إلى الزّبون. لكن بَعد طرد العمّال من المصانع تمّ إبعادهم عن المدن بسبب أسعار المساكن الباهظة، وتكاليف النقل المتزايدة باستمرار.

وبالإضافة إلى تأثّر الوظائف نفسها، تأثرت سيولوجيا الطَّبقات العاملة بأكملها. وقد تناولها بالبحث الجغرافي **أرنو فريمونت** من خلال ثالوث «المصنع -المدينة- الملعب الرياضي». لقد أدّى تراجع التَّصنيع إلى تدمير حياة الطبقة العاملة، داخل المصنع وخارجه، والتي كان الحزب الشيوعي هو المعبّر السياسي عنها، فبيعت مساكن العمال أو دُّمرت، واستولت عليها البلديات في بعض الأحيان لتحويلها إلى مساكن اجتماعية يشغلها سكانٌ هشُّونَ اجتماعياً أو غير مستقرين أو عاطلون عن العمل.

لعبت أندية كرة القدم أيضاً دوراً أساسياً في ثقافة الطبقة العاملة، التي غالباً ما تدعمها مجموعات صناعيَّة كبيرة. كان فريق «الخضر» Les Verts في مدينة «سانت إتيان» أحد الأمثلة البارزة. واليوم تستمر «الرِّعاية» sponsoring لكنَّها لم تَعُد في خدمة السكان المحليين. أنشأ نادي سوشو Sochaux، المدعوم من عائلة بيجو Peugeot منذ عام 1928م، رابطاً قوياً للغاية بين الشَّركة المصنِّعة والعاملين. وتمّ بيع النادي منذ ذلك الحين، حيث فضَّلت الشركة رعاية التنس، وهي «رياضة دولية تناسب قيمنا بشكل أفضل، وتؤثر في الرجال والنساء» (وقد تخلَّت المجموعة عن هذه الرياضة في النهاية أيضاً). لقد أدَّى تراجع التَّصنيع إلى إحداث صدمة دائمة في المناطق الأشد تضرُّراً. وعندما غادر السكان الأكثر قدرة على الحركة، والأعلى كفاءة المناطقَ الصناعية، فقدت هذه المناطق بسرعة الكتلة الحرجة [71] التي تُمكّن من جذب الخدمات المتطورة، خاصة في مجال الصِّحة أوالتعليم. وتمَّ تضييق حبل العزلة الاجتماعية حول رقبة من بقي منهم.

---

(71) الكتلة الحرجة: هي النقطة التي تصبح فيها الشركة الناشئة قادرة على الاعتماد على نفسها وأرباحها بدرجة كافية تمكنها من الاستغناء عن الاستثمارات الخارجيَّة الإضافية من أجل استمرارها اقتصادياً (المترجم)

ثورة سياسيَّة

أسفر هذا الشعور بالعزلة، والضائقة الاجتماعية، عن عواقبَ وخيمةٍ مثَّل ذروتها على الصّعيد السِّياسي انتخاب **دونالد ترامب** في عام 2016. فوجئ المراقبون بهذا الفوز الذي حقق النصر لتلك الحركة المعروفة باسم «الشعبوية» والتي مثّل خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وانتخاب **سالفيني** في إيطاليا و**بولسونارو** في البرازيل لحظات بارزة أخرى فيها. وصل الاستقطاب في الحياة السياسية الأمريكية نتيجة هذه الانتخابات إلى ذروته، مما أدّى إلى اشتعال الحرب بين الأمريكَتين نظراً لفقدان الاحترام المتبادل بينهما. عندما سُئِلَ الجمهوريون السؤال الآتي: «هل ستكونون سعداء بزواج ابنتكم من ديمقراطي؟»، كانت نسبة الذين أجابوا بالإيجاب تمثل 5٪ عام 1960، وهي الآن في هذه الحالة تمثل 50٪ ... ولوحظت الكراهية نفسها عند الإجابة على أسئلة متعلقة بذكاء الطرف الآخر أو نزاهته [72].

يوجد استقطاب سياسي أيضاً في جغرافية الأصوات الانتخابية. فأداء المقاطعات التي صوتت للجمهوريين أو للديمقراطيين كان أفضل بكثير مما كانت عليه الحال قبل ثلاثين عاماً. لم يَعُدْ ناخبو **بايدن** و**ترامب** يعيشون في أمريكا واحدة. فالديمقراطيون

(72) M. Gentzkow, « Polarization in 2016 », Stanford University, 2020.

يتواجدون بأغلبية ساحقة في المدن الكبرى، وأولئك الذين يعيشون في البلدات الصغيرة أو المناطق الريفية صوَّتوا لصالح ترامب (على الرغم من أن جمهور الناخبين الجمهوريين التقليديين الذين منحوه أصواتهم يعيشون أيضاً في المدينة [73]). أظهرت دراسات عديدة أن انتخاب ترامب كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بزيادة الشعور بالعزلة الاجتماعية لدى الطبقات العاملة التي رسم كيس وديتون صورتها اليائسة. فالتصويت لصالحه يعود لعدم ارتياح ناخبيه [74].

إنَّ أوضح علامة على أن مسائل التفكك الاجتماعي أصبحت محورية تتجلى من خلال تفاقم قضايا الهوية في النقاش السياسي. ففي الأمس كنا نتحدَّث عن الطبقات الاجتماعية والعمال والبرجوازية وإعادة التَّوزيع. واليوم نتحدَّث عن «الهويات» سواء أكانت عرقية أم قومية.

رسم روبرت فرانك Robert Frank في كتابه «**لماذا يصوّت الفقراء بشكل صحيح؟**» الصورةَ التشاؤمية لمدينة الطبقة العاملة

---

(73) توضح أبحاث أنطوان ليفي (معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا) أن هذا هو سبب شغل الجمهوريين لمجلس الشيوخ في حين أنهم أقلية في التصويت.. إن القاعدة التي تخصص عضوين في مجلس الشيوخ لكل ولاية، بغض النظر عن كثافتها السكانية، تعزز بشدة المناطق ذات الكثافة السكانية المنخفضة.العرق هو أيضا مؤشر قوي دائما. صوت 57٪ من البيض لترامب، واختار 72٪ من غير البيض بايدن ، حتى لو كان أداء ترامب أفضل من المتوقع، خاصة بين اللاتينيين الذين منحوه الفوز في فلوريدا. الانقسام الرئيس الآخر هو التعليم. ثلثا البيض بدون شهادة جامعية صوتوا لترامب.إنهم يمثلون 31٪ من الناخبين الأمريكيين. هذه نتيجة تشبه نتيجة مارين لوبان في فرنسا.

(74) G. Ward *et al.*, « (Un)happiness and voting in the US presidential election »,*Journal of Personality and Social Psychology*, 2021.

السابقة «ويتشيتا» الأمريكية، والتي كانت بالنسبة للملاحة الجوِّية كما كانت مدينة «ديترويت» بالنسبة للسيارات. وقد أصبحت ويتشيتا بعد إغلاق المصانع التي أعطتها هويتها العمالية عاصمةَ اليمين الجديد التي يسكنها على ما يبدو هاجس واحد، وهو أن تصبح جبهة معارِضة للإجهاض ...هذه الفجوة بين تراجع التصنيع الذي يطرح بوضوح السؤال الاجتماعي وردّ الفعل السياسي الذي انتقل إلى المجال الثقافي هو لغز يحاول الجميع حلَّه، كلّ على طريقته الخاصة. بالنسبة لمؤلفين مثل إنغلهارت Inglehart و نوريس Norris، فإنَّ المسالة الثقافية تُعدّ «ردّ فعل عنيف» backlash من جانب أولئك الذين مازالوا يرفضون ثورة الستينيات الثقافية، والذين عبَّروا عن ذلك من خلال تصويتهم لصالح اليمين [75]. ومع ذلك، فإنَّ الخطأ في هذا التفسير هو أنَّ التصويت لليمين المتطرِّف لا يقتصر على كبار السن، على حدّ قول نوريس وإنغلهارت. فالشباب الذين انضمّوا لليمين المتطرف ليسوا أقلّ عدداً من كبار السن. ومن المريب أن نرى في الانتقال إلى أقصى اليمين آخر شرارة لجيل في حيرة من الممارسات الثقافية للمستجدات.

ثمة تفسير آخر يفيد بأنَّ الصراع الطبقي الذي ركّز بالأمس على مسائل إعادة التوزيع يجري الآن في ميدان الهجرة. يُنظر إلى هذه الهجرة بوصفها حقيقة موضوعية رئيسة قوّضت هويات العمال، ولم

---

(75) R. Inglehart et P. Norris, *Cultural Backlash. Trump, Brexit and Authoritarian Populism*, Cambridge University Press, 2019.

تتمكن أحزاب اليسار من قبولها بسبب توسعها الدولي [76]. هذا التفسير يتمتع على الأقل بميزة الانسجام إلى أكبر حدّ ممكن مع خطاب أصحاب المصلحة الأساسيين أنفسهم الذين يجعلون من كرههم للأجانب مربط خيلهم الأساسي. تشترك جميع الأحزاب اليمينية التي تجسّد هذه الشعبوية الجديدة بطابع يتّسم بمعاداة الأجانب، ويشمل ذلكَ الدول الاسكندنافية، على الرغم من أنها لم تتضرر مثل غيرها من الأزمة ومن تزايد مستويات التفاوت. هناك أحزاب معروفة بعدائها للأجانب: حزبُ ديمقراطيي السويد، وحزب الشعب الدنماركي، وحزب الفنلنديين الحقيقيين، وحزب الحرية النمساوي، وحزب الفجر الذهبي في اليونان، وحزب الرابطة في إيطاليا، كلّ هذه الأحزاب بُنيت على خطاب كراهية الأجانب. ويمثّل حزب الجبهة الوطنية في فرنسا، الذي أصبح «حزب التجمع الوطني» رمزاً لهذه الحركة.

ومع ذلك، ليست هذه هي النقطة الوحيدة التي يشتركون فيها. فكراهية الأجانب، على سبيل المثال، ترتبط ارتباطاً وثيقاً برهاب المثلية الجنسية. وفي نظر تابيليني Tabellini ومشاركيه في التأليف، يرجع ذلك إلى ظاهرة تراكميّة. فما إن يُطرح سؤال الهوية، حتى ينتعش في ظل اعتبارات أخرى غير تلك التي أدَّت إلى ظهوره. ومع ذلك يصبح من الممكن عكس الحجة والقول إنَّ موضوع الهجرة هو

(76) هذه هي الأطروحة المحددة في "الهوية والمعتقدات والصراع السياسي"
« Identity, beliefs and political conflict » par G. Bonomi, G. Tabellini et P. Gennaioli, *Quarterly Journal of Economics*, 2021.

نفسه ناتج عن سبب آخر في هذه الحالة.

في كتابه «الأرخبيل الفرنسي» L'Archipel français، بحث **جيروم فوركيه** في العلاقة بين التصويت لصالح الجبهة الوطنية ووجود مجتمع مسلم، وذلك من خلال تحديد الأسماء الأولى للأطفال في كلّ بلدة. فنسبة التصويت لحزب الجبهة الوطنية تنخفض في البلدات التي تندر فيها أسماء المسلمين، وترتفع طرداً مع زيادة الأسماء في هذه البلدات، وتصل إلى ذروتها ،وتنخفض مرة أخرى عندما تتجاوز هذه الأسماء ثلث المواليد.

هذا الانعكاس في حدّ ذاته سهل التفسير: عندما يكثر عدد المسلمين يرحل العنصريون. ومع ذلك، فإنَّ النقطة الأكثر إثارة للاهتمام تتجلى عند النظر في البلدات الخالية من أطفال يحملون أسماء إسلامية. فالتصويت فيها لحزب الجبهة هو بالتأكيد أقلّ من المتوسط، لكن ليس بدرجة كبيرة. فهذا الحزب يحصل على ما يقرب من 17٪ من الأصوات، من أصل نتيجةٍ على المستوى الوطني تبلغ 23٪. إنَّ ذلك مؤشّر على أنَّ التحوّل من السياسة إلى مسائل الهوية يعبّر عن شيء آخر غير كراهية الأجانب والعنصرية.

الجواب الذي نقدّمه في كتاب «أصول الشعبوية» قريب من تفسير دوركهايم للانتحار[77]. التخلخل الاجتماعي، أي النفور من بقية المجتمع الذي ينتج في حدّ ذاته من ندرة الروابط الاجتماعية،

(77) Y. Algan, E. Beasley, D. Cohen et M. Foucault, *Les Origines du populisme*, Paris, Le Seuil, 2019.

يخلق اندفاعاً نحو الهوية pulsion identitaire يسود على مسائل كلاسيكية مثل الطبقات الاجتماعية وإعادة التوزيع. إنَّ أنصار **لوبان،** وفي ظلّ التواصل الظاهري مع ناخبي اليمين التقليدي، يفتقرون بشدة للثقة بالمؤسسات وبالآخرين أيضاً. وعندما نطرح السؤال: «هل يمكنك الوثوق بشخص غريب تقابله بالصدفة أم تعتقد أنه عليك أخذ الحذَر والحيطة؟»، فإنَّ كثيراً منهم يختارون الحذَر بشكل مَرضي. ونطاق الحذَر واسع: فهو لا يشمل فقط الحذَر من الغرباء، بل أيضاً من الزملاء والجيران. إنَّ حذَر اليمين المتطرف أكثر حدّة بكثير من حذَر اليمين الكلاسيكي. فهذا اليمين تقليدي، وصاحب أملاك: إنه حذِر من الطبقات الخطرة. لكنَّ حذَر الناخبين الجمهويين أشدّ، فهو يعكس صعوبة تشكيل مجتمع في عالم تتشتت فيه مصائر الأفراد بشكل متزايد.

الديمقراطية المكروهة

إنَّ العنفَ الجديد الذي يمارسه كل معسكر سياسي تجاه الآخر هو أيضاً مؤشر على تدهور عميق في المثل الأعلى الديمقراطي [78].

عندما طرحنا السؤال: «هل الديمقراطية هي أفضل نظام أم يمكن لنظام آخر أن يكون بجودة الديمقراطية؟»، تبيَّن أنَّ أكثر من

(78) Y. Algan, S. Guriev, E. Papaioannou, E. Passari, « The European trust crisis and the rise of populism », *Brookings Papers on Economic Activity*, 2017.

واحد من كل ثلاثة فرنسيين يرونَ أن نظاماً آخر يمكن أن يكون جيداً[79]. إنَّ أحكام الناخبين على الممثلين قاسية، إذ يرى 87٪ من المواطنين الأوروبيين و88٪ من المواطنين الأمريكيين أنَّ «معظم السياسيين يدافعون بشكل أساسي عن مصالحهم ولا يقلقون بشأن أشخاص مثلي ومثلك».

وفيما يخصّ مسألة الثقة، فإنَّ نسبة ثقة المستشفيات والشركات الصغيرة والمتوسطة تصل إلى 75٪ وتبلغ تلك الثقة في البرلمان نسبة 35٪ أما في الأحزاب السياسية فهي تبلغ 15٪ ! ويُنظر إلى السّاسة على أنهم فاسدون من قبل 77٪ من المواطنين الأوروبيين، مع ارتفاع قياسي بنسبة 91٪ في المجر وبولندا، وبنسبة 79٪ في أمريكا.

ينعكس تطرّف الحياة السياسية في تزايد الامتناع عن التصويت وفي التصويت غير المسبوق للأحزاب الأشدّ راديكالية. وينعكس فقدان الثقة السياسي هذا أيضاً في فقدان الأحزاب لنفوذها. فخلال الانتخابات الرئاسية الفرنسية لعام 2022، اختفت جميعها من شاشات رادار الناخبين. اشترك **ماكرون** و**لوبان** و**ميلينشون** و**زيمور** في إنشاء حزب على صورتهم (باستثناء مارين لوبان التي ورِثت الحزب عن أبيها **جان ماري**)، فكان هؤلاء هم المرشَّحون الوحيدون له حتى الآن (مع جان ماري). يعكس هذا التحوّل

---

(79) D. Reynié (dir.), *Où va la démocratie ? Une enquête internationale de la Fondation pour l'innovation politique*, Paris, Plon, 2017.

الأرقام الآتية كلها مستمدة في هذا المرجع الجماعي.

اللقاءَ بين رأيٍ لم يَعُد يؤيّد الهيئات المشكّلة وبين الجمهورية الخامسة التي يُختزَل فيها كل شيء إلى انتخاب رجل أو امرأة. هذا الاتجاه نحو إلغاء الطابع المؤسساتي للحياة السياسية موجود في عدد كبير جداً من البلدان. ونجرؤ على القول إنَّ أحد عناصر «الهيكلة» للأحزاب الشعبوية، مثل حركة الخمس نجوم أو الرابطة في إيطاليا، هو أنها تُنشئ «أحزاباً مناهضة للأحزاب». وقد أجرى عالم السياسة الهولندي كارز مود Cars Mudde دراسة مفصلة ميّزت بين مرحلتين في هذا الموقف [80]. المرحلة الأولى تكمن في انتقاد الأحزاب الحاكمة لفشل السياسات التي تنتهجها. وهذا ما حدث في اليونان على سبيل المثال عندما حلّ محلّ الحزب الاشتراكي حزبٌ أكثر يسارية، وهو **سيريزا**، الذي انتهى به الأمر مع ذلك إلى أن يصبح حزب الحكومة بدوره.

وفي المرحلة الثانية، ثمة نقد أكثر راديكالية يرفض فكرة الأحزاب ذاتها، ويرى أنَّ المسؤولين السياسيين معروفون بفسادهم، ويركزون على ضمان حياتهم المهنية أكثر مما يركزون على مصلحة مواطنيهم. الحلّ، حسب هذا المنطق، هو خلق حركات يقودها زعيم كاريزمي، يحسم المعارضة بين الجماهير والنخب من خلال اندماجٍ بين القائد والشعب بطريقة تشبه ما كان عليه الأمر في الثلاثينيات. وبحسب **كارز مود**، يكمن الاختلاف في حقيقة أنَّ الديمقراطية كانت في ذلك الوقت فكرة جديدة، في إيطاليا أو ألمانيا

(80) C. Mudd, « The paradox of the anti-party party. Insights from the extreme right», *Politics*, vol. 2, no 2, 1996.

خاصة، إذ سارت كراهية الأحزاب جنباً إلى جنب مع الكراهية العامة لديمقراطية لا تزال حديثة العهد. ويتطور الخطاب المناهض للأحزاب اليوم من داخل الديمقراطية. وهذه الأحزاب التي من المفترض أن تُحافظ على الديمقراطية، لم يَعُد يُنظَر إليها على أنها ديمقراطية.

يردّد ميشيل أوفرلي Michel Offerlé، في ختام كتابه عن الأحزاب بشكل ساخر هذا الاتهام: «تمرّ أجهزة السلطة بأزمة: الناخب يريدنا أن نتحدث بصدق، فلم تَعُد الأيديولوجيات الكبرى («الأساطير الكبرى انتهت») هي التي تُحدّد موقفه، بل التحديات والصور ؛ فتعبير الناخب عن عدم ثقته بالأحزاب، وامتناعه عن التصويت بشكل متكرّر وتكتيكي، وعدم قدرته على الانتماء لحزب ما بسهولة، وتقلّب خياراته الانتخابية، وتصويته لأحزاب شعبوية إنما يعني أنَّ الأحزاب احتكرت التمثيل بصورة لا مبرّر لها وغدت عاجزة عن التعبير عن هموم الناس «الحقيقية» وعن إيجاد حلّ لها. يتضح هذا أيضاً من خلال أزمة الروح النضالية. فالعودة إلى الفردانية تنطوي على التزامات أقل شمولية .. ويضيف أوفرلي مبتسماً: عند مطالعتنا لهذا الموجز، نشعر بأنَّ روح العصر تلفظ أنفاسها» [81]. لكنَّ الأحزاب، برأيه، «تموت ببطء»، وليس من السهل الاستعاضة عن دورها. فعندما كان العامل يصوّت للحزب الشيوعي، كان يؤمن بقيَمه المركزية،

(81) M. Offerlé, *Les Partis politiques*, « Que sais-je ? », PUF, 2022.

وبالاستيلاء الجماعي على وسائل الإنتاج، ولكنّه كان يؤمن أيضاً بالمساواة بين الجنسين، وبالأمميّة التي كانت تجعل عالمه الداخلي منسجماً مع العالم نفسه. ببساطة توفّر الأحزاب وسيلة للتفاهم تساعد أعضاءها على العيش في عالم معقَّد. ومهما كانت الطريقة التي ستسعى بها «المنظمات السياسية» الجديدة إلى احتلال الحيّز الذي تخلَّت عنه الأحزاب التقليدية، فإنَّ ضعف هذه الأخيرة يزيد من ضعف المؤسَّسات أو الشركات أو النقابات التي كانت تشكّل الفضاء الاجتماعي. إنَّ أزمة الأحزاب تُضيف تخلخلاً سياسياً إلى التخلخل الاجتماعي.

صوت الشعب

جلبت ولادة مجرّة الإنترنت وعداً بنظام ديمقراطي جديد، بمكان لقاء عالمي حقيقي. فالحركات العالمية (مثل «أنا أيضاً» Me Too، و«حياة السود مهمة» Black Lives Matter، و«التمرد على الانقراض Extinction Rebellion) هي جزء من هذا المجتمع الدولي الجديد الذي تكمن أعظم مآثره في جعل حركات التمرد ضد الديكتاتوريات أمراً ممكناً. وقد تمخَّضت تلك الحركات عن ثورات الربيع العربي عام 2010 أو الثَّورة في أوكرانيا عام 2014. ويمكن أيضا أن نذكر حركات اجتماعية جديدة مثل «احتلوا وول ستريت» Occupy Wall Street و«السترات الصفراء» في فرنسا.

ومع ذلك، فشلت شبكات التواصل الاجتماعي في إنتاج مساحة تداول حقيقية، إذ «حافظت على التصدعات والانقسامات والانهيارات التي يعاني منها المجتمع المعاصر بدلاً من حفاظها على العيش المشترك»[82]. الديموقراطية هي في آنٍ معاً أسلوب في الحكم وفنٌ في العيش المشترك. لكن شبكات التواصل الاجتماعي يلتهمها اقتصاد يطالب بالإبهار وكره الخصوم. وعلى حدّ قول إدغار موران، «شهدنا على مدى عقدين من الزمن في العالم وكذلك في فرنسا

(82) B. Jarry-Lacombe, Fr. Euvé, H. Tardieu et J.-M. Bergère, *Pour un numérique auservice du bien commun*, Paris, Odile Jacob, 2022.

تطوراً للمانوية والرؤى الأحادية والكراهية والازدراء».

من الواضح أن الثَّورة الرَّقميّة ليست السبب المباشر لهذا التوتر الذي ينتشر في المجتمع، لكنها عززت تأثيره على نحو غير مسبوق. فقد تم التنديد بصموئيل باتي Samuel Paty على شبكات التواصل الاجتماعي بوصفه عدواً للإسلام، وكان ذلك كافياً لإيقاظ القاتل وحمله على القيام بفعله الإجرامي. هناك بالتأكيد مؤيدون يحافظون على تصعيد التوتر، لكنَّ الابتكار في الفترة التي نعيشها يدين كثيراً للمنطق الذي يقوم عليه الفضاء الرقمي.

يرى الفيلسوف سيريل بريت Cyrille Bret، في مقابلة له مع صحيفة **لوموند**، أن وحشية الحياة السياسية المعاصرة مَدينة بجزء كبير لهذا العنف عبر الإنترنت حيث يصبح الخصم عدواً لا نتورع عن تهديده.

يمكن القول باستخدام عبارات فرويدية إن شبكات التواصل الاجتماعي تفصل «الأنا» العليا عن «الهوَ»، من دون وساطة من الأنا. فهناك شبكات **الأنا العليا**، مثل فيسبوك وأنستغرام، حيث نتكلَّفَ الحسنَ والجمالَ، ونضاعف صور «السيلفي» المبتسمة، وننشر صوراً لكل شيء، بما في ذلك الطعام. وهناك **الهوَ**، مركز الدوافع، المطلَق إلى هواه، يتلطى خلف أسماء مستعارة، ويبثّ الكراهية والأحقاد الكامنة في المجتمع.

حتى في الدوائر البريئة مثل دوائر مشجعي التنس، لا يمكن إلاَّ أن يُفاجأ المرء بالعنف الذي يتمّ التعبير عنه هناك، حيث يُظهر

مشجعو «نادال» كراهية فاحشة تجاه المعجبين بلاعب مثل «فيدرير» أو «ديوكوفيتش». واضطر موقع ظريف من مواقع العلوم الشعبية الأمريكية إلى إغلاق صفحات التعليقات الخاصة به، الغارقة بتهجمات وانتقادات يمارسها دعاة «نظرية الخلق» الذين لا يؤيدون المقالات المنشورة عليه. وهناك حكاية تلخّص قوة الثقافة المقزّزة المنتشرة على شبكة الإنترنت. فبرمجيات مايكروسوفت، التي تقوم بالتعليم الذاتي على الشبكات الاجتماعية الأمريكية بطريقة «غير خاضعة للرقابة»، سرعان ما أصبحت عنصرية، «متعصبة للبيض» white supremacist، من خلال استدماجها للثقافة المنتشرة على المواقع التي تتردد عليها. ويتم تجنيد الإسلاميين على هذه الشبكات (وفي السجون) أكثر بكثير مما يتم تجنيدهم في المساجد. في كل مرّة، يخرج علينا شخص يريد الانتقام من مجتمع يتجاهله، فيفعل أيّ شيء من دون أي رادع، وذلك من أجل لفت الانتباه، كأن يقوم بعرض مشهد انتحاره، بعد ارتكابه لجريمة قتل.

من الواضح أنه من العبث إلقاء اللوم على حسابات الفيسبوك فقط بشأن صعود الشعبوية. فالثلاثينيات لم تكن على موعد معها. ومع ذلك، فإن دور الفيسبوك حقيقي. وهكذا تمكنت إحدى التجارب من إثبات المسؤولية المباشرة لشبكات التواصل الاجتماعي عن ثقافة الكراهية. وبالفعل قامت دراسة أجريت على ثلاثة آلاف شخص بتحليل الآثار المترتبة على إلغاء تنشيط

حساباتهم على الفيسبوك لمدة شهر [83]. فتبين في نهاية «ريجيم» الاستغناء عن الفيسبوك أنَّ الميول المتطرفة للمشتركين قد انخفضت انخفاضاً كبيراً، لا بل عندما سُمح لهم بالعودة إلى الشبكة، انخفض استهلاكهم للشبكة الاجتماعية على نحوٍ كبير، كما لو أنهم عالجوا أنفسهم من سلوكهم الإدماني. بعد انتهاء التجربة، أقرَّ 80٪ من الأشخاص أنهم شعروا بالارتياح من جرّاء تعطيل حسابهم على الفيسبوك.

حكمة الجماهير

إن مايميّز انتخاب **ترامب** هو دخول الأخبار المزيفة والمعلومات الكاذبة في الجدل السياسي. فثمة مواقع معروفة بنشرها للأخبار الكاذبة (حيث نجد فيها أقل من 50٪ من المعلومات المُدرَجة على أنها «جادّة») دعمت **ترامب** بطريقة مفرطة. وخلال الشهر الذي سبق الانتخابات، اختُلِقَت لصالحه حوالي مئة قصة إخبارية وتمّت مشاركتها لأكثر من 30 مليون مرة على وسائل التواصل الاجتماعي، مقارنة بما يقارب أربعين قصة فقط لصالح **هيلاري كليتنون**، تمت مشاركتها 7.6 مليون مرة [84].

كيف نفهم هذه المفارقة غير المتوقَّعة التي تنطوي عليها

(83) H. Allcott *et al.*, *American Economic Review*, 2020.

عرضت التجربة، مقابل أجر، على مجموعة من 2743 شخصًا قطع الاتصال بفيسبوك، قبل أربعة أسابيع من انتخابات التجديد النصفي الأمريكية لعام 2018.

(84) M. Gentzkow, « Polarization in 2016 ».

هذه التكنولوجيا المصمَّمة من أجل التحدث مع الآخرين، وتبادل الأفكار معهم، أي، بوجيز القول، لتغذية النقاش الديمقراطي، والتي أسَّست بعد ذلك نظاماً معاكساً تقريباً يقوم على الأخبار الكاذبة والعنف والكراهية؟

قدَّم **كانيمان** والمؤلفون المشاركون معه طريقة أولى لفهم هذه المفارقة، وذلك بالعودة إلى مقال بعنوان «صوت الشعب» نشرَه **فرانسيس غالتون** Francis Galton عام 1907.

كان **غالتون**، تلك الشخصية الملفتة، حفيداً لداروين، وسرعان ما أصبح داعية «للداروينية الاجتماعية»، النظرية التي بموجبها يجب أن يستمر الإنسان نفسه بممارسة عمل الاصطفاء الطبيعي، وهي فكرة قامت عليها النازية وعلم تحسين النسل. وأيّاً كانت ميول **غالتون** المروّعة، فقد نشرَ مقالاً أدّى لاحقاً إلى العديد من عمليات التحقق والبحث، وأتاح قياس «حكمة الجماهير»، على حدّ التسمية التي أطلقها جيمس سوروفيكي James Surowiecki، المؤلف الذي أعاد اكتشاف مقال **غالتون**. لقد طلب غالتون تقييم وزن قطعة من اللحم البقري معلقة في مكان عام تجمَّع فيه 787 قروي. فلم ينجح أيّ منهم في إعطاء الوزن الصحيح لقطعة اللحم، ولكن - بشكل غير عادي - ثَبت أن متوسّط الإجابات دقيق للغاية (في حدود 1 كيلو). وتم الحصول على نتائج متطابقة في العديد من السياقات، حيث طُلب تخمين عدد حبات الفاصوليا الموجودة في وعاء شفاف، وإعطاء المسافة الفاصلة بين مدينتين، وتخمين عدد

الجرائم المرتكبة في إحدى المدن، وحساب طول الحدود بين بلدين..، فكان في كل مرة يُثبَت أن متوسط الردود دقيق للغاية.

بالنسبة للإحصائيين، يتعلق الأمر بتطبيق محتمل لقانون الأعداد الكبيرة الذي يفيد بأن متوسط العيّنة يميل، في ظل افتراضات معينة، إلى الاقتراب من الرقم الدقيق. لقد قام مؤلفان بدفع التجربة خطوة إلى الأمام: فقد طلبا من الشخص نفسه أن يدلي برأي ثانٍ بعد أن أدلى برأيه الأول. فتبين أن متوسط الرأيين أفضل من أي منهما، وهو ما أسماه مؤلفا الدراسة «الحشود في داخلنا»[85].

لفهم ما يجري على شبكات التواصل الاجتماعي، يجب أن نحلّل ما يحدث عندما نسمح لأشخاص مختلفين مجتمعين لاجراء استبيان أن يتناقشوا مع بعضهم بعضاً. فما إن نمدّهم بمعلومات عن التقديرات التي اقترحها الآخرون، كأن نُطلعهم على سبيل المثال على الآراء الخاصة بعشرات الأشخاص الذين تم اختيارهم بشكل عشوائي، حتى تصبح النتائج الإجمالية سيئة للغاية.

الحشود التي كانت حكيمة تقع في فخ ما يسمى **تعاقب المعلومات** cascades informationnelles [86] حيث أنَّ أفكار قلّة من الأشخاص تجد صدى واسعاً جداً، مما يقلل بشكل كبير من

(85) E. Vul et H. Pashler, « Measuring the crowd within », *Psychological Science*, 2008.

(86) يراقب الأشخاص في ظاهرة تعاقب المعلومات القرارات التي يتخذها الآخرون ثم يتخذون قراراتهم بناءً على تلك المراقبة ويتجاهلون في الوقت ذاته معرفتهم الشخصية التي يمتلكونها أو يعرضون عن استحصال المعلومات. تستخدم هذه النظرية في ميدان علم الاقتصاد السلوكي وفي علوم اجتماعية أخرى. (المترجم)

جودة التقدير المتوسط. فإذا علمتُ أن جاري قد قام بتقدير معين لوزن قطعة اللحم البقري، سوف أتردد في إعطاء تقديري الخاص وسيكون رأيي من رأي جاري الذي ظننت أنه أكثر دراية مني بالأمر. بالمقابل، إذا استمع إلي جيراني، سوف يكون رأيهم من رأيي. وفي نهاية المطاف، فإنَّ رأيَ شخص واحد هو الذي سيسود. ومهما كانت مهاراته، فإنه لا يمثّل سوى صوت واحد من بين أصوات أخرى. لكن رأيه، ونظراً لخبرته العالية، سيضع حدّاً لوجهات نظر عديدة كان من الممكن تَدارك الخطأ فيها لو تُرِك أصحابها يعبّرون عن رأيهم بحرية.

كما أوضح أ. بانيرجي A. Banerjee في مقال أساسي بعنوان «سلوك القطيع»، فإنه ليس من المُنافي للعقل بالنسبة لفردٍ منعزل أن يقف مع الرأي الأكثر رجاحة ووجاهة في نظره. ولكن إذا أسفرت العملية بحكم الواقع عن إسكات الآراء الخجولة، ستكون خسارة المجتمع للمعلومات هائلة.

بيَّن **كانيمان** وزملاؤه كثيراً من مواقف الحياة الواقعية التي تؤكد هذه النتيجة. فمن خلال تحليلهم لنتائج مداولاتِ لجان الحكم، أظهروا أنَّ هذه اللجان تميل في كثير من الأحيان إلى إصدار أحكام أكثر تشدداً وصرامة مما كان متوقعاً. إذ إن العضو الأكثر بلاغةً يتفوق على غيره من الأعضاء الآخرين ويكتم الأصوات المغايرة

التي كان يمكن أن تتمخض عن تقدير متوازن [87]. عندما يستمع أعضاء المجموعة إلى بعضهم بعضاً، فإنَّ المترددين سينحازون إلى ما يفسروه على أنه الرأي السائد، وهذا ما يقضي على مزاياهم «المعتدلة». ليس من الضروري أن نتعمّق أكثر من ذلك في التحليل لنفهم ما آلت إليه شبكات التواصل الاجتماعي من خيانة لوعدها الأصلي.

المعتقدات والمعلومات

ثمة عامل آخر أسهم في تدهور النقاش العام يتمثّل في انخفاض عدد الصحفيين. في الولايات المتحدة، تم تقليص عددهم إلى النصف منذ الثمانينيات، مما أدّى إلى خسارة كبيرة في جودة المعلومات المقدمة. في ظلّ المنافسة المستمرة لشبكات التواصل الاجتماعي، تغيّرت طبيعة المهنة تدريجياً. ففي العالم الرقمي الجديد، سرعان ما تصبح «الأخبار» متقادمة، وتتم إزاحتها من قبل أخبار أخرى واعدة بدرجة أكبر. هذا التقادم المخطَّط له يغيِّر الممارسة الصحفية بشكل جذري. فالبحث عن «الخبطات الصحفية» التي تجذب الانتباه وتُؤدي بدورها إلى «تعاقب المعلومات» لصالحها أصبح أكثر إثارة للاهتمام من البحث المُكلف عن المعلومات المعرَّضة للضياع في ظلّ الضخ الإعلامي. وهكذا بدلاً من أن يقوم

---

(87) انظر: M. Ottaviani et P. N. Sorensen, « Information aggregation in debate : who should speak first ? », *Journal of Public Economics*, 2001.

الصحفي، على سبيل المثال، بتحليل مفصَّل للميزانية المعروضة على البرلمان، فإنه يولي اهتماماً أكبر للعثور على النقطة البارزة التي تمكّنه من إدانه ممارسة الميزانية ولفت الانتباه إلى تحليله الخاص.

كما أوضحت جوليا كاجيه في أطروحتها، تؤدي زيادة عدد الوسائل الإعلامية بشكل مفارِق إلى إفقار جودة المعلومات التي يتلقاها قرَّاؤها (88). في ظلّ المنافسة الشديدة، تضمحلّ الوسائل الإعلامية. وبذلك، حتى إذا ازدادت كمية المعلومات بشكل عام، فإنَّ الكمية التي يستهلكها المستخدمون بشكل فردي تصبح أقلّ. أظهر **كاجيه** من خلال دراسته للصحافة الفرنسية الإقليمية اليومية، أن ظهور وسيلة إعلامية جديدة في منطقة جغرافية معينة يؤدي في النهاية إلى مزيدٍ من التقاعس السياسي. كان استنتاجه واضحاً ومخالفاً للأعراف. فهو يرى أنه لا ينبغي تقديم الدعم لوسائل الإعلام، لأنه قد يُسهم فقط في زيادة الضغط التنافسي، بل يجب دعم جودة المعلومات، من خلال دعم وكالات الأنباء في المقام الأول.

لكن من الضروري أن ندرك أنَّ شبكات التواصل الاجتماعي لا تُعنى في الواقع بالمعلومات بالمعنى العادي للمصطلح، إذ إنَّ ما تُنتجه عبر الإنترنت هي معتقدات تتملق مشاعرَ أعضائها. يُعدُّ التمييز بين المعلومات والمعتقدات نقطة حاسمة أكدَّ عليها رولان

---

(88) J. Cagé, *Essays in the Political Economy of Information and Taxation*, Paris, EHESS, 2013.

بينابو Roland Bénabou وجان تيرول Jean Tirole في أبحاثهما[89]، إذ اعتمدا نهجاً يختلف عن التحليل القائل بأنَّ الجميع يستندون إلى رأي الآخرين، نظراً لافتقارهم لعنصر اليقين. فكثير من الأمثلة التي قاما بدراستها تُظهر أنَّ الناس يؤمنون حقاً بالأفكار التي يدعون إليها حتى في الحالات القصوى التي يجب فيها توخي الحذر. وهكذا، خلال **أزمة الرهن العقاري**[90]، اشترى كثيرٌ من المستثمرين منازلهم الخاصة في ذروة الفقاعة، مما يثبت أنهم كانوا يؤمنون حقاً باستدامة الطفرة.

إنَّ المعتقدات لا تساعد على تفسير العالم، بل على العيش فيه. يسعدني أن أؤمن بوجود بابا نويل، إنها فكرة مريحة، ويحزنني معرفة

---

(89) R. Bénabou et J. Tirole, « Mindful economics : the production, consumption and value of beliefs », *Journal of Economic Perspective*, 2016. R. Bénabou, «Groupthink : collective delusions in organizations and markets », *Review of Economic Studies*, 2013.

(90) شجع الازدهار الكبير لسوق العقارات الأميركية ما بين عامي 2001-2006، البنوك وشركات الإقراض على اللجوء إلى الإقراض العقاري مرتفع المخاطر، وهو منح مقترضين القروض بدون ضمانات كافية، وبمخاطر كبيرة مقابل سعر فائدة أعلى، والهدف هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح لمؤسسات الإقراض. توسعت المؤسسات المالية الكبرى في منح القروض للمؤسسات العقارية وشركات المقاولات والتي زادت عن سبعمائة مليار دولار. وأدى ارتفاع سعر الفائدة إلى تغيير في طبيعة السوق الأميركية، تمثل في انخفاض أسعار المنازل، وتزايد عدد العاجزين عن سداد قروضهم العقارية في الولايات المتحدة. ظهرت بوادر الأزمة على السطح بشكل جلي مع بداية عام 2007، وذلك مع تزايد حالات التوقف عن الدفع، وزيادة ظاهرة استيلاء المقرضين على العقارات، وكثرة المواجهات بين المقترضين والبنوك. وبلغ حجم القروض المتعثرة للأفراد نحو مائة مليار دولار. ضعفت قدرة البنوك على تمويل الشركات والأفراد، الأمر الذي أدى إلى انخفاض الإنفاق الاستثماري والاستهلاكي، وهدد بحدوث كساد (المترجم)

أنه غير موجود. سأطرد الأخبار السيئة، طالما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً[91]. لذا يتعامل الناس مع الأخبار السيئة بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن تعاملهم مع الأخبار الجيدة. فهم يستبعدون الأخبار السيئة ويركزون على الأخبار الجيدة. وهكذا يتبين أنَّ المستثمرين غير المحترفين يتحققون من قيمة أسهمهم الخاصة عندما تكون البورصة متصاعدة ويتردَّدون في القيام بذلك عندما تكون منخفضة.

إنهم يسعون للهروب من المعلومات التي تزعجهم. هذه الآلية مختلفة تماماً عن آثار غريزة القطيع حيث يقوم كلّ واحد بتقليد الآخر بسبب نقص المعلومات المناسبة: هنا، تُطمس عمداً المعلومات التي تفسد حياتك. عندما تسأل مجموعة من الأشخاص عن نسبة الجمال الذي حبتهم به الطبيعة أو الحسّ الفكاهي الذي يتمتعون به، فإنَّ الغالبية العظمى منهم ستجيب بأنها تحقق نسبة مئوية من الجمال تتجاوز الخمسين... ولن يضع أحدٌ نفسَه في مستوى أدنى من ذلك على الرغم من أن نصف الأشخاص [92] يتواجدون، بطبيعة الحال، دون المستوى المتوسط. فالكل يريد أن يحافظ على ثقته بنفسه، وأن يعتقد أنه مرغوب فيه، وأنه يحظى بالتقدير لجماله، وذكائه، وحسه الفكاهي !

---

(91) من الواضح أن يُطرح سؤال مبدأ الواقع. هل أعرض نفسي لخطر تصديق هذا الهراء أو ذاك؟

(92) وفقاً لدراسة استشهد بها "بينابو"، فإن أكثر من 80٪ من السكان متأثرون بهذا التفاؤل.

في عالم العقلانية الخالصة، يجب أن تكون المعتقدات قابلة للدحض. أعتقد أنَّ الطقس سيكون لطيفاً، وعندما أتحقق من النشرة الجوية، أعرف أنَّ الطقس سيكون بارداً وارتدي المعطف.

أتعلَّم أن حرارة الأرض ترتفع، فأستنتج أنه يجب علينا التصرّف ...لكنَّ الأمور لا تحدث بهذه الطريقة. فإذا كنتُ جمهورياً وقرأتُ دراسة تُظهر أنَّ الاحتباس الحراري هو خطر مميت، فإنني لا أغيّر رأيي، إذ أرفض تلك الدراسة، وأقنع نفسي بأنها ليست جادة، وأنه تمّ تمويلها من قبل أطراف بيئية ذات رأي متحيّز. الجمهوري الذي يعترف بالاحتباس الحراري يصبح مرتداً، ويُجبَر على العيش في المنفى السياسي[93].

بالنظر إلى الخلافات القاتلة التي رافقت الثَّورة الكوبرنيكية، فإننا سنرى بوضوح ما هو على المحك. إنَّ الاعتراف بدوران الأرض حول الشمس يعني إعادة النظر جذرياً بمنظومة فكرية كاملة، لأنَّ ذلك يزعزع العلاقة مع الكتاب المقدس، والحقائق المعلنة. وبحسب استنتاجات دراسة أمريكية، إذا ظهر رأي بأنه ديمقراطي الهوى لأنَّ وسيلة إعلامية معروف بأنها يسارية قد أيَّدته، فإنَّ

(93) وضح لوينشتاين ومولنار أنك تريد حقاً أن يفكر الآخرون مثلك ؛ فالحقيقة الأخلاقية بأنهم مخطئون تزعجك. وبحسب ما يسمى بقانون كننفهام Cunningham ، أحد مؤسسي ويكيبيديا، فإنَّ إحدى أفضل الطرق للحصول على إجابة صحيحة هي تقديم إجابة خاطئة، إذ إن ذلك يؤدي على الفور إلى الرغبة في إعطاء الإجابة الصحيحة.

الفكرة المعنية ستصل إلى الديمقراطيين الآخرين وستولّد عداءً غريزياً لدى الجمهوريين. ومن البديهي أن يحدث الشيء نفسه عندما يصدُر الرأي عن الجمهوريين. وكما استنتج الباحثون الذين أجروا هذا التحليل، فإنَّ ثمة آراء محافظة يمكن أن تتحوَّل بسرعة إلى عوامل مُلهمة لمعارك دامية بين المعسكرين المتعارضين. وقد لخّص مارسيل بروست المشكلة بشكل رائع:

« لا تتغلغلُ الحقائق أبداً في العالم الذي تعيش فيه معتقداتنا، فهي لم تولّد تلك المعتقدات. وهي عاجزة عن تدميرها. يمكن أن تنكرها بأشد الإنكار، إلاَّ أنَّ ذلك لن يضعفها. إنَّ سيلاً من المصائب أو الأمراض المتتالية التي حلّت في أسرة معينة لن يجعلها تشكك في طيبة خالقها أو موهبة طبيبها».

المعتقدات لها وظيفة مختلفة تماماً عن إخبارنا شيئاً عن العالم، فهي كنزٌ يساعدنا على العيش داخلياً ومع الآخرين.. إننا نختار معتقداتنا على غرار مستهلك في متجر متعدّد الأقسام، يختار ما يحلو له وفق الزيّ السائد والعرض المتاح على الرفوف.

تُعدُّ معتقداتنا، بحسب عالم النفس روبرت أبيلسون Robert Abelson ، رصيداً نريد أن نستثمره ويجدرُ بنا حمايته من الرياح المعاكسة. وقد قدّم الاقتصادي جورج لوينشتاين مثالاً مثيراً للاهتمام يوضح هذه الخاصية. تَخيَّل أنْ يُعرَض عليك الاختيار بين قالب حلوى يُقدَّم لك اليوم وقالب آخر يُقدَّم لك في غضون شهر. من شبه المؤكَّد أنك ستختار قالب اليوم، فالاستهلاك الحالي

مرغوب فيه دائماً أكثر من الاستهلاك المستقبلي. وبالمثل، إذا كان عليك دفع غرامة قدرها عشرة يورو اليوم وعُرِضَ عليك دفعها في غضون شهر، فإنك ستختار بالتأكيد تأجيلها. تخيَّل الآن أنك تواجه الخيارَيْن الآتيَيْن: إمَّا أن تتعرَّض لصدمة كهربائية اليوم، أو أن تُؤَجَّل تلك الصدمة لمدة شهر. كل شيء في التفكير الاقتصادي يَدفع إلى التأجيل. ومع ذلك، يحدث العكس في كثيرٍ من الأحيان [94]. معظم الناس يفضّلون التعرّض لها اليوم، للانتهاء منها ! فهم لا يريدون أن يشغلوا تفكيرهم لمدة شهر بالصدمة المُعلَنة.

ثمَّة مفارقات اقتصادية أخرى تتضح من خلال هذا المنظور. لماذا يشتري الناس كلّاً من بطاقات اليانصيب وبوليصات التأمين؟ التأمين يعني الخوف من المخَاطِر، أما لعب اليانصيب فهو، على عكس ذلك، يعني أنك تحب المخاطرة. لقد عجز الاقتصاديون عن إعطاء إجابة عن السؤال الآنف الذكر، لكنهم استطاعوا إعطاء إجابة فورية في الإطار الجديد الذي حدَّده **لوينشتاين**: أريد في الوقت نفسه أن أحلمَ بمستقبلٍ مشرقٍ تَعِدُ به بطاقة اليانصيب، وأن أشعرَ بالحماية من حوادث الحياة، تلك الحماية التي يضمنها التأمين. حتى لو بدا النشاط الفكري متناقضاً تماماً مع قوانين التحليل الاقتصادي، فإنَّ لديه بالفعل قواعد صارمة تُفضي جميعها إلى النتيجة نفسها: جَعْل الناس يحلمون، وطَرْد الأفكار الحزينة.

---

(94) G. Loewenstein et A. Molnar, « Thoughts and players : an introduction to old and new perspectives on beliefs », Carnegie Mellon University, 2021.

المعتقدات عن النفس أو عن العالم ليست معلومات «موضوعية»، بل شيئاً تعتزُّ به، ويمنحك الفرح و تريدُ أن يبقى في مأمن من الأخبار التعيسة (كأن يقول قائلٌ : للأسف بابا نويل غير موجود !). الواقعُ ليس هو الخير الذي نسعى لتحقيقه، بل هو، على العكس من ذلك، عقبة أمام الإحساس بالرضا الذي توفّره الأحلام. يوفّر لك العرض الرقمي قدرة لا نهائية تقريباً تمكّنك من الوصول إلى الأفكار التي تناسبك. هل تعتقد أنَّ أحداث الحادي عشر من أيلول كانت من إعداد وكالة المخابرات المركزية؟ ستجد مليون شخص على شبكة الإنترنت يفكّرون مثلك. سوف تدعم أفكارهم أفكارَكَ، فالشبكة تصنع عالماً وفقاً لرغباتنا. هذا هو إلى حدٍّ كبير ما تمنحه المخدرات القوية، إنه داء اليأس المعاصر ودواؤه.

الجزء الثاني

عودة الواقع

٧.

المُتخيَل الاجتماعي

قانون المئة وخمسين صديقاً

تم الترحيب بالإنترنت في أيامه الأولى بوصفه وعداً بذكاء جماعي جديد، ومنصة لإعادة ابتكار الديمقراطية. لكن ماحدث هو أن شبكات التواصل الاجتماعي أدت إلى انتشار هائل للغباء في الحياة السياسية وازدياد الشر الذي كان من المفترض أن تعالجه والذي يتمثّل في العزلة الاجتماعية.

كيف يمكن لمثل هذا الخداع أن يكون ممكناً ؟

ترجع الإجابة عن هذا السؤال بدرجة كبيرة إلى سوء الفهم الناجم عن الوهم الليبرالي. فقد توهمت الليبرالية بأنه يمكن للمجتمع أن يؤسس نفسه بنفسه من خلال تجميع أفراد معزولين، من دون وساطة، ومن دون طقوس انتقال من مرحلة إلى أخرى، ومن دون جهات وسيطة، بشرط أن يتم منح هؤلاء الأفراد وسائل «للتواصل» مع بعضهم بعضاً.

ومع ذلك فإنَّ المؤسسات والكنائس أو الأحزاب أو الطوائف أو الشركات قامت، على العكس من ذلك، بتشكيل تاريخ المجتمعات كله، فتغلغلت في وجدان الأفراد ووفرت لهم وسائل الارتقاء فوق الشبكات الوحيدة التي يمكن أن تنتجها تفاعلاتهم.

لفهم دور هذه المؤسسات، يمكن الانطلاق من نقطة فعالة

أشارت إليها أبحاث عالم الأنثروبولوجيا روبن دنبار، الذي اصطحَبنا في جولة مع شكسبير لإطلاعنا على مستويات القصدية البشرية. فهي تمكّن من فهم مدى صعوبة تصور وجود تلك المدينة الفاضلة التي يمكن فيها لكل شخص أن يتحاور بمفرده مع أي شخص أخر.

بدأ دنبار من ملاحظة إحصائية مثيرة تفيد، على حدّ قوله، بوجود ارتباط كبير بين كثافة العلاقات الاجتماعية للكائنات المختلفة وحجم أدمغتها! وهكذا تعيش الرئيسيات، مثل قرود البابون وقرود المكاك والشمبانزي، في بيئات اجتماعية متطورة ولديها أيضاً أكبر قشرة دماغية حديثة. فالدماغ لا يمكّننا من التفكير فقط، بل هو العامل المركزي الذي يسمح لنا بالعيش في المجتمع.

ولا شك في أنَّ المنطق الدارويني يُفضي إلى تحديد الارتباط بين كثافة العلاقات الاجتماعية وحجم الدماغ : فالكائنات التي يتطلب بقاؤها عملاً جماعياً للهروب من الحيوانات المفترسة الأسرع والأقوى، انتهى بها الأمر، عن طريق الاصطفاء الطبيعي، إلى امتلاك دماغ أكبر حجماً.

بالنسبة إلى دنبار، يرتبط تطور المقاصد أيضاً بزيادة حجم الدماغ. وفقاً لحساباته، كان الإنسان المنتصب قبل مليوني عام قد توصل إلى مستوى قصدية من الدرجة الثالثة بالنظر إلى الحجم المقدَّر لدماغه. إنه أول من استطاع أن يتصور الجملة : «أعلم أنك

تعتقد أنني أفكر فيك». ومن الممكن للبشر القدامى أن يكونوا قد توصلوا منذ 500000 عام إلى قصدية من المستوى الرابع.

أما الخطوة الأخيرة التي تعود إلى ما قبل 300000 عام فقد تم بلوغها عندما دخل الإنسان المعاصر المشهد، فوصل إلى قصدية من المستوى الخامس. تلك هي اللحظة التي وصل الجنس البشري انطلاقاً منها إلى الثقافة والدين. إذا استنبطنا العلاقة بين حجم الدماغ وكثافة الحياة الاجتماعية للقرود، فما هو حجم المجتمعات البشرية الذي يمكن توقعه؟ يُعرف العدد الذي تم الحصول عليه باسم «قانون دنبار»: الحد الأقصى للتواصل الاجتماعي للبشر يصل إلى 150 شخصاً ! وثمة قائمة رائعة من الهياكل الاجتماعية تخضع لهذه القاعدة. فالوحدة الأساسية للفيلق الروماني، وهي **المانيبل** le manipule، يبلغ عددها 150 جندياً [95] وحجم القرى الإنجليزية كما تم تقديره من قبل كتبة وليام الفاتح، في ما يسمى كتاب **دوميزدي** [96]، في عام 1086، وصل إلى مايقارب 150. وينسحب الأمر نفسه على القرى الإنكليزية في القرن الثامن عشر حيث قام كل من الهوتريين Hutterites والأَمِيين

(95) لكي نكون دقيقين، يتراوح المانيبل تبعاً للأزمنة بين 120 و 200 جندي.

(96) كتاب دوميزدي بالإنجليزية: Domesday والمعروف أيضا بكتاب ونشستر (بالإنجليزية Winchester) ومعناه كتاب يوم الحساب هو عبارة عن كتاب فيه أول مسح جغرافي للمدن والبلدات في إنجلترا. تم وضع الكتاب في عهد وليام الأول من إنجلترا. بالإضافة للمسح، كان الكتاب عبارة عن كشف شامل عن العقارات والأملاك والأراضي في مملكته. تم الأمر بكتابته من قبل الملك وليام عام 1085 م وتمّ الانتهاء منه عام 1086 م. في أغسطس 2006 وضع الأرشيف الوطني البريطاني نسخة إلكترونية من الكتاب على موقعه على الإنترنت. (المترجم)

Amish، وهما مجموعتان دينيتان من أمريكا الشمالية[97]، بتقسيم جماعاتها بمجرد أن تتجاوز عتبة 150 عضواً.

في ميدان مختلف تماماً، قام دنبار وزميله راسل هيل بالتحقيق في عدد بطاقات التهنئة المرسلة في عيد الميلاد ...، فوجدا أيضاً ما يعادل 150 بطاقة. وفيما يتعلق بالشركات، أصر مؤسس شركة Gore-Tex دائماً على ألا تتجاوز وحدات الإنتاج في شركته هذا الحجم الأمثل البالغ 150 شخصاً. وتم إجراء تقديرات مماثلة في مجتمعات العلماء. فعدد الباحثين الذين يمكن للفرد متابعة أبحاثهم يتراوح أيضاً بين مئة ومئتي باحث. هل يقوم فيسبوك اليوم بعمل أفضل من ذلك بكثير ؟

أظهر استطلاع أجراه مركز بيو للأبحاث Pew Research Center أنَّ مستخدمي فيسبوك لديهم في الحد المتوسط 338 صديقاً. هل يضاعف فيسبوك بالتالي القدرات النفسية لأدمغتنا؟ هذا الأمر غير محتمل : إذا اختزلنا لائحة أصدقائنا على الفيسبوك، إلى المجموعة المكونة من أولئك الذين نتواصل معهم بشكل حقيقي، فإننا سنجد أنَّ العدد الأقصى لهذه المجموعة لا يتجاوز على أرجح الظن 150 شخصاً. ومن الواضح أنَّ ذلك لا يمنع شبكة الويب، كما يوحي اسمها، من ربط خلية من الشبكات المتشابكة فيما بينها، إذ يمكن للعدد 150 مضروباً بالعدد 150 لمرّات عديدة أن

(97) تعيش الأولى في داكوتا، والثانية في ولاية بنسلفانيا، واكتسبتا شعبية من وراء فيلم Witness من بطولة هاريسون فورد.

يغطي الأرض بأكملها بسرعة.

توصلت دراسة قديمة قام بها **ستانلي ميلجرام** في منتصف الستينيات إلى ما أسماه «درجة الفصل» التي تقيس عدد الوسطاء الضروريين لنقل المعلومات من الفرد «أ» إلى فرد لا يعرفه وهو «ب». وهكذا طلب **ميلجرام** من بعض المزارعين في كانساس إرسال رسالة إلى أحد سكان ماساتشوستس لم يكن معروفاً لهم مسبقاً. في إحدى الحالات، أرسل المزارع « أ » الرسالة إلى قسّيسه الذي أرسلها إلى زميل له في كامبريدج كان يعرف الفرد «ب» مباشرةً. وقد أظهرت التجربة أنَّ عدد الاتصالات المطلوبة يقترب بشكل عام من ستة اتصالات. وأُجريت التجربة نفسها مع فيسبوك، وتبيَّن أن متوسط عدد جهات الاتصال بين مستخدمَين لا توجد بينهما روابط مسبقة يقارب أربع جهات [98]. لذلك فإننا نكسب مع فيسبوك مرحلتين في عملية ربط العالم. من المؤكد أنَّ ذلك مفيد، لكنه لا يكفي في حدّ ذاته لتشكيل مجتمع جديد!

إنَّ التاريخ الكامل للحضارات يكمن في تطوير أنظمةٍ من ضروب التحالف والترابط، وفي الاغتناء بالثقافة أو الدين لتجميع البشر معاً بشكل جيد بعيداً عن لعبة تفاعلاتهم، مهما تم النهوض بها إلى الحدّ الأمثل. وهذا ما تفتقر إليه الثورة الرقمية حتى الآن.

(98) أو ضحت الدراسات أن التقديرات تتراوح من 4.7 إلى 3.5 .

قردة البونوبو والشمبانزي

كان بإمكان الشاعر لافونتين أن يكتب حكاية «الشمبانزي والبونوبو» لإلقاء الضوء على إمكانيات العالَم الاجتماعي التي يستكشفها القردة أبناء عمومتنا. إنَّ قردة البونوبو تمارس الحب، وقردة الشمبانزي تمارس الحرب. قرد البونوبو عاطفي وحساس، ويساعد نشاطه الجنسي الغزير على التخفيف من حدّة طبعه، أما قرد الشمبانزي فهو أكثر عدوانية، وعلاقاته الاجتماعية أكثر توتراً. كيف يتم تفسير هذا الاختلاف؟

لاحظ عالم الأحياء آلان بروشيانتز Alain Prochiantz أن هذين النوعين متطابقان تقريباً من حيث المورثات، فهما يختلفان بنسبة 0.4٪ فقط. لماذا تختلف خصائصهما الاجتماعية إلى هذا الحدّ؟ يرى عالم الأنثروبولوجيا إيفان ماكلين، نقلاً عن بروشيانتز، أنَّ الاقتصاد يلعب دوراً كبيراً في ذلك حيث كانت الحيوانات تعيش على ضفتي نهر الكونغو. وكانت قردة الشمبانزي تعيش على الضفة الخاطئة، حيث كان الطعام نادراً، أما قردة البونوبو فقد استفادت من بيئة مواتية بشكل أفضل. وبحسب ماكلين، فإنَّ الوفرة النسبية للطعام تفسّر السلوك الأكثر تعاونية واجتماعية لـقردة البونوبو. وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الشمبانزي يرفض أن يُقرِضَ غيره شيئاً، وهذا أصغر عيب من عيوبه. وإذا اكتشف طعاماً، فإنه من

النادر أن يشاركه مع أبناء جنسه. وتتسم إناث الشمبانزي بنزعتها الفردية، فهي لا تشكل تحالفات فيما بينها [99]. ولعل أكثر ما يثير اهتمامنا في حكاية البونوبو والشمبانزي، هو أنَّ الوفرة تجعل التعاون «طبيعياً» وأنَّ الندرة تجعل المجتمع أكثر «تنافسية». إنَّ حقيقة ظهور حركات الهيبيز أو حركات 68 مايو في قلب مجتمع الوفرة تؤكد في هذه الحالة انتشار فكرة تُمِّيِّز سلوك قرد البونوبو: «مارسوا الحب لا الحرب» .... من المنطقي أيضاً أن ترسَّخ الثورة المحافظة خلال السنوات العجاف. المشكلة طبعاً في هذه النظرية هو أنَّ المجتمعات المتقدمة لم تكن أكثر فقراً في الثمانينيات مما كانت عليه في الستينيات. هذا لا يجعل الحكاية خاطئة بالضرورة، لكنه يقتضي توضيح فكرتها. عند البشر، يكاد كل شيء أن يكون نسبياً، على الأقل في المجتمعات التي يفوق مستوى معيشتها حداً معيناً من الكفاف. نحن لسنا أغنياء أو فقراء على نحوٍ مطلق، بل نسبة إلى الآخرين، أو نسبة إلى توقعاتنا. لذلك يجب أن نستنتج أن الظروف المعيشية الاجتماعية للبشر هي التي تجعلهم يميلون لهذا الجانب أو ذاك من إمكانياتهم، في حلقة يكون فيها المرء، تبعا للمجتمعات، من نوع البونوبو أو الشمبانزي..

(99) E. MacLean, « Unraveling the evolution of uniquely human condition », *PNAS*, vol. 113, no 23, 2016.

يعدُّ الجدل حول الشمبانزي/ البونوبو ذا أهمية كبيرة بالنسبة للاقتصاديين لأنه يثير سؤالاً مرتبطاً بتخصّصهم: هل الإنسان «تعاوني» بشكل عفوي، لكنَّ المجتمع يجعله «منافساً»، أم إنَّ «الإنسان كما يعتقد هوبس، ذئب لأخيه الإنسان»، ويجعله المجتمع مسالماً أكثر ؟ يرى مانكور أولسون Mancur Olson – صاحب مفهوم «راكب المجَّان» free-rider ، أي المسافر خلسةً – أنه بمجرد أن يصبح حجم المجموعة كبيراً جداً وتصبح العلاقات مع الآخرين مجهولة الهوية، يفقد البشر رابط المودّة الذي يربط بينهم، وتصبح الأنانية هي القاعدة. ومع ذلك، فإنَّ إلينور أوستروم Elinor Ostrom، الحائزة على جائزة نوبل في الاقتصاد عن أبحاثها في مجال الأملاك العامة، تُظهر أنَّ هناك كثيراً من المواقف التي تراعي فيها المجتمعات المعنية الفضاء العمومي، لمجرّد التزام أعضائها التلقائي باحترام المصالح المشتركة. وليس من الضروري فرض الغرامات والعقوبات على المواطنين لحملهم على طاعة القانون. ويُظهر نص لنيكولا جاكيميه Nicolas Jacquemet ورفاقه أنَّ دافعي الضرائب، وعلى الرغم من التهرّب الضريبي، يسدّدون أموالهم بطريقة لا يمكن للحسابات الاقتصادية البحتة تبريرها منطقياً [100]. إنَّ منفعة التهرّب الضريبي أعلى بكثير من تكلفة التصحيح الضريبي المرجّح حسب احتمالية التلبس

(100) N. Jacquemet, *Comment lutter contre la fraude fiscale ?*, Cepremap, Éd. Rue d'Ulm, 2020.

بالجرم. يتمتع دافعو الضرائب، أو على الأقل الغالبية العظمى منهم، بسلوك لا يمكن أن تفسره سوى «الأخلاق» وروح المسؤولية المدنية.

وفي الواقع يوجد كثير من الأدلة التجريبية التي تظهر أن الاهتمام بالآخرين هو مسألة «فطرية»، مثل اللغة نفسها، وليس عملية حسابية معقدة تهدف للحصول على مكافأة لاحقة من خلال التعامل اللطيف مع شخص ما [101]. وكما يقول ليون فيستينجر Leon Festinger الذي ابتكر مفهوم التنافر المعرفي dissonance cognitive ، لا يمكن للفرد أن يخلق مفهوماً للذات في غياب هوية جماعية. إنَّ خيانتك لمجموعتك تعني خيانتك لنفسك. وهكذا تُظهر اللعبة التي تسمى «الإنذار الأخير» **ultimatum** أنَّ منطق الشرف يعتري علاقتنا بالآخرين ويحدّد ذواتنا. في هذه اللعبة، يُطلب من شخصين لا يعرفان بعضهما بعضاً ولن يلتقيا مرة أخرى مطلقاً أن يتقاسما فيما بينهما عشرة دولارات. يقرر الشخص الأول، وليكن **أحمد**، أن يقدم لنفسه المبلغ (س) و يقدم للآخر المسمى **باسم** مبلغاً قدره 10 -(س)، لكن على **باسم** أن يوضح إذا كان سيقبل بهذا العرض أم لا. فإذا رفض العرض، تُحرق الدولارات العشرة، وإذا قبل به تتم القسمة. إذا كان **باسم** مسكوناً بهاجس

---

(101) نجد في كتاب ر. غابريال R. Gabriel و س. أسما S. Asma نقاشات عدة نركز عليها هنا. انظر :

S. Asma et R. Gabriel, *The Emotional Mind : the Affective Roots of Culture and Cognition*, Harvard University Press, 2019.

الحساب الاقتصادي الانتهازي الصارم والعقلاني، فإنه لابدَّ وأن يقبل بالحصة التي يعرضها عليه أي شخص. فبالنسبة لباسم، الخيار هو «إما أن تأخذ شيئاً أو لا تأخذ أي شيء». وهكذا حتى لو عرض عليه أحمد دولاراً واحدا فقط، واحتفظ بالدولارات التسعة المتبقية لنفسه، فإنه ينبغي عليه أن يأخذها. لكن بالطبع اللعبة تُظهر أن الأمر ليس كذلك. لا يستطيع باسم قبول الإذلال الناتج عن قسمة غير مؤاتية على الإطلاق. فالغضب والسخط يوجهان اختياراته أكثر من الحسابات المنطقية. تُظهر التجربة أيضاً، على العكس من ذلك، تأثير روح الدعابة على إجراء هذه المفاوضات. فإذا عرضنا على اللاعبَيْن مقطع فيديو مضحك وضحكا معاً من مواقف التهريج نفسها، فإن اللاعب أحمد سيصبح سمحاً كريماً مع باسم كما لو أنه صديق قديم له. فالضحك، وخاصة الضحك الجماعي، يتسم بخصوصية تحويل الغرباء إلى أصدقاء.

المفهوم الأساسي الذي ينبثق أيضاً من هذه الأنواع من التجارب هو مفهوم المعاملة بالمثل. ثمة تجربة «مخبرية» أخرى، وهي «لعبة الثقة» Trust Game ، توضّح هذا المفهوم، إذ يواجه شخصان، كل منهما خلف شاشة الكمبيوتر، الموقف الآتي: تتاح للاعب الأول (المرسِل)، وليكن السيد **مصطفى**، فرصة تلقي مبلغ 50 دولار في بداية التجربة. يمكنه أن يغادر وفي جعبته المبلغ المذكور وتنتهي التجربة بعد ذلك. ولكن يمكنه أيضاً إرسال المبلغ كله أو جزء منه

إلى اللاعب الآخر، (المتلقي)، وهو السيد **تيسير**. في هذه الحالة، يُضرَب المبلغ المرسل بثلاثة. يمكن للسيد تيسير بدوره أن يغادر بالمبلغ المضاعف الذي تم إرساله إليه، ثم تتوقف اللعبة. لكن يمكنه أيضاً التبرع بكل ما كسبه أو بجزء منه إلى السيد مصطفى، ثم تنتهي اللعبة حقاً. لا بدَّ وأن العميل الاقتصادي «العقلاني»، في هذه اللعبة، يفكر بالطريقة الآتية: إذا قمتُ بإرسال «أموالي» إلى الآخر، فسيحصل بالتأكيد على مبلغ مضاعف ثلاث مرات، ولكن ما الفائدة التي سيجنيها بعد ذلك من إعادتها إلي؟ لا شيء: فهو لا يعرفني ولن يراني مرة أخرى. إذا كان هو نفسه عقلانياً، فلا مصلحة له في إرضائي ... ومن منطلق معرفتي بهذا، لن أرسل له شيئاً. فما هي نتيجة التجربة؟ ترسل الغالبية العظمى من المشاركين جزءاً من المبلغ المخصص لها، وفي ثلثي الحالات تتم مكافأتها به. فما الغاية من إرسال أموال عندما تكون عديمة الفائدة تماماً من وجهة نظر أنانية؟ المنطق الاقتصادي التقليدي لايملك إجابة عن هذا السؤال [102].

يتحدث علماء النفس والفلاسفة عن مبدأ المعاملة بالمثل، وهو مفهوم يقع في منتصف الطريق بين الإيثار والفردانية [103]. إنه يشير

(102) إحدى السمات الثابتة للسعادة تكمن في القدرة على الوثوق بالآخرين. إن جزءاً كبيراً من الفرنسيين بصورة عامة أقل سعادة من غيرهم، ويرجع ذلك إلى حدّ كبير إلى أنهم يعانون من عدم ثقتهم بالآخرين.

(103) يظهر فرانسيس وولف Francis Wolff في كتابه Plaidoyer pour l'universel، أنّ المعاملة بالمثل هي أساس الأخلاق. فالعقول التي تتحلى بمنطق حواري تقبل بقواعد المعاملة بالمثل.

إلى الرغبة في الاستجابة للكرم بكرمٍ مماثل، من دون انتظار مكافأة أخرى سوى أن تكون جديراً بالثقة التي مُنحت لك. وتسمح «لعبة الثقة» أيضاً، مثل لعبة «الإنذار»، باختبار تأثير الفكاهة على التعاون. عندما يتلقى المزوّد جرعة من الأوكسيتوسين، وهو هرمون يحسنّ الحالة المزاجية، تزداد لديه روح المعاملة بالمثل. «السعادة» تجعل البشر بالفعل أكثر استعداداً للمشاركة! لكنَّ الحالة المزاجية الجيدة لها أيضاً آثار مفاجئة، إذ يمكنها تخدير الحس النقدي. درس جوردون بينيكوك Gordon Pennycook وزملاؤه ردّة فعل الناس على العبارات التي لا معنى لها [104]، وعرضوا عليهم عبارات شبه عميقة أو مزيفة مثل «الكمال يهدئ الظواهر اللا متناهية» أو «المعنى الخفي يجعل الجمال المجرد منقطع النظير».

الميل إلى تقبل مثل هذه العبارات هو سمة معروفة باسم مدى قابلية تلقي «الهراء» و«الحماقات» [105]. والحالة المزاجية الجيدة تزيد من هذه القابلية. أما النتيجة المدهشة الأخرى للحالة المزاجية الجيدة فهي تكمن في تعديل الحس الأخلاقي. ففي مثال «القطار»، الذي يعلّم الأخلاق للروبوتات، أصبح الأشخاص الذين تحسنت حالتهم المزاجية، بسبب مشاهدتهم لفيديو مدته خمس دقائق، أكثر

---

(104) انظر:

J. Elster, *Le Désintéressement*, Paris, Le Seuil, 2011.

(105) أصبحت الحماقات conneries مصطلحاً فلسفياً منذ أن نشر أستاذ جامعة برينستون هاري فرانكفورت كتاباً "في الهراء والتهريج " On Bullshit

قدرة بثلاث مرات على دفع جارهم إلى السكة الحديدية تجنباً لوفاة الركاب الخمسة.

رفقة الغرباء

يشير بول سيبرايت في كتابه «رفقة الغرباء» The Company of Strangers إلى هذا الميل الهائل للبشر للثقة في الغرباء [106]. ويشير إلى أنَّ كائنات أخرى تتعاون مع متجانسات لا تربطهم بها صلة قرابة (مثل «سمك أبو شوكة، والخفافيش والأسود») ولكن لا يتمّ ذلك إلاَّ بطريقة عرَضية. ومن الواضح أنَّ بعض الكائنات تحتاج إلى بعضها بعضاً، مثل أسماك القرش والأسماك الاستطلاعية [107]، ولكن هذه علاقات تكافل بيئية بين الأنواع التي لا تتواصل فيما بينها.

الميل إلى معاملة الغرباء بالمثل هو الأساس الذي يقوم عليه العالَم الاجتماعي. ومع ذلك، فإنَّ هذه المعاملة شرط لازم، لكنّه ليس كافياً، إذ يمكن أن تؤدي إلى القداسة، من دون وجود مؤسسات مناسبة، بقدر ما يمكن أن تؤدي إلى الثأر الدائم. فالمعاملة بالمثل تؤدي إلى المتوالية «إن أعطيتني أُعطيك»، أو إلى متوالية أخرى: «إن

---

(106) P. Seabright, *The Company of Strangers*, Princeton University Press, 2004.

(107) مثل سمك الزامور (اسمه العلمي Naucrates doctor) هذه السمكة اللطيفة بحلتها الرمادية المزرقة التي تقطعها خطوط طويلة تسبح دائماً في جماعات كبيرة مصاحبة لأسماك القرش والأسماك الكبيرة الأخرى (المترجم).

خنتني سأنتقم»... عندما تنطلق دوامة الشك، كيف نمنعها من التدهور؟ حتى في كنف الزوجية، من الصعب أحياناً فض الشجار.

في كتاب مضحك جداً عنوانه «**اصنع بنفسك تعاستك**»، يوضّح بول واتزلاويك Paul Watzlawick كيف يمكن للزوجين الوقوع في الهاوية إذا لم يكن لديهما وسائل للتفاهم كأن يقول كل منهما للآخر «أنا لا أحب حساءَك، ولكنني أحبك». للتفاهم حقاً، يجب توافر القدرة على التمتع بـ«لغة شارحة» métalangage، أي بلغة حول اللغة. على سبيل المثال، يقترح واتزلاويك أن يقول الشريك لشريكته بأنَّ «طعم الحساء غريب»(108)، لإفهامها بأنه يتحدث عن

---

(108) بالفرنسية: le porridge a un goût amusant (حرفياً: طعم الحساء مثير للتسلية). إن عبارة un goût amusant (حرفياً: طعم مثير للتسلية) التي لجأ إليها الزوج هي عبارة ملتبسة، وهي تقريبا تعني العبارة un drôle de goût (طعم غريب)، لكن هذه العبارة المكافئة أكثر إفصاحا عن الطعم الرديء للحساء. لقد لجأ الكاتب على لسان الزوج للعبارة الأولى (حساء مثير للتسلية) من قبيل التعريض اللطيف في الكلام. لكننا لا نجد لهذه العبارة الأولى وجهاً في العربية، إذ لا يقال عن الطعم بأنه "مثير للتسلية" لذلك آثرنا ترجمتها باللجوء إلى العبارة الأخرى المكافئة. وإذا عدنا إلى سياق العبارة في كتاب واتزلاويك Watzlawick، فإنَّ الصورة ستتضح أكثر بالنسبة للقارئ. يقول واتزلاويك:

"لنفترض أنَّ زوجة ما سألت زوجها: "هل يروق لك طعم هذا الحساء الذي أعددته لك؟"

هناك مشكلة في حال كان الزوج يجد أنَّ طعم الحساء مريع ولا يريد في الوقت نفسه إزعاج زوجته. فإذا أخذ الزوج بعين الاعتبار طعم الحساء فقط، سيقول بأن طعمه ليس لذيذاً. وإذا أخذ بعين الاعتبار مشاعر زوجته، سيقول بأن طعم الحساء لذيذ. إننا لا نملك سوى لغة واحدة للتعبير عن كل حالة من الحالتين (طعم الحساء /مشاعر الزوجة). فماذا يمكن للزوج أن يقول؟ لا يمكنه أن يجيب في آنٍ معاً بـ "نعم" و"لا". لذلك سوف يحاول إنقاذ نفسه من هذا الموقف المحرج من خلال إعطاء جواب ملتبس، كأن يقول "إن طعم هذا الحساء غريب" أو مدهش، على أمل أن تفهم الزوجة قصده"(المترجم)

الإفطار وليس عن علاقتهما العاطفية.

على نطاق المجتمع ككل، تم القضاء على مناطق بأكملها، في صقلية أو ألبانيا، بسبب دوامة الثأر الأبدية [109]. للتخلّص من هذه الدّوامة، نحتاج إلى مؤسسات تتجاوز الأفراد نعهد إليها «احتكار العنف المشروع»، على حدّ تعبير ماكس فيبير. فالقدرة على إنتاج نظام اجتماعي من خلال معاملة المشاركين لبعضهم بعضاً بالمثل هي مجرّد فكرة خيالية مثل الفكرة المُعاكسة القائلة بتماسك المجتمع من خلال الإكراه فقط. ولا يكفي منطق المصلحة لقيام المجتمع.

كيف يمكنك التعامل مع شخص عديم الشرف وانتهازي لا يهمه سوى جني الأرباح، من دون الخوف من أن يحتال عليك؟ عندما تكون على متن طائرة، أنت لا تثق بأنَّ المصلحة الذاتية لشركة الطيران هي التي تحفظ سلامتك. فأنت تريد أن تعتقد بأنَّ هناك هيئة مهنية، هي هيئة الطيارين، لها تقاليدها، وأنَّ منطق الشرف يضمن النزاهة الأخلاقية لأعضائها. فرجال العصابات أنفسهم لديهم قواعد سلوكية، حتى لو لم يكن ذلك كافياً لتكليفهم بإدارة العالم.

«الانتماء» إلى مؤسسة

المؤسسة سواء أكانت شركة طيران أم مافيا، هي أكثر بكثير من

---

(109) يقص اسماعيل كاداري I. Kadaré حكاية الثأر اليائسة في روايته "نيسان المكسور".

مجرد «حزمة عقود» يجد الاقتصاديون متعة في وصفها، أي إنها أكثر من رؤية يتصرف بموجبها كل فرد بهدف الحصول عاجلاً أم آجلاً على مكافأة. وقد انتقد هربرت سيمون هذه الفكرة بشدة، وهو أحد العلماء العظماء الذين استمروا في المساهمة في تطوير الذكاء الاصطناعي وفاز بجائزة نوبل في الاقتصاد عام 1978. وأوضح سيمون أنَّ الشركة هي مكان يعطي معنى لحياة أعضائها وليست مكاناً نتكبد فيه الآلام، فنُكافأ براتب [110].

في مقدمة الكتاب الجماعي الذي يحمل عنوان «**سوسيولوجيا المؤسسة**» Sociologie de l'institution، أكّد جاك لاغرو وميشيل أوفيرلي على التنوع الهائل في الطرق التي يمكن من خلالها لأيّ فرد أن «ينتمي إلى مؤسسة». فالالتزام بشركة أو نقابة أو حزب سياسي يعني الالتزام بطريقة في التفكير. وبحسب ماري دوغلاس، تزوِد المؤسسة أعضاءها بـ «مقولات فكرية، وتؤسّس وعيهم الذاتي، وتثبت هويتهم».

أكّد بورديو بدوره على قوة طقوس العبور: «الطقوس والشعائر لها فعالية رمزية حقيقية للغاية من حيث إنها تغير الشخص حقاً». وذهب فوكو إلى أبعد من ذلك، إذ نسَب إلى «السلطة التأديبية» للمؤسسة القدرة على تطبيع الكائنات، وغرس هوية محددة فيهم، وممارسة «إخضاع قسري» عليهم. لكنَّ أبحاث إرفينج غوفمان

(110) H. Simon, « Organizations and markets », *Journal of Economic Perspective*, 1991.

Erving Goffman حذَّرت من التفسير الصارم للغاية لدورهم. حتى في الحالات القصوى المتعلقة بالمصحّات، «يمتلك الفرد القدرة على النأي بالنفس، وهذا يعني أنه قادر على تبني موقف وسيط بين التماهي مع المؤسسة ومعارضتها». يرى غوفمان أنَّ العميل الذي يتبنى أهداف المؤسسة «بحرارة شديدة» قد يشكل في الواقع مصدر إزعاج وتدمير لها. فالشرطة شديدة الحماس، والبيروقراطيون من ذوي المراس الصعب، ومشرفو المدارس الصارمون بشكل مفرط، لا يساعدون المؤسسة التي يعتقدون أنهم يدافعون عنها. وهكذا يؤكد منظور غوفمان بشكل كبير على حساسية العلاقة التي تنشأ بين المؤسسة والشخص الذي يلتزم بها.

وكما أوضح ألبرت هيرشمان Albert Hirschman، فإنَّ أعضاء المؤسسة لديهم العديد من الفرص للمشاركة في حياة المجموعة. وقد لخّص هيرشمان هذه الفرص بالثلاثية : «الخروج ، الصوت، الولاء» Exit, voice et loyalty فالخروج يعني أنه يمكننا مغادرة المؤسسة. والصوت يعني محاولتنا تجديدَ المؤسسة (بالحوار)، أما الولاء فيعني الخضوع لقواعدها من دون مناقشة. في الكتاب الذي تم تحريره بواسطة لوغروا وأوفيرلي، حلّلَ «يان ريزون دو كلوزيو» بدقة الطريقة التي أربكت بها حركة مايو 68 رهبانية الدومينيكان من خلال الاعتماد على هذه العناصر الثلاثة في الوقت نفسه. فبعض الشبان المتشبعون بأحداث مايو، طالبوا بإصلاحات تتكيف مع العصر الجديد (voice)، في حين أنَّ القدماء، الذين

يكنّون احتراماً لنظام الأمور الطبيعي، لم يرغبوا في الاستجابة لهم (loyalty)، واختار بعضهم الآخر أن يغادر ويمضي (exit) باتجاه رهبانيات أخرى أو ببساطة خارج المؤسسة الدينية. أوضحت أبحاث رولان بينابو Roland Bénabou تماماً الطريقة التي يمكن أن يترسخ بها التوتر بين العقيدة الجماعية والحساب الفردي في قلب فئات اجتماعية معينة [111]. في العديد من الأمثلة التي حللها، تؤدّي إمكانية ترك المجموعة («exit»)، دوراً رئيسساً. في المجتمعات التقليدية التي لا يوجد فيها مخرج ممكن، يكون الولاء هو السبيل الوحيد للعيش بسلام. وبالمثل، إذا كنتَ بحاراً على متن سفينة التيتانيك، فمن الأفضل أن تعتقد أنَّ القبطان يدرك ما يفعله. فالشك لن يخدم القضية وسيحول دون إنجازك مهمتك.

يمكننا أيضاً القول بأنَّ تكلفة الدخول المرتفعة تفسّر الولاء للمؤسسة. إذا كنت قد بذلت كثيراً من الجهد للانتماء إليها، سواء أكانت فيلقاً لمشاة البحرية أو هيئة من كبار الموظفين، فمن المحتوم أن ترغب في الالتزام بقيمها، بغض النظر عن قيمك السابقة قبل الدخول فيها. وإلاَّ فإنك ستشعر وكأنك ضيّعت أفضل سنوات حياتك من أجل لا شيء .[112] ومع ذلك، إذا كان هناك خروج

---

(111) R. Bénabou, « Groupthink : collective delusions... », art. cit.

(112) أطلق الاقتصاديون اسم "مغالطة التكلفة الغارقة" sunk cost fallacy، حرفياً "السفينة الغارقة"،

على الحالة التي يكتشف الفرد فيها بأن الاستثمار فاشل، ولكنه يستمر فيه لتجنب خسارة التكاليف التي دُفعت بالفعل ولايمكن استعادتها على الرغم من أنه لاعلاقة بين التكاليف وبين نجاح الاستثمار مستقبلاً. مغالطة التكلفة الغارقة هي تلك الرغبة في جني عوائد الاستثمار حتى في الحالات التي يصبح فيها غير منطقي. فعلى سبيل المثال،

سهل من المؤسسة، سواء أكان ذلك يتعلق على سبيل المثال بالزواج أم بالشركة، فستكون أكثر ميلاً للتعبير عن نفسك (voice) أو لترك تلك المؤسسة (exit) [113]. وأيّاً كانت الطريقة التي تتشابك بها خيوط الانتماء هذه، فإنَّ تحليل الحضارات الإنسانية يتطلب استيعاب أدق تفاصيل المنطق الذي تختلط فيه التأثيرات الأخلاقية، والقناعات الدينية أو العلمانية، وآليات العقوبات التي تحكم العالم. وكما يلّخص بول سيبرايت تماماً، فإنَّ المبدأ الرئيس للمؤسسات هو «السماح لعدد صغير من النظم بالمضي بعيداً في تنظيم المجتمع». فما المكان الذي تحتله الثورة الرقمية ؟

قد تذهب لمشاهدة مسرحية ثم تكتشف أنها لاتستحق المشاهدة، ولكنك تصر على حضورها ليس إلا لأنك دفعت باهظاً قيمة تذكرة حضورها. على العكس من ذلك، إذا تمت دعوتك لمشاهدة تلك المسرحية، فإنك ستخرج أثناء الاستراحة. وأيّ من هذين الموقفين ليس "عقلانياً".

(113) أظهرت دراسة أن حالات الطلاق تتكرر في نهاية الدورة الاقتصادية : يزداد احتمال قيام المرأة العاملة بطلب الطلاق عندما يكون سوق العمل ضيقاً.

أربعة مجتمعات محتملة

لتحديد العالم الرقمي على مقياس تاريخ البشرية الكبير، يجب أن نعود إلى الطرق المختلفة التي تمكنت بها المجتمعات من الجمع بين الناس. دعونا نميّز بين محورين ممكنين. من وجهة نظر التفاعلات الفردية، يمكن للمجتمعات، أولاً وقبل كل شيء، أن تكون عمودية أو أفقية، ويتوقف ذلك على تنظيمها وفقاً لمبادئ هرمية أو مبادئ المساواة. ويمكن أيضاً للمجتمعات من منظور تخيّلها، أن تكون متدينة أو علمانية، اعتماداً على ما إذا كانت تخضع للقوانين الإلهية أو العلمية. وهذا يعطي أربع مجموعات محتملة : مجتمع المساواة/ المجتمع الديني، والمجتمع الهرمي/ المجتمع الديني، والمجتمع الهرمي/ المجتمع العلماني، وأخيراً المجتمع الأفقي / المجتمع العلماني. النوع الأخير هو الذي يلده المجتمع الرقمي ويعاني من آلام المخاض به.

لنستعرض الآن الطرق التي انتشرت بها الأنواع الأخرى في التاريخ من أجل فهم كل من أصالة وصعوبة ولادة «الحضارة» التي يتم البحث عنها اليوم. مكتبة سُر مَن قرأ

الصيادون ملتقطو الثمار

في الأصل، قدّمت مجتمعات الصيد والتقاط الثمار **أنموذجاً للمجتمعات الأفقية والدينية في آنٍ معاً**، تتشكّل علاقاتها الاجتماعية

من دوائر عديدة متحدة المركز. وأكبر مجموعة فيها هي القبيلة التي يبلغ عدد أفرادها ما بين 500 و 2500 شخص، بما في ذلك الكبار والأطفال. ثم تأتي العائلات الكبيرة التي يتراوح عدد أفرادها بين 30 و50 شخصاً. فالنواة الكثيفة للعلاقات الاجتماعية تنشأ بين هاتين الدائرتين على مستوى العشيرة التي تتحكم في مناطق الصيد والطقوس الدينية مثل احتفالات الانتقال إلى مرحلة البلوغ. إنها تجسيد لوحدة المجتمع، وعندما تصبح العشيرة كبيرة جداً، فإنها تنقسم إلى عشائر جديدة تواصل مغامرتها في اتجاهات أخرى، ويهاجر الناس الأوائل كلما اكتشفوا موارد طبيعية أو طرائد. وقد يهاجرون أيضاً، في المقام الأول، لأنَّ هناك حداً إذا تجاوزوه لن يتمكن تنظيمهم السياسي من الصمود.

الفكرة المقولبة والشائعة عن مجتمعات تفتقر للذكاء السياسي (سحقها قانون دنبار Dunbar الذي حدد الحدّ الأقصى لعدد العلاقات المباشرة بـ 150 علاقة) لا تسمح لنا، مع ذلك، بفهم الإبداع السياسي الهائل لأسلافنا العظماء. كتب ديفيد جريبر David Graeber وديفيد وينغرو David Wengrow كتابًا بارزاً يحذّر من فكرة اشتراك المجتمعات البدائية المزعومة كافة في الشكل نفسه من المجتمع القائم على المساواة، كما لو كان الأمر يتعلق بطبيعة ثابتة [114]. وفي الواقع يوجد العديد من مجتمعات الصيد والتقاط الثمار التي تتوافق مع النموذج الأفقي بقدر ما

---

(114) D. Graeber et D. Wengrow, *Au commencement était...*, trad. française, Les liens qui libèrent, Paris, 2021.

توجد مجتمعات تكون فيها التسلسلات الهرمية قوية. وبالتالي، هناك العديد من الأمثلة على هذه المجتمعات التي سيطرت عليها أرستقراطية مُحارِبة اتّخذت لها عبيداً تمَّ أسرهم أثناء الغزوات ضد القبائل المعادية.

كشف العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى)، الذي يغطي الفترة الممتدة من 50000 إلى 15000 سنة قبل الميلاد عن عدد من المدافن الأميرية والمباني المهيبة والمعابد الحجرية والآثار العظمية العملاقة التي تشكك بفكرة اقتصار المجتمعات البشرية الأولى على وحدات صغيرة قائمة على المساواة.

استلهم **جرايبر** Graeber و **وينغرو** Wengrow أبحاث عالم الأنثروبولوجيا **جريجوري بيتسون** Gregory Bateson مؤسس مدرسة بالو ألتو Palo Alto من أجل فهم تنوع المواقف التي واجهتها. قدّم **بيتسون** فكرة «تطور التباين» schismogenèse لوصف هذه الخصوصية للمجتمعات البشرية التي تُعرّف نفسها بوصفها متعارضة مع بعضها بعضاً (شكل مقلوب من تقليد عزيز على رينيه جيرارد). وخير مثال على ذلك هو التنافس بين أثينا واسبارطة. فالفرق بينهما كالفرق بين البحر والبر، وبين العالمية وكراهية الأجانب، وبين الديمقراطية والأوليغارشية... ومع ذلك، يوجد هذا التعارض في الشروط نفسها تقريباً على ساحل المحيط الهادي في أمريكا الشمالية. أما المجتمعات الجنوبية الغربية، فهي تُشبِه نموذج المساواة الكنسي. ويُلاحظ العكس تماماً

في الشمال الغربي، في منطقة **فانكوفر** الحالية، حيث تسيطر على المجتمع هناك أرستقراطية تمارس العبودية. وبالمقابل، فإنَّ هذا الأمر لا يوجد في مجموعة «كاليفورنيا» في الجنوب تماماً. فهي سلمية للغاية، وتستهلك الجوز والصنوبر على الرغم من أنَّ سمك السلمون، وهو الدعامة الأساسية في الشمال، لا يقلّ وفرة هناك.

المسألة الأروع تتعلق بقدرة مجتمع معيّن على تغيير نموذجه وفق تعاقب الفصول! كتب كلود ليفي شتراوس في عام 1944 مقالاً عن النامبيكواراس Nambikwaras، وهو شعب يتّصف بقصر القامة استقرَّ في أدغال ولاية **ماتو غروسو** البرازيلية. خلال موسم الجفاف، وهو موسم الصيد، كان المجتمع يتبنى الطرق المتقشفه للمجتمع العسكري. وكان أمراء الحرب يستعلون على بقية السكان من خلال إظهار «استبداد لم يكن يُعتَبر مقبولاً في أية ظروف أخرى». ولكن بمجرد عودة موسم الأمطار، ومعه «الراحة والوفرة»، يغيّر المجتمع فجأة من طبيعته. فيكفّ أمراء الحرب عن إعطاء أيّ أمر، ويكتفون بالشهرة المكتسبة خلال مواسم الصيد التي سمحت لهم بالاستفادة من رضى بعض الأتباع.

تشهد أمثلة عديدة على هذه الموسمية التي تُميّز العلاقات الاجتماعية. ففي كل مرة نكتشف فيها نُصباً تذكارية فخمة نشأت في مجتمعات اعتقدنا أنها اضمحلت، يمكننا أن نفترض أنَّ هذه النصب بنيت خلال التجمعات الموسمية. نشر مارسيل موس Marcel Mauss وهنري بوشا Henri Beuchat كتاباً عن

الاختلافات الموسمية في مجتمعات الإسكيمو يقدم التشخيص نفسه. ونجد التراجع نفسه لدى هنود المناطق السهلية، إذ تخلى هؤلاء عن حياتهم الزراعية ليعودوا بدواً مرة أخرى بعد وصول الأوروبيين، وعملوا على تربية الخيول الهاربة من معسكرات المحتلين الجدد.

وخلال فترة صيد الجاموس، كانت تجتمع مجموعات صغيرة من قبيلتي شايان ولاكوتا في تجمعات كبيرة وفق نموذج قهري للغاية حيث يمكن لكل من يرتكب مخالفة أن يُجلد أو يُسجن. لكنَّ كل شيء كان يتغير بمجرّد انتهاء موسم الصيد. بعد انتقالهم من مرحلة العشيرة إلى مرحلة الدولة في شهر نوفمبر، يعودون إلى نموذج قائم على المساواة في الربيع ...لا تزال هذه الموسمية في الحياة الاجتماعية جزءاً من حياتنا، على الرغم من أنها مجرّد ظل لما كانت عليه في الماضي، ففترة «العطلة الصيفية» تعكس هذه الرغبة القوية في تغيير الحياة وفق تعاقب الفصول.

المجتمعات الزراعية

بفضل أبحاث علماء الآثار، أصبح من الممكن تحديد تاريخ ظهور المحاصيل الأولى بدقة في منطقة الهلال الخصيب في الشرق الأوسط، منذ حوالي 12000 سنة. ومن السائد الاعتقاد بأنَّ الزراعة هي التي أدّت إلى نمط الحياة المستقرة. لكن بحسب جاك كوفان Jacques

Cauvin، يبدو من الممكن أن يكون العكس قد حصل [115]. في الواقع، إن المجتمعات المستقرة هي التي أدركت، على أرجح الظنّ، أن البذرة المتروكة في الحقل تجعل النبات يزهر بعد أشهر عديدة. لقد أحدثت الزراعة هزة قوية تتمثل في النمو السكاني. ففي حين أن النساء في مجتمعات الصيد والتقاط الثمار كانت لديهن خصوبة منخفضة نسبياً، بسبب الإكراه على الانتقال الذي تسبب في تحديد طبيعي للنسل، فإن المجتمعات الزراعية شهدت زيادة هائلة في عدد سكانها. وكان ذلك لعنة عليهم، إذ إنَّ ما سيطلق عليه «قانون مالتوس» جرى تنفيذه بلا هوادة. فالنمو الديموغرافي امتص الفوائض التي أطلقتها الزراعة، وحلّت المجاعة محلّ الوفرة. لم تسمح الثورة الزراعية بتغذية البشر بشكل أفضل، بل بزيادة عددهم. وهكذا تفوقت الكمية على الجودة، وهو مثال أساسي ورمزي على حاجة البشر إلى فهم جماعي لعواقب أفعالهم الفردية.

منذ حوالي 300000 سنة، عندما بدأ الإنسان الحديث مغامرته، كان تعداد السكان يصل إلى مئات الآلاف، أو مليون على الأكثر. حدثت القطيعة الأولى بين عام 000 40 وعام 000 35 قبل الميلاد. وبلغ عدد السكان 4 أو 5 ملايين. وهكذا بدأ المسار الجديد بالزراعة قبل 10000 عام. وقد تجاوز 10 ملايين عندما ظهرت حضارات الشرق الأوسط العظيمة، ثم 100 مليون عندما زالت

---

(115) J. Cauvin, *Naissance des divinités, naissance de l'agriculture*, Paris, CNRS éditions, 2010.

سنة 1000 قبل الميلاد.

ثم تخطى البشر جميع المستويات ليصلوا إلى 250 مليوناً في عصر المسيح، ومليار في عام 1800، ومليارين في عام 1930، و 8 مليارات اليوم، وقد يصل العدد إلى 10 مليارات في عام 2050.[116]

تضاعف عدد سكان العالم كل 1000 سنة خلال آخر ثمانية آلاف سنة، وبدأ يتضاعف كل قرن، ثم كل نصف قرن ! ومع اكتشاف الزراعة، استمرت الكثافة البشرية في النمو، ودفعت المجتمعات باستمرار إلى أبعد من حدود قدرتها على التوازن النفسي والسياسي، واكتسحت الحدود التي تنبأ بها قانون **دنبار**. ما هي الآليات الاجتماعية التي جعلت استيعاب مثل هذا الانفجار السكاني ممكناً ؟ يكمن أحد الحلول في النموذج الهرمي، وهو جزء من إمكانيات العالم حتى قبل الزراعة ولكنه سرعان ما سيصبح الشكل المهيمن للعلاقات الاجتماعية. شرح هربرت سيمون المنطق تماماً، إذ يمكن بسرعة إدارة مستويات مذهلة من السكان بدءاً من الحجم المتوسط للعشيرة، وليكن على سبيل المثال 150 شخصاً، وبافتراض أنَّ كل واحد من هؤلاء يقود 150 شخصاً آخر، وأنَّ هؤلاء يفعلون بدورهم الشيء نفسه وهكذا دواليك على مستويات

---

(116) كما يوضح مايكل كريمر، فإن معدل النمو السكاني لا يتوقف عن النمو، وهي الصيغة لعملية التفجير.

M. Kremer, « Population growth and technological change », *Quarterly Journal of Economics*, 1993.

متعددة. إنَّ ستة مستويات هرمية (وهو رقم **ميلغرام**) حيث تتطلب كل عقدة 150 شخصاً (وهو رقم **دنبار**) كافية لإنشاء مجتمع يضم 76 مليار شخص! القدرة على بناء مثل هذه الكاتدرائيات هي القفزة الهائلة التي حققتها المجتمعات الإنسانية للبشرية في السراء والضراء.

شكّلت هذه المجتمعات الزراعية خلال ما يقارب من عشرة آلاف سنة النظام الاجتماعي الذي نخرج منه الآن. إنَّ التسلسلات الهرمية التي بنَتها ليست فقط تقنيات تنظيمية، بل تركت آثارها أيضاً في عقلية التفكير. ويكمن أثرها الأكبر والأهمّ في العلاقة بين الجنسين. لقد أظهرت مجتمعات ما قبل الزراعة مجموعة معينة من المواقف المتعلقة بوضع المرأة، والتي كانت في جزء كبير منها لصالحها [117]. لكنَّ الزراعة غيَّرت العلاقات بين الجنسين، وأنشأَت حالة اجتماعية جديدة يقوم فيها الرجال بالعمل الخارجي، في حين أنَّ النساء يعملن في الداخل. لقد بخّست المجتمعات الزراعية من قيمة المرأة، وحصرت دورها في عملية الإنجاب.

---

(117) لقد تصدى البحث الأنثروبولوجي لفكرة التوزيع الصارم للمهام حيث يكون الرجل هو الصياد والمرأة ملتقطة للثمار، وتم تسليط الضوء في هذا البحث على أدلة كثيرة تثبت وجود صيادين من الإناث. انظر:

Vivek Venkataraman, « Women were successful big-game hunters », *The Conversation*, 10 mars 2021.

رافق تَحوّل المجتمعات البشرية من الصيد والتقاط الثمار إلى الزراعة تحولٌ جذري في متخيَّلهم الديني. لذا حذَّر إيف لامبير Lambert، على غرار غريبر Graeber ووينغروWengrow ، من القراءة الخطية المفرطة لتاريخ الأديان [118]. فقد تمكّنت أديان كثيرة من التكيّف مع تحولات العالم، مثل الشامانية على سبيل المثال. واعترضَ جاك كوفان على فكرة أنَّ الزراعة هي التي سببت بشكل آلي تغييراً في الممارسات الدينية، واقترَح قلب السببية، فاضطراب المعتقدات الدينية في رأيه هو الذي سبق في الواقع اكتشاف الزراعة [119]. القطيعة بين العالمين واضحة، أياً كانت الطريقة التي حدثت فيها.

درسَ لامبير بالتفصيل مجتمعات الصيد السيبيري المتناثرة والبدوية، التي تفتقر للقادة والمتوافقة مع النمط المثالي الصغير القائم على المساواة والذي يميّز مجتمعات ما قبل الزراعة. كتب لامبير قائلاً: «بالنسبة إلى تلك المجتمعات، كل شيء هو انغماسٌ في الطبيعة، تبادلٌ في قوة الحياة بين الإنسان والحيوان». لقد كان

(118) Y. Lambert, *La Naissance des religions. De la préhistoire aux religions universalistes*, Paris, Armand Colin, 2007.

(119)بيّن كوفان في كتابه "ولادة الآلهة، ولادة الزراعة"، أن ظهور الممارسات الدينية الجديدة سبق الزراعة. أما آلان تستارت فقد كان أكثر حذراً في كتابه "قبل التاريخ" Avant l'histoire، باريس، غاليمارد، 2012. انظر :

Naissance des divinités, naissance de l'agriculture, Éditions du CNRS, 1994

الحيوان نفسه على قدم المساواة مع الإنسان، إذ وُهبَ روحاً وقوة حيوية معادلة لتلك التي يملكها البشر. ومن المفترض أن تكون الحيوانات منظَّمة في عشائر مثل البشر. كان يُنظَر إلى الصيد على أنه تجارة متبادلة يقوم الشامان فيها بدور الوسيط: «نحصل على طريدة سبق التفاوض عليها مع الأرواح الحيوانية تحت وساطة الشامان. وفي المقابل، تأخذ الحيوانات القوة الحيوية للإنسان، فالشيخوخة والمرض والموت هي ضريبة صيد الطرائد».

تم العثور على هذه المعتقدات الشامانية عند الإنويت، والأقزام، والبوشمن، والسكان الأصليين الأستراليين. وبالنسبة لهذه المجتمعات، فإنه من غير المعقول أكل الحيوانات الأليفة، إذ لا يمكن أكل سوى الطريدة التي تم اصطيادها. ولم تكن الحياة الدينية تتضمن إقامة الصلاة ولا تقديم الأضاحي. ويرى آلان تستارت Alain Testart أنَّ هناك غياباً مطلقاً في هذه المجتمعات للروابط الهرمية بين البشر أو فيما يتعلق بالآلهة، إذ «لا يُعدّ الناس أدنى من فئة من الكائنات التي تسمّى آلهة في مكان آخر. كما أنهم ليسوا متفوّقين على فئة أخرى من الكائنات التابعة والأدنى التي من الجائز تقديمها للآلهة». نحن هنا أمام حالة نموذجية لمجتمع ديني قائم في الوقت نفسه على المساواة، وهذا ما يمثل النوع الأول في تصنيفنا.

إنَّ التحول إلى تربية الحيوانات والزراعة قلَبَ بشكل جذري هذه المعتقدات كلها، ومنح البشر إحساساً جديداً بالتفوق على

الحيوانات. فالاحترام الآن يحظى به الأسلاف، الذين ندين لهم بخلق العالم كما هو. وفي حين أنَّ المجتمعات الشامانية لم تتردد في التخلي عن كبار السن الذين كانت «قوتهم الحيوية» تتدهور، فإنَّ مجتمعات الفلاحين بجَّلتهم وجعلت عبادتهم في ذروة قيمها. ولم يَعُد يُرتَّب العالم وفقاً لمهارة الصيد، بل وفقاً لأقدمية الرؤساء. وكان المزارعون يستمطرون السماء إذا أمسكت عن المطر وأصابهم القحط ويطلبون منها أن تمنحهم السلام، فالمجتمعات الزراعية أفضت إلى الصلاة والتضحية التي لم تكن تعرفها مجتمعات الصيد والتقاط الثمار.

ثم خضع هذا الوعي الديني للدولة مع ظهور الحضارات القديمة والعظيمة في مصر، وفي وبلاد ما بين النهرين، وعلى ضفاف نهري السند والغانج، أو على جبال الأنديز المطلة على المحيط الهادي، فانتقلت تلك الحضارات من دين زراعي شفهي إلى دين رسمي متعدد الآلهة فيه معابد كبيرة وطقوس معقدة. كتب جان بوتيرو Jean Bottéro [120] : «عندما يصبح المجتمع أكثر تراتبية، فإنه يميل إلى جعل صورته تراتبية». نحن في قلب العملية التي من شأنها أن تؤدي إلى النوع الثاني من المجتمعات البشرية، **العمودية والدينية**. ازدادت الأضحيات الحيوانية، وانتهت الأطباق المقدمة للآلهة على مائدة الكهنة الذين أصبحوا طبقة خاصة، وغالباً ما كانت وراثية. وأسهمت الكتابة في تعزيز القوة

(120) J. Bottéro, *Lorsque les dieux faisaient l'homme*, Paris, Gallimard, 1989.

الكهنوتية، وخلقَ خضوع الكهنة لسيطرة الدولة فجوة بين الدين الرسمي والدين الشعبي، وتنامى الفصل الصامت بين العبادة الرسمية التي تمجّد الإمبراطور الوحيد الموعود بالخلود مع عدد قليل من كبار الشخصيات، ودين الشعب الذي احتفظ ببعض أشكال الديانات الشفوية السابقة، التي تقوم على عبادة الأجداد.

وبحسب كارل جاسبرز Karl Jaspers حدَثَ انزياحٌ جديدٌ في مركز العالم الديني في فترة زمنية قصيرة تمتد من 600 إلى 200 قبل الميلاد، تحولت خلالها الأديان إلى نظام جديد، اتخذت فيه الأخلاق الفردية مكانة غير مسبوقة. هذا هو النموذج المختلف الذي اقترحه كونفوشيوس ولاوتسو في الصين، وبوذا في الهند، وزرادشت في إيران، وأنبياء إسرائيل، أو هوميروس وسقراط في اليونان... تراجعت الوحدة التي كانت قائمة بين الكون والنظام الاجتماعي ورفاهية الإنسان. ويرى جاسبرز بأنها اللحظة التي استفاقت فيها البشرية من غفلتها. فلم تعد المجتمعات البشرية تُعرف بتراثها، أي تراث أسلافها العظماء أو أسلافها الإلهيين، بل من خلال القواعد الأخلاقية التي يضعها البشر لأنفسهم. ولم تعد تكمن السعادة في تقبّل الطبيعة كما هي، بل في قدرة الناس على وضع معاييرهم الخاصة للوجود.

لقد ظهرت الأديان في ظروف متقاربة، إذ إنها نشأت جميعها في أوقات الشدة عندما تراجعت القوى القديمة. ولد كونفوشيوس خلال ما يسمى بفترة الممالك المتحاربة، عندما أدى سقوط أسرة زو

Zhou إلى فتح دائرة من الصراعات بين مختلف الإقطاعات. ومن أجل استعادة النظام، أسس كونفوشيوس أخلاقاً جديدة، هي أخلاقيات الإنسان الصالح، التي تنتقل من الأب الصالح للأسرة إلى الحاكم العادل، والتي تشجع على نبذ العنف الفوضوي للأرستقراطية. و بدأ أنبياء إسرائيل في كتابة الكتاب المقدس في حالة من الفوضى التي سببها تدمير الهيكل ونفيهم البابلي [121]. وولدت المعجزة اليونانية على خلفية الحروب المدمرة بين المدن في ظل تهديد الإمبراطورية الفارسية. وأقرّت الأديان بأن الحضارات يمكن أن تهلك. وتمت إعادة النظر في الصلة بين التقوى والدولة. استكشف الرهبان البوذيون أو الطلاب في المدارس الدينية اليهودية (اليشيفات) [122] طرقاً جديدة ليكونوا في منتهى الإنسانية. لقد بشّروا بما سيطلِق عليه **لويس دومون** «الفرد خارج العالم»، والذي يعلن وفقاً له عن الفردانية المعاصرة.

---

(121) اليهودية نفسها مرت بمرحلتين. في البداية كانت ترتكز على ركيزتين: الهيكل والتوراة .أن تكون يهودياً يعني منذ زمن طويل تقديم القرابين إلى الله ، من خلال جعل الكهنة يقدمون ذبائح حيوانية ، كما هو الحال في معظم الأديان القديمة. مع التدمير الثاني للمعبد من قبل الرومان، تولى الحاخامات السلطة على الكهنة .أن تكون يهودياً، من الآن فصاعداً، يعني دراسة التوراة وشروحها. إن الارتباط بالأديان القديمة مقطوع بالتأكيد. يُظهر سرد إيكشتاين Eckstein وبوتيتشيني Botticini أن الالتزام بالقراءة (المكلف للغاية في المجتمع الزراعي في ذلك الوقت) كان يتسبب في انخفاض حاد في عدد اليهود. كتابهما "الحفنة المختارة " La Poignée d'élus هو قصة هذا الاستنزاف الذي لن يتوقف إلاَّ مع تطور مدن مثل بغداد وقرطبة، حيث سيجد اليهود كيف يبرزون أهمية قيمهم المثالية الدينية في هذا العالم الحضري الجديد.

(122) يشيفا yeshivas هي مدرسة يهودية دينية حيث يتم تعليم مصادر الهالاخاه (الشريعة اليهودية) وخاصة التلمود، وكذلك طرقات الإفتاء في الديانة اليهودية (المترجم).

يجب ألاَّ تخدعنا سمات هذه الأديان، تلك السمات التي يقال اليوم بأنها«فلسفية»، فهي تظل مسكونة بحضور الآلهة. إنها ديانات الخلاص التي تضفي الطابع الديمقراطي بشكل خاص على الوعد بالحياة الأبدية التي كانت مخصصة في السابق للفراعنة والأباطرة الآخرين. حتى عندما نشأت هذه الديانات في فترة تدهور الإمبراطوريات العظيمة في الماضي، فإنها استُخدمت بشكل مثير للفضول لإعادة ابتكار الفكرة الإمبراطورية، مع المسيحية في روما والكونفوشيوسية في الصين. ولكن رُبّ فاكهة تغريك قشرتها واللبّ يرتعُ فيه الدود والعفنُ. فلم يعد العالم الديني والعالم السياسي متفقين تماماً مع بعضهما بعضاً.

مع سقوط الإمبراطورية الرومانية، هناك قوتان، ونظامان من القيم متنافسان، سيتنازعان على حكومة الأرواح: السلطة الكنسية والسلطة الأرستقراطية. بشّرت السلطة الكنسية بالمساواة بين الناس أمام الله، خلافاً للسلطة الارستقراطية تماماً. وكما يقول عالم الاجتماع فيليب ديريبارني Philippe d'Iribarne، كان هذا التناقض شديداً بشكل خاص في فرنسا، مما كان يرفع عالياً مستوى النفاق اللازم لحله، حيث يتساوى الجميع أمام الكنيسة، ثم تبطُل هذه المساواة ما إن يخرجوا منها. هذه الازدواجية التي ميزت العالم الإقطاعي هي التي ستتغير في العصور الحديثة التي بدأت من القرن الخامس عشر. وهذا الاضطراب هو الذي بشَّر بالعالم الذي ما زلنا نعيش فيه.

العصر العلماني

اهتزت القيم الكنسية من جرّاء الثورة العلمية لكل من ديكارت وغاليليو. قال غاليليو إنه لحلّ رموز إرادة الله ، يكفي تغيير الأبجدية باستخدام الرياضيات بدلاً من اللاتينية. ونقلت المسيحية إلى الغربيين فكرة أن «الأرض هي إمضاء الله»، على حدّ تعبير بيار لوجيندر. الكوجيتو الديكارتي - أي بيان الحداثة حيث الإنسان البطل الذي يعتريه الشك ويشعر بالعزلة الوجودية، يقف وحده في مواجهة السماء التي أصبحت فارغة - هو النتيجة المنطقية لتطورات الروح الدينية. وهكذا وصف الفيلسوف تشارلز تايلور ببراعة كيف أن العصور الحديثة تمخَّضت عمَّا سماه «العصر العلماني»، وهو عالمنا الجديد الذي لم يختفِ فيه الدين، بل أصبح مجرّد خيار واحد من بين طرق أخرى للعيش[123].

كما أنَّ صعود الدول الاستبدادية غيّرت جذرياً القيم الأرستقراطية، واتّخذ تفكيك نظام النبالة مساراً غريباً داخل تنافس الطبقات المهيمنة للوصول إلى السلطة. وغدت السيطرة على الأرستقراطية الإقطاعية هي القضية الرئيسة للتحولات التي رسخها النظام الملكي. غرق الأرستقراطيون في مجتمع البلاط الذي حوَّلهم من محاربين شجعان إلى خدم للسلطة الملكية. فبدلاً من القتال، كان على النبلاء قراءة «كتاب الأتباع» Le Livre du

(123) C. Taylor, *L'Âge séculier*, Paris, Le Seuil, 2011.

courtisan لكاستيغليون Castiglione الذي يعلمهم فن احترام القواعد الاجتماعية الحافلة بالقيود.

بيّن عالم الاجتماع نوربرت إلياس Norbert Elias أنَّ البلاط أصبح مقرّاً للتحولات الجذرية في مسائل العادات والعلاقات الحميمة، فالغضب والعنف والاستياء يجب أن يخضعوا لضبط النفس الصارم. وأصبح تدريجياً من غير اللائق أن تتمخَّط في مفرش المائدة أو أن تتغوط في الأماكن العامة، حتى لو كان الملك نفسه يظل محاطاً بحاشيته عند جلوسه لقضاء حاجته على مرحاض بشكل «كرسي مثقوب»!

كما سمحت مقتضيات دماثة الخُلق للأرستقراطية أن تميّز نفسها اجتماعياً عن البرجوازية الصاعدة، التي مع ذلك قلّدتها بسرعة، أو جرّبت أن تقلّدها على غرار السيد جوردان [124]. ولكنَّ البرجوازية هي صاحبة الكلمة الأخيرة التي كما يقول ماركس «ستُغرِق روح الفروسيةَ في المياه الجليدية للحسابات الأنانية». كتب ألبير هيرشمان كتاباً أصبح كلاسيكياً بيَّن فيه أن حُبَّ المجد - الذي لا يزال يصفه كورني Corneille بأنه الدافع الوحيد للعيش - سوف يفسح المجال تدريجياً لشغفٍ آخر، ألا وهو «الجشع»، الذي أعيدت تسميته بـ«المصلحة» لتلبية احتياجات العالم الحديث، إذ

(124) قرر جوردان في مسرحية كوميدية لموليير عنوانها "البورجوازي النبيل" أن يرتقي من الطبقة البورجوازية أي الطبقة الوسطى إلى طبقة النبلاء والإرستقراطيين لذا كرّس كل جهوده وأنفق الأموال في شراء الملابس الجديدة والجميلة وسعى لتعلّم فن المبارزة والرقص والموسيقى والفلسفة. ركز موليير في هذه المسرحية على تعرية الطبقات الاجتماعية للمجتمع الفرنسي في القرن السابع عشر. (المترجم)

يمكن تفسير التحوُّل نحو العقلية البرجوازية على أنه انتقال من شغفٍ واحد هو شغف البطولة، إلى شغفٍ آخر، وهو شغف الربح الذي لم تقلّ شدّته عن العواطف السابقة، ولكن المدافعين عنه أشادوا به لامتلاكه ميزة القدرة على إحلال النظام والاستقرار. أما الجشع فهو «شغف تعويضي» يكبح جماح ضروب الشغف الأخرى.

لقد حدَس سبينوزا نحو هذه الطفرة عندما قال إنَّ «الشعور لا يمكن إحباطه أو إزالته إلاَّ من خلال شعورٍ مضاد وأقوى من الشعور بالإحباط». إن محبة الربح لها ميزة، في نظر الأخلاق البرجوازية، تكمن في أنه يمكن التنبؤ بها. هذه الحجة هي التي ألهمت آدم سميث عندما أوضح أنه من الأفضل أن تعتمد على مصلحة خبّازك بدلاً من أن تعتمد على لطفه وعنايته .[125]

ومع ذلك، فإن الرقابة الاجتماعية التي تمتد إلى السكان ككل، سوف تتم ممارستها بطريقة أقسى بكثير مما يشير إليه منظّرو السوق. يذكّرنا تشارلز تايلور عبر الإحالة إلى أبحاث ميشيل فوكو بأنَّ العصر الحديث اخترع نظاماً تأديبياً جديداً يُطرد فيه الجانحون والمجانين والفقراء من الفضاء العام. والأعمال الخيرية التي كانت غير مشروطة في السابق أصبحت أكثر قسوة: من الآن فصاعداً

(125) إننا لا نتوقع من الجزار أو صانع الخمر أو الخباز أن يوفر لنا طعامنا على أساس رغبته في عمل الخير، وإنما على أساس اعتباراته المتعلقة بمصلحته الشخصية، وبذلك فإننا لا نتعامل مع إنسانيتهم، وإنما مع حب كل منهم لذاته، ولا نتحدث معهم أبداً عن احتياجاتنا الضرورية، وإنما عن المنافع التي تعود عليهم (آدم سميث، "ثروة الأمم"، المجلد الأول، الفصل الثاني) (المترجم).

يجب على الفقراء العمل لاستحقاقها. وتمَّ تدريجياً منع الكرنفالات التي كانت توفر فرصة للترويح عن النفس، حيث إن إيراسموس، الذي كان أحد المؤلفين الذين اعتبروا «التمدن والكياسة» civilité ضرورةً جديدةً في عام 1503، اتّهم الكرنفال بأنه غير مسيحي، ويحمل آثار الوثنية القديمة.

خلال الكرنفال، يصبح كل شيء ممكناً، إذ يمكن للنساء أن يجسدن الرجال، وللأطفال أن يأمروا الكبار، وللخدم أن يجعلوا أسيادهم يعملون كالعبيد، ويمكن للأسلاف أن يعودوا من الموت، كما يمكن تتويج الملوك ثم خلعهم عن عروشهم.

إنَّ كُتبَ ميشيل فوكو- من «تاريخ الجنون» إلى «المراقبة والمعاقبة» إلى «ولادة العيادة»- وصَفت بدقة العملية التي ميّزَت، بدرجاتٍ حدّة متفاوتة، نمطاً مثالياً جديداً من تنظيم المجتمع، وهو نمط «المجتمعات الانضباطية». خصَّص فوكو مقطعاً مشهوراً من كتابه «المراقبة والمعاقبة» لوصف سجن بنثام panoptique de Bentham [126]،

---

(126) تتمثل الوظيفة الرئيسة للسجن في دفع السجناء للاقتناع بإصلاح أنفسهم بأنفسهم وإدارتها. وإذا ما كان السجن والإشراف مُصمَّمين على نحو فعال، فإنَّ السجناء ليسوا بحاجة إلى المشرفين عليهم، لأنهم سوف يصبحون مشرفين على أنفسهم. وهذا هو الخضوع. ولتوضيح هذا الشكل الحديث من السلطة، استخدم فوكو صورة في كتابه "المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن" (1975) والتي صارت مشهورة للغاية. فمن أرشيفات التاريخ، استرجع فوكو مخططاً منسياً تقريباً للفيلسوف الأخلاقي الكنسي المعروف جيريمي بنثام (1748-1832). اقترح بنثام إيجاد سجن بمراقبة عالية جداً تحت اسم "بانوبتيكون". وكان محور هذا الاقتراح مخططاً معمارياً مصمماً لتحقيق الغرض الأساسي "الإصلاحية/ التصحيح". وفي هذا "البانوبتيكون"، فإن الأهمية المادية المفرطة للأحجار الثقيلة والقضبان المعدنية للسجن أقل أهمية من العناصر غير الملموسة مثل الضوء والهواء التي يتمّ من خلالها كسر روح كل سجين

حيث شرح مؤسّس النفعية (فوكو) كيف يمكن للسجن النموذجي أن يسمح بمراقبة كل شيء من موقع مراقبة مثالي لجميع السجناء وهم في زنازينهم [127]. وهكذا فإنَّ الكمال الأخلاقي لضبط النفس الذي يجب على النخب أن يخضعوا له هو عكس الانضباط الصارم الذي تفرضه السلطة المركزية في قاع المجتمع.

من خلال الإشراف عليها. كان تصميم البانوبتيكون بسيطًا. فهو على شكل دائرة من الزنازين التي تبنى حول برج الحرس المركزي. مفهوم التصميم هو السماح بمراقب واحد لمراقبة جميع السجناء من دون أن يكون السجناء قادرين على معرفة ما إذا كانوا مراقبين أم لا. وصف بنثام البانوبتيكون على أنه "طريقة جديدة للحصول على قوّة العقل على العقل". فيتم وضع الزنازين في مواجهة البرج وتضاء نافذة كبيرة في الجهة الخلفية للزنزانة بحيث يمكن لأي شخص داخل البرج رؤية ما يحصل داخل الزنزانة ومتابعة نشاطات السجين أولًا بأول. ويكون برج الحرس مرئياً بشكل بارز للسجناء، ولكن، وبسبب النوافذ العمياء للبرج والتي جهزت بشكل مخصص له، لا يمكن للسجناء أن ينظروا إلى داخل البرج لمعرفة ما إذا كانوا يُراقبون. وهذا هو النموذج الذي يطلق عليهِ تصميم المراقبة المستمرة وغير المتوقّفة. وهذا النموذج المعماري ليس مجرد مكانٍ أو مؤسّسة للحبس، إنما كما يقول بنثام نفسه: "مطحنة لطحن الأوغاد بشكلٍ صحيح" (المترجم)

(127) يرى فوكو أن الطريقة التي تعمل فيها ميكانيكية السجون ليست مصممة لحبس المجرمين بقدر ما هي معنية بكسرهم وتحويلهم إلى بُنى خاضعة أخرى. فالسجون هي أولًا وقبل كل شيء ليست مؤسّسات للحبس وإنما إدارات إصلاح/ تصحيح. والجزء المهم في هذه المؤسسة ليس قفص الزنزانة، بل هو روتين الجداول الزمنية التي تحكم الحياة اليومية للسجناء، وما يخصّص للسجناء من تفتيش صباحي خاضع للإشراف وأوقات الوجبات المرصودة ونوبات العمل وحتى "وقت الفراغ" الذي تشرف عليه مجموعة من الحاضرين مثل الحراس المسلّحين وعلماء النفس. والأهم من ذلك، أن جميع عناصر المراقبة في السجون تكون مرئية بشكل مستمر. يجب أن يكون السجناء على علم بأنهم يخضعون للإشراف المستمر. والغرض من المراقبة المستمرة ليس تخويف السجناء الذين يفكرون في الفرار بل لإجبارهم على اعتبار أنفسهم خاضعين للتصحيح. يخضع السجناء إذاً للتفتيش السلوكي المستمرّ من لحظة شروق الشمس إلى غيابها. (المترجم)

في هذا الاضطراب الهائل للقيم وُلدَ العالَم الذي نحن ورثته المباشرون، والذي تعمل الثورة الرقمية على زعزعته. وطوال القرن الثامن عشر، سعى التنوير إلى ترجمة فكرة العناية الإلهية إلى لغة علمانية من خلال ترسيخها في وعد جديد، وهو الوعد بالتطور. كما صدّر التنوير في المجال السياسي فكرة السيادة، من خلال نقلها من السلطة الملكية إلى الشعب. وبعد ذلك انتقلت فكرة الطبيعة عبر آدم سميث، صديق ديفيد هيوم وخليفته، إلى مجال الأسواق، فوضعَ سميث نظرية للفكرة القائلة بأنَّ هناك أسعاراً «طبيعية»، «تنجذب» الأسعار الحالية نحوها وفقاً للقوانين التي يجب على صاحب السيادة نفسه أن يخضع لها، على صورة قوانين الطبيعة. تندرج هذه الأفكار في صلب الفكر العلماني الذي شكّل أفق القرن التاسع عشر. لكن الثورة الصناعية ورثَت أيضاً النموذج التأديبي الذي تم وضعه للسيطرة على العوام. وهكذا أصبحت المصانع والمدارس والمستشفيات أماكن تخضع فيها الحياة الجماعية للمراقبة.

من المؤكد أن المصنع أو المدرسة لم يُخترعا في القرن التاسع عشر، فالمصانع وُجِدَت منذ فجر التاريخ (من مصانع العبيد في العصور القديمة إلى مصانع الخزف في كولبير)، لكنَّ العمل ما قبل الصناعي كان يجري خاصة في الريف، فيما سمي بالرأسمالية الأولي، فكان الرأسمالي حينئذٍ يكتفي بجلب المواد الخام إلى المنازل، واستعادة العمل المنجَز المأجور بالقطعة. واتخذت طريقة تصنيع

القرن التاسع عشر للحياة الاجتماعية منعطفاً جديداً من خلال حصر الجمهور المعني في الأماكن المغلقة.

لقد أوضح عالم الاجتماع الأمريكي رونالد إنغلهارت Ronald Inglehart [128] هذا التناقض تماماً بين تطلعات التحرُّر التي تمخّض عنها التنوير وواقع عالم اقتصادي واجتماعي تسود فيه الطاعة، ففي نظره، خانت الثورة الصناعية روح التنوير. ويشير الانفصال عن العالم الزراعي والانتقال إلى العالم الصناعي في المقام الأول إلى انتقالٍ من نظام ديني إلى نظام علماني، فقد كانوا يؤمنون بالله، وهم الآن يؤمنون بالعقل، وحلَّ المهندسون محلّ الكهنة. ومع ذلك، تظلّ هذه الطفرة جزءاً من المفهوم الهرمي العميق للمجتمع.

فتسلسل القيادة الذي ينتقل من الرئيس التنفيذي والمهندس إلى العامل عبر مراقب العمال يتّسم بالصرامة التي يتّسم بها التسلسل الذي كان ينتقل من الملك إلى أباطرته ومن هؤلاء إلى فلاحيهم. أصبحت السلطات الدينية سلطات علمانية، لكن المثل التنويري الأعلى للتحرر قد تحطَّم، فكل واحد بقي قابعاً في مكانٍ ثابتٍ ضمن نظامٍ جديدٍ غير قائم على المساواة على غرار النظام السابق. وهكذا بنت المجتمعات الصناعية النوع الثالث من العلاقات الاجتماعية،

---

(128) R. Inglehart, *Modernization and Postmodernization : Cultural, Economic, and Political Change in 43 Societies*, Princeton, Princeton University Press, 1997.

هي العلاقات العلمانية الهرمية.

لم يتطور الطابع الإنساني الذي تتذرع به المجتمعات المتقدمة إلَّا بعد الانتقال إلى اقتصاد ما بعد الصناعة حيث برز تأكيد الذات أو التعبير عنها self-expression بوصفه عنصراً مؤسّساً لمجتمع يركّز على تحقيق الذات على المستوى الفردي. ووفّر التعليم الجماعي لكل شخص القدرات العقلية لتفكيرٍ مستقل، وقطعت دولة الرفاهية رابط التبعية المادية بين الأطفال والآباء. وتحولت الجماعات المحتاجة إلى «صلات اختيارية»، وأسهم التعليم والتحضر وإضفاء الطابع الديمقراطي، وزعزعة علاقات الهيمنة بين الذكور والإناث في قيام مجتمع مستقل ذاتياً ومتسامح. وهكذا فضَّل مجتمع ما بعد الصناعة عودة المثل الأعلى للتنوير، والمجتمع الذي يتكون من رعايا مستقلين ومتحررين من النظام الزراعي القديم. هذا هو الأمل الذي حملته الثقافة المضادة التي سادت في الستينيات.

إنَّ النقد الذي تم التعبير عنه في الستينيات، في ما سُمّيَ في فرنسا «68 مايو»، استهدف عمودية النظام الاجتماعي وأصبح المفهوم الهرمي للمجتمع، سواء في المصنع أو في الأسرة أو في المدرسة، غير مقبول. بالنسبة لعالم الاجتماع دانيال بيل Daniel Bell، فإنَّ هذا الجدال هو في حدّ ذاته نتيجة لما وصفه بأنه «التناقضات الثقافية للرأسمالية». ووضَّح أنَّ الرأسمالية تعاني من توتر دائم بين مجال الإنتاج، الذي يصبو لمثلٍ أعلى يتمثل في النظام والزهد، وبين مجال الاستهلاك والتسويق والإعلان الذي يقدِّم صوراً تجسد «الإبهار

والجنس، ويروّج لطريقة عَيشٍ قائمة على الملذات». أحد هذين المجالين يؤدي إلى الطاعة والآخر إلى الفجور.

يرى بيل أن هذه «التناقضات الثقافية» ورِثَت التوترات الداخلية داخل البرجوازية نفسها الممزقة بين احتياجاتها «للحساب والنظام» وشهيتها «الفاوستية»(129) للثروة اللامحدودة. إنها تريد التوفيق بين النظام الأخلاقي الذي تقوم عليه قيمها الأساسية، والملكية والسلطة والاضطراب الاقتصادي الذي تُسببه، من خلال إحداث ثورة مستمرة في عمليات الإنتاج والاستهلاك. وجاءت لحظة لم يَعُد فيها هذان البعدان قادرين على التعايش، فالثورة الثقافية في الستينيات هي اللحظة التي اختلّ فيها هذا التوازن، عندما رفض الشباب الشغوف بالحرية والاستقلال العالم الذي ورثوه.

ومع ذلك، كانت أزمة السبعينيات بمنزلة صيحة إيقاظ قاسية موجهة للمتظاهرين، و«عودة إلى الواقع» على حدّ تعبير أعدائها. فبدلاً من إحلال عالَم المساواة الموعود، دَفَعَت إلى الأمام بعجلة الثورة المُحافِظة لريغان وتاتشر، ومهرت بإمضائها على انتصار قيمة مؤلَّهة هي **المال**. كانت الفترة التي بدأت في الثمانينيات تعيش على الوهم الليبرالي لمجتمع يُنظر إليه على أنه مجموعة من العملاء المنفردين والمتنافسين الذين يتفاعلون بواسطة السوق فقط ليشكلوا

---

(129) فاوست شخصية تاريخية عاش في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وانشغل بالشعوذة، وأوهم من حوله أنه ساحر ضليع، فكان يبتز أموالهم ويقرأ لهم الطالع ويعالج مرضاهم بالشعوذة، وعندما مات ميتة عنيفة سنة 1540 م نسبوا ذلك للشيطان، وبهذا ولدت أسطورة فاوست وانتشرت وتشبع بها الكاتب غوته. (المتلرجم)

مجتمعاً هائلاً من المساهمين.

كانت تلك هي الحقبة التي انتصرت فيها أفكار ميلتون فريدمان Milton Friedman، وقضت على فكرة الشَرِكَة كموطنٍ اجتماعي وذلك من أجل فكرة مفادها أنَّ مديري هذه الشركات ينبغي أن يكونوا في الخدمة الحصرية لأصحابها (130). وفي كتاب عنوانه «الأسواق والتسلسلات الهرمية» Markets and Hierarchies قام أوليفر ويليامسون Oliver Williamson، الفائز بجائزة نوبل في الاقتصاد، بتسليط الضوء على الخيارين اللذين ظهرا في ذلك الوقت، إذ علينا أن نختار بين عالم «المنظمات» حيث التبعية هي القاعدة، وعالم آخر يحكمه السوق الذي يسمح على سبيل المثال بأن يكون المرء «رائد أعمال تلقائي» ووحيداً ولكنه يعتمد كلياً على الزبائن والسوق. بالنسبة لهؤلاء المؤلفين، يبدو أنه لا يوجد خيار ثالث.

من نواح كثيرة، قدَّمت الثورة الرقمية للثورة الليبرالية الوسائل لتعزيز نفسها. لقد شَحذَت المنافسة بين مقدمي الخدمات ومنحت الشركات وسائل للتفكير في نوعٍ جديد من التنظيم يمهّد الطريق أمام الاستعانة بمصادر خارجية **والتعاقد من الباطن** (131). لكنه

(130) M. Jensen et W. Mekling, « Theory of the firm : Managerial behavior, agency costs and ownership structure », *Journal of Financial Economics*, 1976.

(131) التعاقد من الباطن sous-traitance : عملية تجارية تقوم من خلالها الشركة بنقل المسؤولية عن مهامها إلى شركة أخرى متخصصة في هذا النشاط. الشركة المتعاقد عليها من الباطن، والتي تسمى المقاول من الباطن أو المورّد، هي الشركة التي

يرث أيضاً الالتقاء بين الأخلاق التحررية في الستينيات والسبعينيات وبين عالَم البحث في المعلوماتية الذي يعزز البرامج المفتوحة المصدر open source والمجانية وغياب الروابط الهرمية. واضطلعت الجامعات الأمريكية- حيث كان الاحتجاج على حرب فيتنام والأخلاق البورجوازية على أشدّه - بريادة العالم الرقمي الناشئ. لقد دافعت ثورة المعلوماتية بشكل مباشر عن هذه الثقافة المضادة من خلال الرغبة في تزويد الجميع بالوسائل اللازمة لتحرير أنفسهم من التسلسلات الهرمية السابقة. هذا التراث هو الذي قاد المجتمع الجديد وشبكاته الاجتماعية لتجربة شيء غير مسبوق في التاريخ البشري: مخطط لمجتمع قائم على المساواة يؤمن بنفسه فقط، بدون سلطة متعالية، دينية أو مدنية. لقد اكتشف قارّة غير مستكشفة حتى الآن من الحضارات الإنسانية تعدُّ أحدثَ أنموذج

تؤدي مهاماً معينة لشركة أخرى (مقاول أو عميل). عادة ما يتم تحديد علاقة العمل هذه في عقد. وتجدر الإشارة إلى أنَّ التعاقد من الباطن معروف أيضاً باسمه باللغة الإنجليزية، outsourcing، الذي يعني "الاستعانة بمصادر خارجية". وفي بيئة الأعمال المعولمة التي نعيش فيها حالياً، ازدادت الاستعانة بمصادر خارجية في عمليات الإنتاج، وذلك من خلال التعاقد من الباطن على الأنشطة التي لا تعدّها الشركات أساسية. وبهذا المعنى، تتمتع الشركات الخارجية بمزايا معينة تساعدها على أن تكون مفيدة في السوق وتفي بالاحتياجات المختلفة. وكمثال على التعاقد من الباطن نذكرما ماقامت به شركات إنتاج الهواتف الذكية المسؤولة عن تصنيعها وتسويقها، إذ فوّضت شركة أخرى بعملية تطوير نظامها وبرامجهما، كما هو الحال في نظام أندرويد Android الذي تقدمه غوغل Google. وبالتالي، فإنَّ شركات الهواتف الذكية هذه تقدم منتجًا بنظام جيد لا يمكنها إنشاؤه بنفسها لأنها لا تمتلك المعرفة أو الوسائل اللازمة للقيام بذلك. وهكذا أجرت غوغل صفقة استحواذ على أكثر أنظمة تشغيل الهواتف شيوعاً (المترجم).

ممكن، أفقي وعلماني.

ومع ذلك فإنَّ الطريقة التي سيتحقق بها هذا الأمل خبأت مفاجأة سيئة للغاية، إذ دمرت آليات الإدماج التي أوجدها المجتمع الصناعي.

انتصار الزواج الداخلي[132]

في نص استشرافي على نحوٍ مذهل عنوانه «مجتمعات التحكم»، أعلن جيل دولوز Gilles Deleuze في فجر التسعينيات عن ثورة حاسمة تُمثّل نهاية المجتمعات التأديبية، فهذه المجتمعات فسحت المجالَ في نظره لنظام جديد سمّاه «مجتمعات الرقابة»، وهو مصطلح يتنبأ تماماً «برأسمالية المراقبة» التي تحدثت عنها شوشانا زيبوف. تقول زيبوف: في المجتمع التأديبي ينتقل الفرد باستمرار من بيئة مغلقة إلى أخرى: بدءاً بالأسرة، ثم المدرسة، ثم الثكنات، ثم المصنع، ومن وقت لآخر المستشفى وربما السجن. في المجتمع الجديد، كل شيء يحدث خارج أسوار المؤسسة، فالبحث عن أحكام «بديلة» للجرائم البسيطة واستخدام الأطواق الإلكترونية يُخرج السجناء من السجن. وفي النظام المدرسي، تعمل المراقبة المستمرة والتدريب الدائم على صياغة نموذج جديد للطالب الدائم. وفي المستشفى يحلّ طبّ جديد «بدون طبيب أو مريض» ... وفي عالَم العمل، تحلُّ الشركة محلَّ المصنع و«يقال بأنَّ الشركات تمتلك روحاً، ويعدُّ ذلك من أكثر الأخبار المروّعة في العالم...». ويضيف دولوز

(132) يدل لفظ الزواج الداخلي endogamie على النظام الذي يقتضي أن يتزوج الفرد من طبقة معينة من طبقات قبيلته. ثم اتسعت دلالة هذا اللفظ فاصبحت تشير إلى اتجاه الأفراد نحو الزواج من فئة أو طائفة ينتمون إليها. ويدعى هذا المجتمع القرابي الواسع أو الضيق المحيط المنعزل. وتكون حدوده جغرافية أو اجتماعية أو دينية أو ما شابه ذلك. (المترجم)

أنَّ «هذه الأمثلة تعدُّ ضعيفة إلى حدّ ما، ولكنها تتيح لنا فهماً أفضل لما تعنيه أزمة المؤسسات، أي الإحلال التدريجي والمشتت لنظام جديد للهيمنة».

إنَّ مثال الشركات «التي تمتلك روحاً» يمثّل تماماً تغيّراً في العقلية نشأ في مطلع الثمانينيات، ففي العالم المعاصر، تعدُّ الشركات محورَ بناء الهويات الاجتماعية. وهكذا فقد أحدث اختراع الفوردية في بداية القرن العشرين تغييراً جذرياً في المتخيّل السائد في ذلك العصر، فالحركة النقابية تمكنت من الانتصار في قلب العالم الصناعي الكثيف الذي أوجدته. أما في النظام الجديد الذي ترسخ في الثمانينيات، فقد تم إنجاز كل شيء على العكس لكسر وحدة العالم الاجتماعي. وكان الهدف من بيع مجمَّعات صناعية كبيرة كأجزاء مفككة هو كسر القوة المضادة النقابية [133]. جمعت مكاتب الدراسات المهندسين والعاملين الخريجين معاً. وفعلت خدمات التنظيف الشيء نفسه للأشخاص غير المؤهلين. لقد تم عمل كل شيء لتوليف الطبقات الاجتماعية فيما بينها، من دون أن يكون هناك أي ارتباط «عضوي» بين مختلف مستويات المجتمع.

أظهرت دراسة حول تزايد ضروب التفاوت الأمريكية أنَّ احتدام حالات التفاوت على مدى الأعوام الثلاثين الماضية كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهذه العملية [134]. في حين أنَّ الفجوة في الدخل

(133) P. Askenazy, *La Croissance moderne...*, *op. cit.*

(134) N. Bloom *et al.*, « Firming up inequality », *Quarterly Journal of Economics*, 2019.

بين النقيضين استرجعت المستويات التي بلغتها في القرن التاسع عشر، وألغت في غضون بضعة عقود التقليص الهائل الذي لوحظ في القرن العشرين، فإنَّ ضروب التفاوت داخل الشركات نفسها لم تتغير نسبياً. لقد احتدم التفاوت بين مكاتب الدراسات وخدمات التنظيف من شركة واحدة إلى أخرى. كان المهندسون وأفراد الصيانة بالأمس ينتمون إلى الشركة نفسها، فكانت زيادة رواتب المهندسين تعني ضمناً زيادة في رواتب الآخرين بسبب كونهم وعلى نحو آلي مرتبطين ببعضهم بعضاً بجداول الرواتب نفسها. لم يعد التقسيم الجديد للأفراد إلى عوالم عديدة منفصلة ينتج توزيعا للثروة. لقد تم علمياً حظر «تسرُّب» هذه الثروة الذي أعلن عنه ريغان وتاتشر، منذ بداية الثمانينيات، من خلال هذا التنسيق للتباعد الاجتماعي.

التقوقع على الذات

لقد تغيَّر العالم، إذ إنَّ الشركات ساهمت بقوة في تشكيل المتخيَّل الاجتماعي المعاصر من خلال قصر محيطها على الطبقات الاجتماعية الأكثر تجانساً. لقد حققت بطريقتها الخاصة توقعات مجتمع أفقي حيث أصبحت الألفة هي القاعدة، ولكن ذلك اقتصر على مجموعات محدودة للغاية. المعاملة بالمثل والثقة حاضرتين للغاية، فالشركات تمتلك الآن روحاً، ولكن فقط فيما يتعلق بالعلاقة بين الأقران، إذ لا يوجد اعتبار للمستويات الأخرى من

المجتمع التي أصبحت وكأنها غير موجودة.

أحد المصطلحات التي تُستخدم أحياناً لوصف طريقة عمل المجتمع هذه هو مصطلح «حب المُماثل» (homophilie). فقد استخدمه في عام 1954 بول لازارسفيلد Paul Lazarsfeld وروبرت ميرتون Robert Merton، وهما عالما اجتماع أمريكيان مشهوران، لوصف ميول كل مجموعة اجتماعية إلى التقوقع على ذاتها. وأظهر تحليلهما وجود هذه النزعة في دوائر الصداقة والحي والنوادي الرياضية، على صعيد الأبعاد الاجتماعية الممكنة كافة مثل الأديان والأعمار والمهن ومستويات التعليم. ومع ذلك، فإنَّ مصطلح «حب المماثل» مضلِّل. إنه يعطي الانطباع بأنَّ كل طبقة من المجتمع تطمح للبقاء متقوقعة على ذاتها في حين أن الفصل الاجتماعي في غالب الأحيان هو الذي يجعل كل مجموعة منطوية على نفسها.

إذا كانت الأحياء المعزولة بالمدن ghettos urbains تكتظ بالفقراء، فمن المؤكد أنَّ ذلك لا يعود لرغبة الفقراء في التقوقع على ذواتهم، بل لأنه ليس لديهم خيار آخر. وإذا وجد الأطفال من الفئات الاجتماعية المتميزة أنفسهم في صفوف لا يخالطون فيها سوى أقرانهم، فذلك لأنَّ الاستراتيجية الاجتماعية للوالدين قادتهم إلى ذلك. فقد بيّنت أبحاث بيير أندريه شيابوري Pierre-André Chiappori ، أنَّ الأزواج «متطابقون» بشكل متزايد نظراً للأهمية

المتزايدة التي يوليها الآباء لتعليم الأطفال[135]. وتتزوج النساء المتعلمات من الرجال المتعلمين لزيادة فرص النجاح الأكاديمي لأبنائهم. وهذا لا يترك للنساء اللواتي تلقين تعليماً متوسطاً أيّ خيار سوى الزواج من أزواج من المستوى التعليمي نفسه، وهكذا وصولاً إلى أسفل السلم الاجتماعي. يمكن لمصطلح «**الزواج الاجتماعي الداخلي**» أن يصف العملية الجارية أكثر من مصطلح «**حب المُماثل**».

من المؤكد أن الميل التلقائي للطبقات الاجتماعية للسكن في أحياء معزولة خاصة بها ليس بالأمر الجديد، ولكن ما يزعج هو الوتيرة المتسارعة لهذه الظاهرة. ففي عام 1970، كان اثنان من كل ثلاثة أمريكيين يعيشان في أحياء «طبقة وسطى». وفي عام 2009، أصبح يعيش أقل من اثنين من كل خمسة أشخاص في حي يقترب متوسط دخل سكانه من المعدل المتوسط الوطني. وبصرف النظر عن شبكات التواصل الاجتماعي، فإن انعدام الثقة ينمو على هذه التربة من الفصل العنصري المتزايد في المجتمع.

أظهرت دراسة أجراها ألبرتو أليسينا Alberto Alesina وكاتيا جورافسكايا Katya Zhuravskaya، من خلال بحثهما في الخصومات العرقية داخل البلدان المختلفة، الطريقة التي يؤدي بها الفصل العنصري إلى زيادة انعدام الثقة تجاه الآخرين والمؤسسات

(135) P.-A. Chiappori, « Theory and empirics of the marriage market », *Annual Review of Economics*, 2020.

العامة. لقد ميز المؤلفان نوعين من المواقف. في المجموعة الأولى من البلدان، يتم توزيع التنوع العرقي بالتساوي في جميع أنحاء البلاد: يوجد في كل منطقة نسبة مئوية واحدة من السكان، على سبيل المثال، من النوع الأزرق أو الأحمر. في المجموعة الأخرى من البلدان، نلاحظ تفاوتاً إقليمياً ملحوظاً للغاية، إذ يعيش كل من الزرق والحمر «فيما بينهم»، في مناطق متمايزة للغاية. خلصت هذه الدراسة بشكل لا لبس فيه إلى أن النوع الثاني، حيث يسود الفصل العنصري، يؤدي إلى انعدام ثقة شديد بين المجموعات. فالجميع يعيش في وهم التنافس الذي يمكن أن يتحول إلى حرب أهلية. وكثيراً ما تؤجج الأطراف الوضع وتزيد حدّة الخلاف للاحتفاظ بقواتها.

أظهرت دراسة أجراها بانيرجي Banerjee وباندي Pande أن التصويت العرقي هو أحد أسباب تدني جودة السياسيين الهنود، الأمر الذي ينعكس أيضاً على جودة المؤسسات العامة الفاسدة والمبتلاة بالمحسوبية [136].

(136) علاقة الترابط ليست حجّة كما يقول الإحصائيون. نستطيع أن نتصوّر أن البلدان التي يكون فيها التسامح قوياً هي التي تجعل من الممكن اندماج المجموعات، وأن العزل أو الفصل هو نتيجة لسياسات التمييز العنصري. ومع ذلك، هناك طرق اقتصادية قياسية للتحايل على هذه العقبة. تحقق المؤلفان من أن السببية تسير بالفعل في الاتجاه الصحيح من خلال استغلالهما لحقيقة أن الأقليات التي تعيش بالقرب من الحدود تشبه تلك التي تعيش على الجانب الآخر منها (خارج الحدود). انظر:
A. Banerjee et R. Pande, « Parocchial Politics : Ethnic Preferences and Politician Corruption », CEPR, Discussion Paper, 2007, cité par A. Alesina et K. Zhuravskaya, « Segregation and the quality of government in a

وهكذا يمكن تلخيص المفارقة المركزية للعالم المعاصر على النحو الآتي. يسود «التقوقع الذاتي»، وينفَّذ على نحو وثيق وعدُ الأفقية الذي كان مطلوباً في الستينيات. وبذلك تحتدم التفاوتات، ولم تعد هناك قوة استعادة تربط بين الطبقات الاجتماعية المختلفة كما كانت تفعل الشركات الصناعية الكبرى بالأمس. في مجال العقليات، ثمة حلقة منحرفة تجمع بين انعزال المجتمع وانعدام الثقة العام بالآخرين. وليست شبكات التواصل الاجتماعي هي المسؤولة مباشرة عن انعدام الثقة، بل هو نتيجة لقوى ثقيلة بدأت تفعل فعلها قبل فترة طويلة من ظهور تلك الشبكات. لكن هذه الشبكات هي أبعد من أن تنشئ جسوراً بين المجتمعات، فهي تشكل صدى لانعدام الثقة العامة يصم الآذان، مما يدفع بالعجز عن التواصل بين مختلف الفئات الاجتماعية إلى أقصى مداه.



crosssection of countries », *American Economic Review*, vol. 101, no 5, 2011.

عقلية ما بعد الحداثة

نتج عن هذا التفكك الاجتماعي عقلية جديدة: ثقافة التقوقع على الذات التي تشبه شكلاً من أشكال القبلية الجديدة. ميشيل مافيزولي Michel Maffesoli، عالم الاجتماع الذي يدّعي أنه جزء من تيار «ما بعد الحداثة»، ومؤلف كتاب بعنوان «عصر القبائل» Le Temps des Tribus، قدَّم وصفاً رائعاً لهذه الثقافة. فمن وجهة نظره، «يسعى الشخص للوصول إلى ذات أكبر: ذات القبيلة أو ذات الطبيعة أو ذات التدين». فلم يَعُد هناك وجود للهويات الثابتة التي يُنسب إليها الطفل الصغير، «مثل الهوية الجنسية (رجل أو امرأة) والهويات المهنية، حيث يمارس الشخص مؤهلاً مهنياً طيلة حياته، أو الهويات الأيديولوجية التي تدمج الشخص في استقطاب من النوع السياسي أو الثقافي»[137]. ولعل هناك عقلية تعود إلى النزعة القبلية للصيادين وملتقطي الثمار تحلّ الآن محلّ تصورات موروثة من المجتمع الصناعي الذي ورث بدوره كثيراً من جوانب المجتمعات الزراعية. يجب الحذر من المقارنات السهلة، لكن هذه الصيغ التي يُقصد بها أن تكون استفزازية، مدهشة في تزامنها مع العالم الرقمي في طور التكون.

شهدت نظريات ما بعد الحداثة لحظة تأسيسية عندما نشر جان

---

(137) M. Maffesoli et B. Perrier, *L'Homme postmoderne*, Paris, Les Pérégrines, 2012.

فرانسوا ليوتارد Jean-François Lyotard، عام 1979 كتاباً عنوانه «الوضع ما بعد الحداثي La condition postmoderne . فسَّر ليوتار عصرنا على أنه يشير إلى نهاية الأساطير الكبرى التي تمخضت عن العالم الحديث، مثل الثورة الفرنسية أو المثالية الألمانية أو نهاية الاستعمار أو التحرر الجنسي، حيث أصبح الإنسان العامل البطولي لتحرره». قامت عقلية ما بعد الحداثة على أنقاض «السرديات الكبرى» التي بنَت الحداثة. والزمن الذي يبحث فيه البطل عن الحقيقة فسَحَ المجال للشك والارتياب. تلاشت الشمولية وحلَّ محلها تعدد اللغات العلمية والسياسية والثقافية، حيث أصبح عدم تجانس الخطابات هو القاعدة. أين تكمن شرعية خطاب الحقيقة؟ هل تكمن في التواصل، كما يعتقد الفيلسوف يورغن هابرماس؟ لكنَّ التواصل يفترض أنَّ المشكلة قد لقيت حلاً، أي إنَّ متلقي الحقيقة ومرسلها متفقان على إمكانية وجود إجماع بين عقلين مفكّرين. ولا تكمن شرعية خطاب الحقيقة في العلم، والتقدم الطبي. فالمعرفة نفسها تميل إلى أن تصبح سلعة، إذ إنها لم تَعُد غاية لذاتها، بل لحظة في عملية الإنتاج. ويرى **ليوتار** أنه لاحيلة لنا في ذلك، إذ يجب أن نعقد العزم على الاعتراف بتنوع «المحاججات الفوقية» méta-argumentations.

تناول فريدريك جيمسون Fredric Jameson هذه الموضوعات، ففسَّر ما بعد الحداثة على أنها روحٌ لـ «رأسمالية

متأخرة »[138]. عندما يتشبع المجتمع بالسلع الاستهلاكية، فإنَّ كل ما يتبقى هو «تجميلها»، أي جعل السيارات أو التلفزيونات أكثر أناقة وأكثر «غرابة» للحفاظ على جذوة مشاعر المستهلك. إنَّ الحنين إلى الفترة «البطولية»- حيث كان الوصول إلى سلع جديدة يجسد فكرة التطور- فسح الطريق أمام الرأسمالية المهووسة بالإعلان أكثر من هوسها بالإنتاج. لذا يرى جيمسون أن لحظة ما بعد الحداثة جسّدت تلك المرحلة التي ابتعدت فيها الرأسمالية عن السلع المادية خاصةً لتنتج استيهامات fantasmes فردية وجماعية. نحن نتمتع بقدرتنا على محاكاة مجتمعات بديلة، دون الاضطرار إلى دفع تكلفة تجربتها فعلياً، ففي ما بعد الحداثة، «أصبحت الحقيقة جزءاً من الوهم» على حدّ ما أعلنه غي ديبورد Guy Debord بالفعل في كتابه «مجتمع الفُرجة» La Société du spectacle. وفي هذا العالم الذي اختفت فيه الطبيعة، أصبحت نهاية العالم نفسها «عنصراً زخرفياً»[139].

فسَّر جيمسون ما بعد الحداثة على أنها اللحظة التي تنتصر فيها الثقافة بشكل نهائي على الطبيعة، سواء أكانت طبيعة طبيعية (الغابات، الأنهار، إلخ) أم طبيعة إنسانية. وأوضح أنه في الحداثة، لا تزال هناك بعض المناطق المتبقية من «القديم، والأقدم، والبائد

---

(138) F. Jameson, *Le Postmodernisme ou la logique culturelle du capitalisme tardif*,Paris, ENSBA Éditeur, 2007.

(139) تفسرها بيرين سيمون ناحوم Perrine Simon-Nahum على أنها عدمية جديدة *Les Déraisons. modernes*, Éditions de l'Observatoire, 2021.

الذي عفا عنه الزمن». الحداثة هي الوقت الذي مازالت تتعايش فيه وقائع من فترات تاريخية مختلفة عن بعضها كل الاختلاف. وهكذا فإننا نجد حرفيين صامدين في وسط التكتلات الاحتكارية للصناعة الثقيلة، وحقول للفلاحين مجاورة للمصانع الحديثة. ولقد عبَّر كافكا، على سبيل المثال، عن الفجوة بين العالم الحديث والبيروقراطية الإمبريالية التي عفا عليها الزمن، ففي عصر ما بعد الحداثة، تم التخلّص من مخلَّفات الماضي.

مديح البائد

من الصعب مقاومة الاستنتاج بأن المجتمع الرقمي يجسد عقلية ما بعد الحداثة. إن ظهور عالم ما بعد الحقيقة، والعالم القَبَلي الجديد حيث يقوم كل فرد بتنمية «اللغة الواصفة» métadiscours [140] الخاصة به، يتناسب تماماً مع ما يحدث على شبكات التواصل الاجتماعي. من الصعب أيضاً ألا نشعر بقلق عميق بشأن هذا التغلّب المفترض على الحداثة. كيف نحافظ على التطلع إلى أفقية مجتمع ما بعد الصناعة دون الوقوع في أخطاء عالَم التقوقع على الذات؟

ربما يكون أول شيء يجب القيام به لكسر قوى المجتمع الرافضة

(140) اللغة الواصفة أو "الخطاب على الخطاب" هو مصطلح سردي يقتضي أن يتكلم الراوي عن عملية سرده أي عن الخطاب الذي ينجزه وعن كيفيات صياغته (المترجم)

الخارجة عن المركز هو عدم الإسراع في دفن الأشكال «البائدة» التي أنتجت بالأمس التماسك الاجتماعي، سواء أكانت نقابات أم أحزاب سياسية أم الشركات نفسها. الحفاظ على دور هذه الجهات الفاعلة أو إعادة ابتكار دورها يتطلب القيام بمهام هائلة لن تكفي مجلدات عدة لتعدادها، لكن المسار واضح كل الوضوح: خلافاً للأفكار التي تم تطويرها في الثمانينيات، لا نبالغ في القول إنّ الشركة هي مكان لحياة مشتركة، وإنَّ النقابات ضرورية لتنظيمها، وإنَّ «اقتصاد الأعمال المستقلة» [141] يجب أن يخضع للعدالة الاجتماعية [142]، وإنَّ الحياة الديمقراطية تحتاج إلى أحزاب وتحتاج الحقيقة إلى العلماء!

من نافلة القول إن ذلك لا يُغني عن التفكير في الأدوات التي يمكن أن تقدمها التكنولوجيا الرقمية. بادئ ذي بدء، نتمنى أن يؤثر مجتمع الرقابة المعاصر على الشركات أكثر مما يؤثر على الأفراد [143]. وبالتالي يمكن للمرء أن يتخيَّل تعميم التصنيف البيئي والاجتماعي للشركات وفرض، على سبيل المثال، التصنيف AAA

---

(141) اقتصاد الأعمال المستقلة gig économie: يسمى أيضاً "اقتصاد العمل الحرّ"، و"اقتصاد العربة" و"الاقتصاد التشاركي" وهو الاقتصاد الذي يعتمد على الوظائف المرنة المؤقتة، إذ تفضّل فيه الشركات التعامل مع موظفين مستقلين بدلاً من الاعتماد على موظفين بدوام كامل. تُعرّف الخدمة المستقلة بأنها مهمة محدودة يؤديها المستقلّ Freelancer مقابل مبلغ يتناسب مع حجم الخدمة، ويُسدد في غالب الأحيان باستخدام وسائل الدفع الالكتروني (المترجم).

(142) كانت كاليفورنيا أول من أجبر شركة "أوبر" uber على دمج مقدمي الخدمات فيها كموظفين.

(143) لقد بدأت فكرة التصنيف الاجتماعي للشركات بالفعل، لكنها لا تزال في بدايتها، وقبل كل شيء ليس لها أي تأثير قانوني على حياة الشركات.

الخاص بالجدارة الائتمانية، وذلك للوصول إلى المشتريات العامة [144]. يتطلب تصنيف الجدارة الائتمانية ليس فقط التزام الشركة نفسها بالمعايير المطلوبة، ولكن أيضاً وقبل كل شيء التزام المتعاقدين معها من الباطن بهذه المعايير، الأمر الذي يتطلب بشكل غير مباشر أن يكون هذا هو الحال أيضاً بالنسبة للتعاقد بين **مقاولي الباطن**[145]... وبالتالي لن يكون من الممكن بعد الآن أن نعهد بالمشاكل الاجتماعية إلى جهات خارجية. من الواضح أن هذا ليس سوى جزء صغير من المشكلة، لكنّه يوضح إمكانية وضع قوة المجتمع الرقمي في خدمة التماسك الاجتماعي. وهكذا يمكن أن تنشأ حركة نقابية جديدة تتجاوز الإطار الصارم للحياة داخل الشركة من خلال إيجاد الخيط الذي يربط بين طبقات المجتمع المختلفة. إنَّ العثور على الوسائل اللازمة لإنشاء نموذج شامل جديد يكمن في فهم الجغرافيا الاجتماعية الجديدة بين المجموعات الاجتماعية والشركات والمناطق.

يمكن وضع أفكار مماثلة من أجل وضع حد لما بعد الحقيقة

---

(144) المشتريات العامة commande publique : مصطلح عام يتعلق بجميع العقود المبرمة للنظر فيها من قبل المشتري العمومي أو السلطة المانحة المكلّفة بالخدمة العامة (السلطات المتعاقدة أو الكيانات المتعاقدة)، لتلبية احتياجاتها من حيث الأعمال أو الإمدادات أو الخدمات، مع واحد أو أكثر من المشغلين الاقتصاديين. يمكن أن تتخذ العقود شكل عقود عامة (يتم تمويل الخدمة بالكامل من قبل السلطة العامة) أو امتياز (تفويض نشاط الخدمة العامة حيث يتم الدفع للمدير جزئياً من خلال نشاط الخدمة) (المترجم)

(145) المقاول من الباطن sous-traitant هو الشركة المتعاقد عليها من الباطن. والتعاقد من الباطن هو عملية تجارية تقوم من خلالها الشركة بنقل المسؤولية عن مهامها إلى شركة أخرى متخصصة في هذا النشاط. (المترجم)

postverité .[146] لتعقب الأخبار المزيفة fake news، يجب أن تمتلك وكالات الأنباء المعزَّزة الوسائل اللازمة للمصادقة على المواقع الإخبارية. وبالتالي فإنَّ الموقع سيكون ذا جودة A أو B أو C اعتماداً على المصادر التي يتم تداولها. سيتم إخطار أي مستخدم على الفور. يجب أن نفكر أيضاً في طرق حماية الأفراد من المضايقات الرقمية.

الدعوات إلى الكراهية أو القتل، المنشورة على موقع معين لا بد أن تُحمِّل هذا الموقع مسؤولية ذلك. يجب علينا أيضاً إنشاء حقوق فردية جديدة، على سبيل المثال الحق في النسيان الرقمي [147] الذي من شأنه أن يجعل من الممكن حماية السمعة الرقمية للأشخاص، طالما أنه أمر لا جدال فيه من الناحية القانونية. إن التفكير في الحياة السياسية أمر أساسي بالقدر نفسه. وعلى حدّ تعبير ميشيل أوفرلي، تُختزل الانتخابات الرئاسية الفرنسية الآن إلى «رئيس واحد والإنترنت»، وتقتصر الديمقراطية على منح شيك على بياض كل خمس سنوات لشخص واحد، الأمر الذي أصبح خانقاً تماماً.

---

(146) يعبّر مصطلح "ما بعد الحقيقة" عن الحالة التي يكون فيها تأثير موضوعية الحقائق وصدقها على تكوين الرأي العام أقل من تأثير اللجوء إلى العواطف أو المشاعر أو المعتقدات. وتستخدم عبارة "عصر مابعد الحقيقة "ère post-verité، وفي حالات نادرة عبارة "عصر مابعد الواقعية" ère post-factuelle لوصف تطور التفاعلات بين السياسة والإعلام بسبب صعود الاستخدام الاجتماعي للأنترنت، وخاصة للمدونات ووسائل التواصل الاجتماعي (المترجم)

(147) يسمح هذا الحق للفرد بطلب محو المعلومات المتعلقة به على شبكة الأنترنت. (المترجم)

لا تتأثر جميع البلدان بالطريقة نفسه، فالنظام البرلماني البريطاني، على سبيل المثال، أكثر قوة: إنه يُلزم الحزبين بأن يشكّلا داخلهما التوليفات التي من شانها أن تحشد الأغلبية. من الضروري التفكير بشأن فرنسا حول حدود النظام الرئاسي، لكنَّ المسألة تمتد في الواقع إلى جميع البلدان الديمقراطية. يطالب الناخبون بالأفقية [148] في الحياة السياسية كما في الحياة الاجتماعية. وتوفر لهم التكنولوجيا الرقمية وسيلة للتعبير ولكن ليس طريقة لايصال أصواتهم. وقد عبَّر عن ذلك جيل مونتريه Gilles Mentré على نحو جيد بقوله: «لقد تم إضفاء الطابع الديمقراطي على كل شيء، على الوصول إلى المعرفة وإلى الثقافة... باستثناء الديمقراطية نفسها»[149]. والعلاج في نظره بسيط: «دعونا نصوّت أكثر، ويمكن عكس الدوامة باستخدام جميع الإمكانات التي توفرها قاعدة البيانات المتسلسلة blockchains وغيرها من الطرق التي توفر الموثوقية والسرية». وفي نظره، يجب أن يكون كل شيء مفتوحاً على ميدان التعبير السياسي: يجب أن تَسمح المناقشات العالمية مثل مؤتمر الأطراف COP للمنظمات غير الحكومية بتنظيم المشاورات في الوقت الحقيقي، وفي الطرف الآخر، على المستوى المحلي، ينبغي أن يكون

(148) تتعلق الأفقية بالمواطنين المنظمين في جمعيات أو مجتمعات مختلفة أو حتى منفردة، والذين يصبحون ناخبين. أما العمودية فتتعلق بالسلطات الهرمية للهيئات المؤسسية مثل الحكومات والأحزاب السياسية والمجالس الوطنية أو البرلمانات والهيئات التاسيسية الكبرى والنقابات. وفي القطاع الخاص، المخططات التنظيمية للشركات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة.

(149) G. Mentré, *Démocratie. Rendons le vote aux citoyens*, Paris, Odile Jacob, 2022.

من الممكن تقرير ما إذا كان سيتم تنفيذ هذا المشروع الحضري أو ذاك. ومع ذلك، وبعيداً عن شروط التصويت، تكمن الصعوبة في معرفة ما إذا كان بإمكاننا التعامل مع الموضوعات كلّ على حِدة. هل يمكن أن تكون الهجرة والبيئة وأوروبا موضوعَ تصويتٍ منفصل؟ الديمقراطية ليست مجرّد إجراء محدَّد (أي: تصويت)، ولكنها مساحة تداولية يجب أن تضع في السرد سياسة عامة. وهذا هو السبب في أنَّ الأشكال القديمة للبرلمانات والأحزاب لا يزال أمامها مستقبل مشرق. ومن نافلة القول إنَّ ذلك لا يمنعنا من التفكير في طرق جديدة لاقتحام نقاشاتهم. في المملكة المتحدة، الحق في رفع عريضة من مئة ألف توقيع يجعل من الممكن تنظيم المناقشات في وستمنستر Westminster. يمكن تعميم هذه الطريقة بفضل التصويت الإلكتروني، من خلال الجمع بين تطلع المواطن للتعبير المباشر وحياة المؤسسات المسؤولة عن إنتاج رؤية متماسكة للعمل العام.

مهما كانت العلاجات، فإننا نرى ظهور المفارقة الرئيسة للمجتمع الرقمي. إنه يثير التطلع إلى نقاش مفتوح ولكنه يثبت أنه غير قادر على تنظيم المواجهة الضرورية للأفكار المتناقضة. إنه يبعث الحياة في الرغبة في مجتمع أفقي وعلماني، ولكن من خلال إبقاء كل طبقة اجتماعية داخل صومعتها الخاصة. إن اختفاء الهيئات أو الأحزاب أو النقابات الوسيطة، إذا استمرت في مسارها، من شأنه أن يحرم العالم الرقمي من وسائل بناء مجتمع شامل.

وهكذا لا يمكن أن تصبح الأدوات الرقمية مفيدة إلّا من خلال السعي إلى جعل هذين المطلبين (الأفقية والتماسك) متوافقين بطريقة غير متوقعة تماماً.

انقلبت الحياة السياسية أيضاً رأساً على عقب من خلال عودة مصطلح اعتقدت ما بعد الحداثة أنه عفا عليه الزمن، وهو مصطلح «الطبيعة». نحن نعيش في وقت تتزايد فيه الكوارث البيئية والصحية، ولا يوجد شيء «زخرفي» فيها... بالنسبة للتحدي الداخلي المتمثل في فهم الواقع الاجتماعي، يجب على المجتمع الرقمي أن يتحمَّل مسؤولية بعيدة كلّ البعد عن خياله تتمثل في الحفاظ على الكوكب.

VI.

الشتاء قـادم

أزمات القرن الحادي والعشرين

خلال ربيع عام 2020، رأينا طيور بطّ في الكوميديا الفرنسية Comédie-Française، ونموراً في سانتياغو، وأفيالاً تتجول بحريةٍ في بومباي. وتوقفت باريس ونيويورك ولندن وميلانو عن العمل. قدَّم المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية INSEE وصفاً لشهر أبريل من عام 2020 بقوله: «إن الاقتصاد يؤدي وظائفه الحيوية فقط، مثل كائن حي وُضع تحت التخدير». أغرقنا فيروس الكورونا في أحداث فيلم «أنا أسطورة» Je suis une légende من بطولة ويل سميث أو فيلم «الناجي» Le Survivant من بطولة تشارلتون هيستون. وفي كلتا الحالتين كان البطل هو الناجي الوحيد من أزمة صحية دمرت البشرية.

بالنسبة لعقلية ما بعد الحداثة، كانت الصدمة شديدة. فعالم الأوبئة والحروب موجود إذا وهو عالم حقيقي، يعيش فيه البشر «حقاً» ! لقد تسبَّب فيروس الكورونا في شكوك وجودية كانت المجتمعات الحديثة قد فقدت عادة الحديث عنها في الأماكن العامة: الحياة، والموت، والقلق على الآخرين. لم يكن الأمر يتعلق بتسوية أزمة «تقنية» مثل خلل في الكمبيوتر أو إفلاس بنكي، بل بـ«واقعة اجتماعية كاملة»، على حدّ تعبير مارسيل موسMarcel Mauss.

فقد اختبرَت تماسك المجتمع ككل، واستخدمت مستويات فكرية تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك المستخدمة في الأزمات الماضية. حتى اللغة المستخدمة لوصف الأزمة تطورت باستمرار. إذ تم الحديث عن اقتصاد الحرب ثم عن التضامن. وانقلب تنظيم الأماكن العامة رأسا على عقب، وكان على الدولة أن تتولى مسؤولية الحياة المهنية والأسرية (تقرير إرسال الأطفال إلى المدرسة أم لا). بعد الحجر الصحي الأول، سرعان ما أصبح واضحاً أن إدارة الأزمة تتطلب إنتاجاً مشتركاً للدولة مع جميع الفاعلين الاجتماعيين والأسر والشركات والموظفين الصحيين.

قدمت الكورونا تجربة طبيعية لقياس قوة الروابط التي تربط أفراد المجتمع معاً. لقد ارتبطت المرونة في مواجهة الفيروس ارتباطاً وثيقاً بثقة الناس في مؤسساتهم العامة، سواء أكانت الحكومة أم المجمع العلمي [150]. لعبت الثقة الأفقية (ثقة الأفراد بالآخرين) والثقة العمودية (ثقة المواطنين في السلطات العامة) دوراً حاسماً. كلما كانت الثقة الأفقية أقوى، ضعفت المحظورات القانونية. ففي السويد، حيث بلغت الثقة الشخصية أعلى معدلاتها على مستوى العالم، كانت القيود الحكومية ضئيلة. أما فرنسا، حيث الثقة الأفقية منخفضة، فقد عاشت أول حجر بشكل جيد نسبياً

---

(150) أظهرت دراسة أجراها مجلس التحليل الاقتصادي أن مرونة البلدان في مواجهة الأزمة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بنوعية ثقة الأفراد في مؤسساتهم العامة أو بأخوانهم المواطنين.

Y. Algan et D. Cohen, « Les Français au temps de la Covid : économie et société face au risque sanitaire », Conseil d’analyse économique, no 66.

لسبب مشابه لسبب السويديين: توقع الفرنسيون أن تحميهم الدولة من ضعف الحس الوطني لدى إخوانهم المواطنين. أكّد الحجر الصحي قوة الروابط التي تجمع بين أفراد المجتمع ؛ لقاء الزملاء في العمل والأصدقاء في المقهى أو في المدرسة. تمكن الجميع من قياس مخاطر الحياة المحاصرة في شرنقة العائلة الوحيدة ، إذ حُرِموا من تنوع الخبرات الاجتماعية التي تبني هويتهم [151].

على الرغم من الرغبة في الالتقاء بالآخرين مرة أخرى، فإن العمل عن بُعد أصبح مع ذلك طموحاً عاماً بعد الحجر. وبصرف النظر عن اكتشاف الحلول التقنية التي تم تنفيذها خلال الأزمة، مثل زوم Zoom وبرمجيات اتصال أخرى، فقد استقر في أذهان الناس وجود بديل، وإن كان جزئياً، عن العمل المنتظم. وكما يقول بول كروغمان Paul Krugman، كانت الجائحة فرصة للعديد من الموظفين للتفكير في ظروفهم الشخصية. «أدرك كثير ممن تمكنوا من العمل في المنزل مدى كرههم للتنقل. وأدرك بعض الذين عملوا في الفنادق والمطاعم مدى كرههم لوظائفهم خلال أشهر من البطالة القسرية». وتخلى العديد من الموظفين عن العودة إلى وظائفهم السابقة. وهكذا يتحدث الأمريكيون عن استقالة كبيرة عند توصيف أزمة كورونا. في هذا السياق، ظهر العمل عن بعد لبعضهم على أنه مساحة من الحرية.

---

(151) تفاقم العنف الأسري أثناء الحجر الصحي، وهذا ما يعبر عن الأمراض التي كشفها هذا الحجر.

إنَّ إغراءات المجتمع الرقمي بالعيش بفضل العمل عن بُعد من دون قيود الحياة المهنية العادية، أثبتت أنها الأقوى. كان الفيروس أيضاً مسرحاً لصدام صامت بين بلدين من بلدان العالم المعاصر، وهما الصين والولايات المتحدة. خلال الحجر الصحي الأول، أدت القيم «الكونفوشيوسية»، واحترام القيود الصحية للدول الآسيوية إلى إثارة حسد الدول الغربية غير القادرة على إعداد نظام «الاختبار والعزل وتتبع المخالطين» الذي يعدُّ فعالاً. وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الولايات المتحدة التي يقودها الرئيس ترامب وهو من أتباع ما بعد الحقيقة، فقد سجَّلت معدل وفيات عالية نسبياً. لكن مع اكتشاف اللقاحات، انقلب الوضع. وأصبحت سياسة «صفر كوفيد» الصينية مكلفة للغاية. وشُلت الحركة في شنغهاي تماماً على الرغم من الاحتجاجات العنيفة للسكان الذين أجبروا على البقاء محجورين في منازلهم، بغض النظر عن مدى صعوبة إطعام أنفسهم. وفي ذروة الديستوبيا الرقمية التي شوهدت في الصين، تم وضع كلاب آلية لفرض حظر التجول. وهكذا يمكن لأميركا ترامب التباهي، لأن اللقاحات نظمت الفوضى التي أحدثها. فسادت قيم الابتكار التي اجترحها جوزيف شومبيتر [152] على قيم كونفوشيوس.

---

(152) يرى الاقتصادي وعالم الاجتماع الأمريكي "جوزيف شومبيتر" أن المُبتكر يصنع ما يمكن تسميته بـ"التدمير الخلاق"، لأن الابتكار يتسبب في أن تصبح أنماط التفكير، والتقنيات، والأنظمة بالية. واعتبر "شومبيتر" أيضاً أن هذا "التدمير الخلاق" ينتج تقدما مستمراً من خلال تحسين مستويات المعيشة للمجتمع ككل. وعندما أعلنت منظمة الصحة العالمية "كوفيد-19" جائحة عالمية، توجهت الأنظار للمجال الرقمي كبديل للنمط التقليدي في مباشرة الأعمال. وفي أكثر بقليل من شهر، تحول

ومع ذلك، كان على الغرب أن يواجه عدواً داخلياً: المناهضين للقاح. لقد بنى هؤلاء حتى قبل الأزمة الصحية، عالماً منفصلاً، تُغذّيه الأخبار المزيفة مثل تلك التي أقامت علاقة بين التوحد عند الأطفال ولقاح MMR (وهو لقاح مدمج ضد أربعة أمراض: الحصبة Measles والنكاف Mumps والحصبة الألمانية Rubella)، وتمّ دحض هذه الفكرة بوضوح من قبل المجتمع العلمي. أما مؤلف المقال الذي ادعى أنه أثبت ذلك فقد طُردَ من نقابة الأطباء البريطانيين ومُنعَ من مزاولة المهنة. لكنَّ هذا لم يمنع الأخبار الكاذبة من الانتشار على نطاق واسع على شبكات التواصل الاجتماعي.

إلى أي مدى يمكنك إنكار الواقع باسم تخيلاتك؟ لقد كانت كورونا اختباراً حقيقياً لقوة مبدأ الواقع في عالم ما بعد الحقيقة. الاختلافات كبيرة في الحقيقة بين المراهق الذي يخاف من الحقن وبين أنصار ترامب الذين يتحدّون مبدأ تنظيم الدولة ذاته، مروراً بلاعب التنس نوفاك ديوكوفيتش الذي تربطه علاقة صوفية بجسده. لقد كان «الترامبيون» هم الأكثر صخباً، مما جعل رفض التطعيم قضية سياسية.

يفسر الاستقطاب الأمريكي سبب تخلف هذا البلد عن البلدان

المستهلكون من العيش في عالم البيع المباشر إلى حد كبير إلى عالم يغلب عليه الطابع الرقمي.(المترجم)

الغنية الأخرى، وهو الذي بدأ برنامج التطعيم بكل قوة في أوائل عام 2021، مع انتخاب بايدن. أظهرت دراسة أجريت في فرنسا أن البلدات الأقل تحصيناً ضد الفيروس كانت تلك التي شهدت أقل مشاركة سياسية (مع مراعاة الخصائص الأخرى لهذه البلدات، وخاصة العمر أو الكثافة السكانية). إنَّ رفض اللقاحات هو في الواقع أقرب إلى التخلي العام عن الحياة في المدينة. كما اتّسمت فرنسا خلال المرحلة الأولى من الأزمة بانخفاض حادّ في منسوب الثقة بالأوساط العلمية [153]. تمَّ الحط من قيمة كلام الخبراء وفُهِمَ ترددهم في مواجهة تطورات الازمة على أنه علامة ضعف [154]. وبحسب الاستطلاعات التي أجريت في بداية عام 2021، فإنَّ أكثر من 45٪ من الفرنسيين رفضوا التطعيم، وهو رقم يمكن مقارنته مبدئياً بالرقم في الولايات المتحدة. ومع ذلك، تمكنت فرنسا من التغلب على إعاقتها المتمثلة في مناهضة التطعيم بعد تنفيذ الجواز الصحي الذي يثبت تلقي اللقاح في يوليو عام 2021 خاصة. وتشير دراسة رائعة أجراها ماتياس ديواتريبونت، مع ذلك، إلى أنه تم ملاحظة الديناميكية نفسها في إسبانيا، حيث رفضت المحاكم الجواز الصحي [155].

---

(153) Y. Algan, D. Cohen, M. Foucault et S. Stancheva, « Trust in scientists in times of pandemic », Proceedings of the National Academy of Science, 2021.

(154) من الصعب الاعتراف بوجود فرق بين البحث العلمي المفتوح دائمًا وإنجازات النظريات العلمية (الجاذبية ، الميكروبات).

(155) M. Dewatripont, « Vaccination in the midst of an epidemic », ruxelles, CEPR,2021.

كانت البرتغال بالفعل صاحبة أفضل أداء في الفئة الأوروبية، في حين كانت إيطاليا مطابقة لفرنسا. على العكس من ذلك، فإنَّ البلدين اللذين اشتهرا باحترام النظام العام ، وهما ألمانيا أو هولندا، قد تخلفا منذ فترة طويلة عن بلدان جنوب أوروبا. كانت رضة الصدمة الصحية الأولية في الواقع الدافع الرئيس للتلقيح، وهي دليل على أن الواقع يؤثر بالفعل في الضمائر، على الأقل عندما يكون هناك خيارٌ للخروج. و بالنظر إلى التحديات المناخية المستقبلية، فالمشكلة هي أن هذا التأثير لا يحصل إلا بعد حدوث الأزمة، وليس بشكل استباقي أبداً.

عصر الكوارث

«أنقذنا يا رب من الجوع والحرب والوباء»[156]. لقد كان لهذه الصلاة التي تعود للقرن الرابع عشر صدى غريب لدى معاصرينا، وبالكاد خرج الأوروبيون من هذا الطاعون الحديث (أعني الكورونا) حتى دخلوا مع أوكرانيا في الحرب والجوع (القمح والنفط والغاز).

في العصور الوسطى، دمرت أزمة القرن الرابع عشر النظام الإقطاعي، وكان من الممكن أن يظهر عصر النهضة بعد ذلك. ويود لسان حالنا القول إنَّ الأزمات تسرّع من مسيرة التاريخ،

---

(156) صلاة تعود للقرن الرابع عشر . باللاتينية : *A fame, bello et peste, libera nos Domine* (المترجم)

وإن فيروس كورونا أتاح اكتشاف لقاحات ثورية، وإنَّ الحرب في أوكرانيا ستثبت عدم جدوى الحروب في القرن الحادي والعشرين. لكن كيف نتأكد من ذلك؟

الحرب في أوكرانيا هي نموذج لهذه الكوارث التي لا نريد أن نراها والتي تَظهر، بأثر رجعي، على أنها حتمية. تُشير الطريقة التي تم بها إنكار إمكانية الحرب ذاتها إلى أن معتقداتنا ليست طريقة لفهم العالم، بل لاختلاقه.

كان الأوروبيون يؤمنون بالسلام ليس بشكل موضوعي، بل للحفاظ على سباتهم. قال هنري بيرجسون Henri Bergson الذي ذكره جان بيير دوبوي Jean-Pierre Dupuy في كتابه «من أجل كارثة مستنيرة»، الشيء نفسه بالضبط عن الحرب العالمية الأولى. لقد كانت، بحسب برغسون، «محتملة ومستحيلة» في آنٍ معاً. في الواقع، لا يمكننا أن نعبّر بشكل أفضل من ذلك عن الأزمة الأوكرانية، إذ لا أحد يرغب في تصديق هذه الأزمة، في حين أنها تتطور على مرأى من المجتمع الدولي. فاحتشاد الجنود الروس على الحدود لا يعني شيئاً ! والتحذيرات الأمريكية لم تلق ترحيباً ! ثم حلت الكارثة. كل شيء أصبح واضحاً. المنطق نفسه الذي جعل الحرب غير محتملة هو الذي جعلها لا مفر منها بعد ذلك ...ومع ذلك، لم تسير الحرب كما هو مُخطَّطٌ لها.

فاجأنا بوتين بغزو أوكرانيا، لكنَّ الشعب الأوكراني فاجأنا أيضاً بعدم تسليم أسلحته، وبسالته مما جعل من المستحيل تردُّد المجتمع

الدولي في تقديم الدعم له. إنَّ تلك «الذرة من الرمل» التي تمثلها البطولة الأوكرانية غيرت ديناميكيات الأحداث. هذا هو الدرس في الشجاعة الذي يجب أن يُلهم العالم في مواجهة الكوارث المُعلنة والتي نرفض أن نواجهها.

الساعة المناخية

إن الكارثة الكبرى في القرن الحادي والعشرين، المتوقعة، والواضحة، والتي لا يمكن مع ذلك السيطرة عليها، هي الصدمة المناخية. لقد حذَّر الخبراء من تلك الكارثة إلَّا أنَّ ذلك لم يكن كافياً للتصرف واتخاذ الاجراءات حيالها. تطلَّب الأمر ازدياد فصول الصيف الحارقة، والحرائق الخطيرة، وصور الدببة القطبية التي تبحث عن طوفٍ جليدي، حتى يُؤخَذ التهديد المناخي على محمل الجد، فحتى يقتنع البشر بالتصرف، لا بد لهم أولاً أن «يشعروا» بالأشياء ليقرروا التصرف، ويتعرضوا لخطرٍ قد يدفع بهم إلى شفير الكارثة.

وفي غضون ذلك، يملأ ثاني أكسيد الكربون الغلاف الجوي كما يملأ الماء حوض الاستحمام، فلا يهم ما إذا كان قد انبعث هذا الغاز قبل قرنٍ أو قبل عشرة أيام، ما يهمّ المناخ هو الكمية الإجمالية التي تراكمت مع مرور الزمن. تلتقط الغابات والمحيطات جزءاً (صغيراً) مما ينبعث، ولكن على الرغم من هذه التسريبات، فإنَّ حوض الاستحمام المناخي يمتلئ بشكل لا يقاوم، وسيأتي وقت يفيض فيه. وفقاً لتقديرات الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ، تمَّ بالفعل استهلاك 85٪ من رصيدنا من انبعاثات الكربون، ولقياس السرعة التي يمتلئ بها، نشير إلى أنه تم

إنبعاث كمية من ثاني أكسيد الكربون تقريباً منذ عام 1990 (40٪ من الإجمالي) تعادل الكمية التي تم انبعاثها بين عامي 1850 و1989![157]. وبحسب تقرير الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ الصادر في أبريل عام 2022، فإنَّ حوض الاستحمام سوف يفيض إذا فشلنا في عكس الاتجاه قبل عام 2025! سنتعرّض عندئذٍ وبشكل غير قابل للإصلاح لاحتباس حراري يفوق 1.5 درجة مئوية. إنَّ الارتفاع في درجات الحرارة يزيد بالفعل 1.09 درجة مئوية عن قيم ما قبل العصر الصناعي، وهذا ما يتضح من موجات الحرارة الشديدة كل صيف، وزيادة حرائق الغابات، وهطول الأمطار، وارتفاع مستوى سطح البحر[158].

تحذّر الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ في تقاريرها المتلاحقة من المخاطر التي يشكلها الاحتباس الحراري على الحياة على الأرض، فتزايد التصحر، وندرة المياه المتاحة، إلى جانب خطر حدوث فيضانات جديدة هي الآفات التي تلوح في الأفق. يعيش

---

(157) أطلقت أوروبا وأمريكا الشمالية بشكل تراكمي منذ عام 1850 39٪ من الإجمالي، وآسيا 20٪ وأفريقيا 7٪.

(158) إن انبعاثات غازات الاحتباس الحراري أعلى بنسبة 54٪ مما كانت عليه في عام 1990. وقد تباطأ معدل نموها بالتأكيد ، من 2٪ في 2000-2009 إلى 1.3٪ في 2010-2019، بينما انخفضت كثافة طاقة النمو (ثاني أكسيد الكربون / الناتج المحلي الإجمالي) بنسبة 2٪ سنوياً. تدعو الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ GIEC إلى بذل جهد لخفض الانبعاثات إلى النصف بحلول عام 2030. ويجب أن يبلغ التلوث ذروته بحلول عام 2025 على أبعد تقدير، ويجب أن تنخفض الانبعاثات بعد ذلك إلى الصفر بحلول عام 2050 على أبعد تقدير لتبقى أقل من 1.5 درجة مئوية. بالنسبة إلى 2 درجة مئوية، يجب الوصول إلى هذا الهدف في عام 2070.

ما بين 3.3 و 3.6 مليار شخص في بيئة معرَّضة للاحتباس الحراري، ونصف الكائنات المتعقَّبة تتحرك شمالاً، أو تتسلق ارتفاعاً هرباً من الحرارة، مما يؤدي إلى ظهور الأمراض المعدية في مناطق مثل المرتفعات الأفريقية التي كان المناخ المعتدل يقيها من تلك الأمراض. كما سيتأثر جنوب أوروبا بشكل خاص، إذ يمكن أن يتعرض أكثر من ثلث السكان للتهديد من جراء أزمات المياه. في فرنسا، قد يتعرض الجنوب لدرجات حرارة قصوى خلال الصيف تزيد عن 35 درجة مئوية لمدة 20 إلى 30 يوماً، وسيتكاثر بعوض النمر هناك..

حتى لو افترضنا أنَّ الحكومات ستنفّذ بالفعل الإجراءات التي أعلنت عنها، فإنَّ الاحتباس الحراري يمكن أن يصل إلى 2.8 درجة مئوية قبل نهاية القرن. قدمت الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ في تقريرها الصادر في أبريل 2022 قائمة بالتدابير التي يجب اتخاذها لتجنب الكارثة، إذ يجب علينا تحويل أنموذج الطاقة بشكل عاجل، والتحول إلى الطاقات المتجددة [159]. ويجب علينا تغيير عاداتنا الغذائية بشكل جذري، وإعطاء مساحة أكبر لاستهلاك الخضار، وتغيير وسائل النقل لدينا عبر إعطاء الأفضلية

---

(159) انخفضت تكلفة هذه بالفعل كثيراً، وانخفضت تكلفة الطاقة الشمسية بنسبة 85٪، والرياح بنسبة 55٪، وبطاريات الليثيوم بنسبة 85٪. من الواضح أن هناك نقصاً في الأساليب الفعالة لتخزينها، ويجب مضاعفة الأبحاث حول الهيدروجين والبطاريات المبتكرة.

للقطار، وإعادة التفكير في تنظيم المساحة [160].

ولعل التحوّل يتطلب أيضاً التفكير المتعمق في التفاوتات العالمية في المقام الأول. العشرة بالمئة الأكثر غنى (10٪) تُطلِق لوحدها نسبة 40٪ من ثاني أكسيد الكربون العالمي، يأتي ثلثاها من البلدان الغنية. الخمسون بالمئة الأكثر فقراً (50٪) يطلقون 13٪ فقط من الانبعاثا، فالأفغاني على سبيل المثال يُطلق طناً واحداً كل عام، أما الفرنسي فيطلق ما يقارب من عشرة أضعاف ذلك.

الانهيار

ما الذي يمنع البشر من التصرف؟ الكتاب المرجعي لفهم منطق الإنكار والاستغراب في مواجهة الأزمات البيئية هو كتاب «الانهيار» Effondrement للكاتب جاريد دايموند Jared Diamond. وَصفَ هذا الكاتب ذو الفضول النهم بدقة الطريقة التي انهارت فيها حضارات عديدة، مثل جزيرة إيستر، والمايا، والفايكنج ...في ظل الأزمات البيئية التي لم يتمكنوا من وقفها. لقد مزقتهم تناحراتهم الداخلية، وعدم قدرتهم على الاعتراف بعيوب حضاراتهم.

يصوّر مسلسل «لعبة العروش» Game of Thrones هذا الخطر

---

(160) في عام 2019، جاء 34٪ من صافي الانبعاثات من قطاع الطاقة، و 24٪ من الصناعة و 23٪ من الزراعة (بالمعنى الواسع) ، و 15٪ من النقل و 6٪ من المباني. إذا كانت الطاقة تُنسب إلى مستخدميها، فإن 34٪ من صافي الانبعاثات تأتي من الصناعة، و 16٪ من المباني ، مع انخفاض قطاع الطاقة نفسه إلى 12٪.

المروع تصويراً رائعاً. لقد حقق هذا المسلسل واحداً من أكبر النجاحات في عالم المسلسلات الجديد، وتتردد عبارة « الشتاء قادم» Winter is coming المعروفة في مختلف حلقات المسلسل. الشتاء المقبل ليس مجرد موسم آخر، بل هو عصر جليدي صغير، استعارة مقلوبة لمخاطر المناخ. وقد جعل المسلسل هذا التهديد محسوساً، إن جاز لنا استخدام هذا التعبير، من خلال حقيقة أن الشتاء تسبَّب في إيقاظ جيش من الأحياء الموتى، هم «السائرون البيض» Whitewalkers الذين جاؤوا من القطب الشمالي، واستعدوا لغزو المملكة ! وكما هو الحال في القصة الحقيقية لجزيرة إيستر، فإنَّ التنافس على العرش يترك أمراء الحرب غير مدركين تماماً للمخاطر التي تنتظرهم، ويثابر كل منهم على عناده للاستيلاء على السلطة. الشخصيات الرئيسة في المسلسل سواء أكانت سوية أم منحرفة، تُقتل تباعاً الواحدة تلو الأخرى بوتيرة لا تترك أيّ أمل في نهاية سعيدة أخيرة !

البطل، جون سنو Jon Snow يتقمّص دور المسيح، إذ قُتِلَ ثم بُعِثَ من الموت ليقوم «بمهمته». في الحلقة الأخيرة، التي تختتم ثماني سنوات طال فيها انتظار المشاهدين وعيلَ صبرهم، اضطر للذهاب إلى المنفى في القطب الشمالي الذي أصبح صالحاً للسكن مرة أخرى، فوجد الحرية الحقيقية هناك. تشير هذه القصة تماماً إلى مصدر الشر، فالتنافس بين البشر هو الذي يصرفهم عن إدراك الخطر. كان سكان جزيرة إيستر بحاجة إلى ممثل على غرار **جون سنو** قادر على تقديم

نفسه كضحية لتنبيههم إلى المخاطر المروعة التي تهددهم. ولكن هل يكفي أن ينبِّه البشر إلى الخطر من أعلى صليبه لإبعادهم عن مسارهم المميت؟ لقد تمخض هذا السؤال عن نوع أدبي جديد وهو علم الانهيار[161].

علم الانهيار

صدر كتاب عنوانه «**كيف يمكن أن ينهار كل شيء**» حقق نجاحاً باهراً. ويُعدّ بمنزلة دليل صغير، وبيان نظري [162] لعلم الانهيار مخصص للأجيال الحديثة.

تناول المؤلفون التحليل الأولي الذي أجراه فريق من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في عام 1972، والذي يتمثّل في «تقرير

---

(161) تتألف في العالم - وفي فرنسا خاصة- جماعات تطلق صرخة محذرة بقرب نهاية العالم، وتتبنى ما يسمّى بعلم الانهيار Collapsologie، ولعلَّ أهم يمثّل هذه الحركة الثلاثي "بابلو سيرفين" و"رافائيل ستيفن" و"غوتييه شابل" ، هؤلاء الفلاسفة الذين تركزت حولهم الأضواء بمناسبة صدور كتابهم المشترك الموسوم " نهاية أخرى للعالم حتماً ممكنة" Une autre fin du monde est possible. واجتمع هذا الثلاثي وشكلوا جمعية Greenloop تبشر بفلسفة جديدة للتعايش مع البيئة بهدف حمايتها، كما نشط هذا الثلاثي في تنظيم المحاضرات في أرجاء فرنسا مبشرين بنظرية الانهيار أو بنهاية العالم، وربما بنشوء عالم جديد محفوف بالمخاطر والكوارث. ورفعت الجماعة شعار "عش الانهيار ولا تحاول الصمود فقط والسعي للبقاء"، وأكدت أنَّ هناك خياراً يواجه أجيال اليوم ، فإما أن ينتظروا لتحمل وطأة العنف الناجم عن الكوارث التي ستاتي، وإما أن يبادروا الآن لتجنب بعض تلك الكوارث من خلال أخذ منعطف جديد لوضع حدّ للتطور الصناعي المُستهلك للأرض، لأن المستقبل يفوق تخيلنا في سواده وعلينا أن نستعد لعصر من الفوضى والدمار. (المترجم)

(162) P. Servigne, R. Stevens, *Comment tout peut s'effondrer. Petit manuel decollapsologie à l'usage des générations récentes*, Paris, Le Seuil, 2015.

ميدوز» rapport Meadows وعملوا على تحديثه، حيث تمّت ترجمة هذا التقرير بسرعة إلى العديد من اللغات، وقد أعلن هذا التقرير أنَّ استنفاد الموارد غير المتجددة من شأنه أن يجبر المجتمعات الصناعية على إجراء تصحيح قوي لمسارها. يقدّم كتاب معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا تحليلاً شاملاً لأثر الإنسان المتزايد على التربة والمياه والغابات. كما أنه يدين بجزء كبير من نجاحه إلى كونه أعلن النهاية المتوقعة للوقود الأحفوري، الأمر الذي جعله نذير صدمات النفط في السبعينيات. لكن كما نكتشف اليوم، ليست ندرة الوقود الأحفوري هي التي تثير مشكلة، بل في الواقع عكس ذلك تماماً، أي وفرتها! إنَّ فائضها هو الذي يعرّض النظام البيئي الأرضي للخطر. إذا قررنا استخدام جميع اكتشافات النفط، فإننا سنطلق 25 مرة أكثر مما يسمح به رصيدنا من انبعاثات الكربون.

ومع ذلك، وكما أظهر سيرفيني Servigne وستيفنز Stevens، فإنَّ الرسالة المركزية لتقرير ميدوز تظل موضوعية بشكل كبير في جميع القضايا الأخرى التي يعالجها. بادئ ذي بدء، ذكّرنا سيرفيني وستيفنز بسعينا المحموم لإنفاق الطاقة، فخلال القرن العشرين وحده ازداد استهلاك الطاقة على مستوى الكوكب عشرة أضعاف، وازداد استخراج المواد الصناعية بمقدار سبعة وعشرين ضعفاً، وازداد استخراج مواد البناء بمقدار أربعة وثلاثين ضعفاً. ولعل مصائب أخرى قد تنشأ مع ارتفاع مستوى سطح البحر. فدولة

بنغلاديش هي واحدة من الدول التي يمكن أن يأتي منها أكبر عدد من لاجئي المناخ، إذ إنَّ الثلث الجنوبي من البلاد يمكن أن يغرق تحت الأمواج. والدلتات الكبرى من العالم في مصر وفي فيتنام أو غرب إفريقيا معرضة للخطر أيضاً. هل تستطيع المجتمعات الحديثة أن تقف على حافة الهاوية؟

يقول جورج باتاي في كتابه «**النصيب الملعون**» La Part maudite، تميل المجتمعات دائماً إلى تجاوز حدود إمكانياتها. في الواقع، إنَّ الحضارات التي تمكنت من وضع حدّ ذاتي لنفسها من أجل تجنب الانهيار نادرة جداً. المثال الذي قدمه **دياموند** هو مثال جزيرة تيكوبيا الصغيرة في المحيط الهادئ، حيث عاش السكان لمدة 3000 عام في إطار إمكانياتهم الحراجية. إن ذلك لا يبعث على الاطمئنان.. قدَّم سيرفيني وستيفنز لائحة طويلة من الأسباب التي تفسر الإنكار العام للأزمات البيئية، سواء في الأمس أم اليوم. إنه لأمر مزعج أن نلاحظ أنَّ القوى الشعورية المؤثرة هي بالضبط تلك التي تحفزها شبكات التواصل الاجتماعي!

السبب الأول لذلك يعود إلى أن «النظام 1» [163] بحسب كانيمان يهيمن على تفكيرنا، فأدمغتنا تجيد التعامل مع المشكلات الفورية بصورة كبيرة، ولا ترتاح للتفكير البعيد المدى. وقد قام دان

---

(163) سبق ورأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن النظام 1 عند كانيمان هو النظام السريع ؛ خلافاً للنظام 2 الذي يبذل جهداً في تقويم الحجج، للتحقق من البراهين. يعتمد النظام 1 على الاختصارات التي تحول المشكلة المعقدة إلى مشكلة بسيطة (المترجم)

جيلبرت، عالم النفس بجامعة هارفارد، بتلخيص الأمر بشكل ساخر: «يقول العديد من دعاة حماية البيئة إنَّ تغير المناخ يحدث بسرعة كبيرة. في الحقيقة أنه بطيء للغاية، فهو لا يصل بالسرعة الكافية لجذب انتباهنا ! ».

التفسير الثاني القريب من التفسير السابق هو ما يسمى بتأثير التعوُّد.

نحن نعتاد على كل شيء، حتى على الظروف المعيشية المتدهورة، طالما أن وتيرتها بطيئة، مثلنا كمثل الضفدع الذي يقفز من الماء عندما يوضع في وعاء ماء مغلي، ولكنه عند تسخين الماء تدريجياً، يصرّ على أقلمة نفسه إلى حدّ يفقده الطاقة اللازمة لإنقاذ حياته. هذا هو التفسير الذي قدمه **دياموند** لشرح سلوك الشخص الذي قطع آخر شجرة في جزيرة إيستر. إنَّ الوعي بارتكاب فعل لا يمكن إصلاحه يخيم عليه التعود على الكوارث السابقة.

التفسير الثالث هو قوة تأثير الأساطير علينا. فالتقدم الذي يسكن الحضارة الغربية يجعلها تعتقد أنه سيكون هناك دائماً حلّ تقني لإنقاذ البشر. والاكتشاف السريع للقاحات ضد فيروس كورونا لا يمكن إلا أن يعلّل النفس بهذا الرجاء. فنحن نرفع أذرعنا إلى سماء العلم والتكنولوجيا بغية إنقاذنا من الشر، مثل ترامب الذي لعب دور منقذ أمريكا من الوباء واعداً إياهم باكتشاف لقاح سريع.

التفسير الرابع الذي قدمه سيرفيني وستيفنز يحلّل الإنكار بوصفه

عاطفة تنظيمية، وهي عملية مفيدة تحمينا من «المعلومات السامة». فنحن نعلم جميعاً أننا سنموت، لكننا لا نريد التفكير في هذا الأمر كلّ صباح. أما التفسير الأخير للإنكار المناخي الذي ركز عليه سيرفيني وستيفنز هو الحاجة إلى الإيمان بحلّ بديل، فمواجهة تهديد معيّن تتطلّب من دون شك إعلامَ الناس بشكل صحيح، لكن يجب عليهم أيضاً وقبل كل شيء أن يؤمنوا بإمكانية التخلّص منه. هذه هي نظرية «التفكير الجماعي» groupthink التي طوَّرها رولان بينابو. فالإعلان عن الكارثة لا يكفي، عليك أن تؤمن بإمكانية وجود عالم آخر يستحق أن تأخذه على محمل الجد.

نظرية الكوارثية المستنيرة

كتب جان بيير دوبوي Jean-Pierre Dupuy كتاباً عنوانه «من أجل كوارثية مستنيرة»، يستشرف بشكل رائع دور الانهيار ومخاطره على النفس المعاصرة. وأوضح أنه يجب علينا أن نصدق حقاً الكارثة إذا أردنا تجنبها. من الواضح أن الصعوبة الفلسفية تكمن في فهم كيفية تصديق شيء لا مفرَّ منه إذا كان الهدف هو الرغبة في منع وقوعه. تكمن حذاقة هذا الكتاب في أنه يقودنا إلى فهم الغرض من هذا التناقض. لتوضيح ذلك، اقتبس دوبوي كلمات هنري بيرغسون الذي بدت له الحرب في الوقت نفسه «محتملة ومستحيلة: فكرة معقدة ومتناقضة استمرت حتى التاريخ القاتل». وعلى صعيد آخر، تحدث الخبير الاقتصادي نورييل روبيني

عن «البجعة البيضاء» Nouriel Roubini لفهم بداية الأزمات المالية، متبنياً وجهة نظر معاكسة لنظرية «البجعة السوداء» الشهيرة التي وضعها نسيم نقولا الطيب Nassim Nicholas Taieb .

يرى الطيب أنَّ الأزمة تندلع بظهور ما يصفه بالبجعة السوداء، أي الحدث الذي يبدو للوهلة الأولى مستحيلاً، ويجعل المستثمرين يفهمون أن نظرياتهم خاطئة. أما روبيني فهو يرى بأن العكس هو الصحيح ؛ غالباً ما تكون علامات التحذير من الأزمات المالية واضحة جداً، لكننا نرفض رؤيتها. كتب إيف سيتون Yves Citton وجاكوبو راسمي Jacopo Rasmi كتابًا حيوياً حول علم الانهيار، أكدا فيه على أوجه غموض الكارثية [164]. المصطلح الأكثر دقة في نظرهم لتوصيف العملية الجارية هو مصطلح «التآكل»، مثل بناء سكني رخيص HLM يتدهور بشكل لا يقاوم عندما يتقشر الطلاء، ويتعطل المصعد. الخطر الكبير الذي يثقل كاهل حضارتنا المادية لا يكمن في زوالها بين عشية وضحاها، بل في دفعنا نحو ظروف معيشية أكثر صعوبة، تتعذر معها إعادة الأمور إلى ما كنت عليه، باستثناء الأغنياء الذين استقروا في الشمال، في حين أن السكان الأشد فقراً، القاطنين في الضواحي التي تخيم

---

(164) Y. Citton et J. Rasmi, *Générations collapsonautes*, Paris, Le Seuil, 2020.

عاد دوبوي نفسه إلى الاستخدامات المسيئة للكارثة في كتابه الذي يحمل عنوان "الكارثة أو الحياة" :

La Catastrophe ou la vie, Paris, Le Seuil, 2021.

عليها الأزمة، فقدوا كل شيء. «مجتمعاتنا تنهار: هذا بلا شك أقل إثارة للإعجاب، وأكثر تفاهة بكثير من الإعلان عن عملية نهبٍ لسوبر ماركت تلوح في أفق العقد المقبل».

المسألة الأساسية تكمن قبل كل شيء في إظهار سبب أن فكرة الانهيار لا تفضي إلى اتخاذ أي إجراء. فنحن لا نمنع الكارثة، نحن نستعد لها. إنها تؤدي إلى ممارسة البقاء على قيد الحياة: ممارسة **البقائية**(165).

ويصبح الانهيار، على نحو مفارق، مرغوباً بالنسبة لأولئك الذين يصرحون به، وكأنهم يبشرون بالأزمنة **الميسحانية** (166). لهذا السبب غالباً ما ينزعج علماء الانهيار من الوعد بوجود حلول يمكن أن تحبط الأزمة المعلنة. تعد الكارثية أيضاً وعلى طريقتها الخاصة جزءاً من ما بعد الحداثة. يقول مفكرو ما بعد الحداثة إن كل شيء ثقافة. للتفكير في الخطر المروّع، يجب علينا إذن أن نعترف بإمكانية

(165) البقائية survivalisme : البقائية هي حركة أمريكية بالدرجة الأولى تتكوّن من أفراد أو مجموعات يطلق عليهم اسم (البقائيون) ينشطون في الإعداد للحالات الطارئة، يتضمن ذلك الاضطرابات التي تحدث اختلال في النظام الاجتماعي أو السياسي تدريجيا من المحلية إلى العالمية.. يتدرب البقائيون غالبا على اكتساب مهارات التداوي الطبي في الحالات الطارئة، وتمارين الدفاع عن النفس، وتخزين الأكل والماء، والإعداد ليكونوا مكتفين ذاتياً، وبناء منشآت (معازل أو ملاجئ تحت الأرض) التي يمكن أن تساعدهم في النجاة من الكوارث. تاريخ استعمال مصطلح بقائي بدأ من عام 1976م (المترجم)

(166) الميسيانية أو المسيحانية messianisme هي الإيمان بالمسيح المُنتظر والمنقذ والمخلّص الذي سيأتي في آخر العالم ليخلّص شعبه إسرائيل من الخطيئة ويؤسس ملكوت الله على الأرض (المترجم)

زوال الحضارة، لا بل أن نرغب في ذلك أيضاً، وأيّ عمل من داخلها لا طائل من ورائه في نظرهم.

مجتمع الإدمان

تمت مقارنة جهود التخلص من ثاني أكسيد الكربون أحياناً بمكافحة التدخين، سواء من حيث صعوبة الإقلاع الشخصي عنه أو بسبب أعمال الإنكار التي تنظمها جماعات الضغط (اللوبيات). لقد أثبتت الدراسات، بدون أي مجال للشك العلمي، أنَّ السجائر كانت سبباً مباشراً لسرطان الرئة، إلاَّ أن ذلك لم يجعل السجائر تزول. وبالمثل، نحن نعلم الآن أن شركات النفط كانت تدرك جيداً منذ الستينيات مخاطر المناخ المرتبطة بالوقود الأحفوري. لكن الإدمان ليس فقط نتيجة للعَرض المتاح، بل إنه استجابة أيضاً للطلب. فالالتزام بتعاطي مادة تؤدي للإدمان يتم جزئياً بسبب عيوبها التي تشمل الإدمان، وليس على الرغم من تلك العيوب.

أن تكون «مدمناً» على مادة أو مسلسل تلفزيوني يعني التخلص من عبء المشاكل الوجودية («من أنا؟»)، إذ يؤدي الخطر الذي نتعرَّض له إلى تحويل انتباهنا عن المشاكل التي تزهق أرواحنا. وقد قدَّم كريستيان بن لاخضر Christian Ben Lakhdar تحليلاً قال فيه: إن مجتمع الإدمان المعاصر هو مزيج من مكونات عدة تتخلل جميع الطبقات الاجتماعية [167]. أولاً، هناك ضعف في الروابط الاجتماعية، مما يؤدي إلى فقدان السيطرة على النفس عندما لا يؤدي

(167) . Ben Lakhdar, *Addicts. Les drogues et nous*, Paris, Le Seuil, 2020.

المجتمع دورَه التنظيمي. هذا هو بالضبط التحليل الذي أجراه **أنغوس ديتون** و**آن كيس** من خلال دراستهما لإفراط الطبقات العاملة الأمريكية في استهلاك مواد الأفيون . تساعد الأدوية الناس الأكثر فقراً على «التحمّل» في مجتمع يتخلى عنهم. هناك أيضاً، في الطرف الآخر من الطيف الاجتماعي، استهلاك المخدرات المرتبط **بتعظيم الأداء** culte de la performance، على حدّ تعبير آلان إيرينبرغ، حيث تصبح المخدرات وسيلة للتفوق في الأداء، مثل التاجر المجنون الذي يتعاطى الكوكايين أثناء عمله.

بالنسبة لخبراء الاقتصاد، يمكن تفسير التدخين على أنه لعبة محصلتها سلبية بين «أنت اليوم» وبين «أنت غداً» الذي سيدفع عواقب إدمانك الحالي. هذه المصفوفة الفكرية هي التي تحدد التحليل الاقتصادي لمخاطر المناخ. إنَّ (أ) يسبب ضرراً لـ (ب)، وعليه دفع الثمن «لتحمل» تكاليف الضرر الذي ارتكبه [168]. هذا هو مبدأ «الملوِّث يدفع الثمن». إذا قمتَ بتنظيف ثيابك في نهر، فإن ذلك سيعيق جيرانك عن الصيد في اتجاه مجرى النهر، ويلحق بهم ضرراً لم تقدّر عواقبه. يكفي، باتباع هذا المنطق، أن تقدّر حجم الضرر الذي لحق بجيرانك للوصول إلى حلّ فعال: إما أن تتوقف عن غسل ملابسك، وكل شيء يكون على ما يرام، أو تمنح جيرانك الوسائل التي تمكنهم من الصيد في مكان آخر،

(168) ومن شأن تسعير الكربون أيضاً، وربما قبل كل شيء ، أن يجعل من الممكن تجنب الوقوع في فخ مميت: أن ارتفاع قوة الطاقات المتجددة من شأنه أن يخفض سعر الوقود الأحفوري، بما يتعارض مع الهدف الأولي.

ويتم إصلاح الضرر. في حالة الاحتباس الحراري، فإن الأجيال القادمة هي التي يُفرض عليها الشر. يجب أن نجعل أولئك الملوِّثين يدفعون الثمن اليوم غيابياً وبالأصالة عنهم، وهي النقطة التي وضع الفيلسوف هانز جوناس نظريتها من خلال فكرته عن «مبدأ المسؤولية».

إن الاستعارة «الملوِّث يدفع الثمن» مثيرة للاهتمام ولكنها في الواقع ليست مناسبة لظاهرة الاحتباس الحراري. فالسعر ليس غاية في حدّ ذاته كما في مبدأ «الملوث يدفع الثمن» حيث يكون تعويض الملوَّث بواسطة الملوِّث كافياً لحلّ المشكلة. المسألة ليست: «لوِّث ما دمت ستقوم بتعويض المتضرّرين من ذلك»، بل هي: «توقّف عن التلويث!». المعايير الجديدة التي وبكل بساطة تحظر، على سبيل المثال، استخدام السيارات الحرارية تحقق الفائدة عينها، وأحياناً تكون أكثر فائدة. المشكلة الرئيسة في تسعير الكربون تكمن قبل كل شيء في أنه يعدّ المشكلة التي يجب حلها وكأنها محلولة، أي مشكلة تأييد السكان لهذا التسعير. لقد درَس «ميثاق المواطنين من أجل المناخ» في باريس هذه المسألة، وقدم قائمة طويلة من التوصيات تتراوح من حظر الإعلان إلى الالتزام بإعادة التدوير من دون ذكر ضرائب الكربون. هناك تفسيرات عدّة محتملة لهذه الفجوة بين الاقتصاديين والسكان المعنيين. الأول هو الاعتقاد بأن السكان أقل وعياً وتبصراً من الخبراء، وهو بالتأكيد ما يميل الخبراء أنفسهم إلى اعتقاده. والتفسير الآخر هو أنَّ الطبقات العاملة،

بعكس ذلك تماماً، على دراية بمعنى التدابير التي يجب اتخاذها. فالضرائب المفروضة على استهلاك الوقود، مثل تلك المفروضة على التبغ، رجعية للغاية، إذ إن أفقر الناس هم من يتحمل العبء الأكبر بما يتناسب مع دخلهم. من الناحية النظرية، يكفي أن تلتزم السلطات العامة بتعويض الخاسرين لحلّ هذه المشكلة، ولكن هنا تكمن المشكلة (الخطاب الحكومي لم يعد له مصداقية في نظرهم).

من غير المجدي الحديث عن المناخ بشكل عام، من دون الرجوع إلى حالة كل شخص على حدة. وتظل الحساسية البيئية مرهونة بالعديد من المعايير الأخرى: شرعية العمل العام، وشدة الروابط الاجتماعية، والاهتمام بالأجيال القادمة... ومكانة المستقبل في متخيَّل كل فرد ليست هي المكانة نفسها التي يحتلها لدى مختلف شرائح المجتمع. فعندما تحكم عليك مهنتك وبيئتك الحضرية (كالعيش بعيداً عن المدن الكبيرة) بموت اجتماعي لا مفر منه، سيكون من الصعب عليك أن تتخطى حالتك الراهنة باسم رفاهية الأجيال القادمة.

المناخ ليس ديانة جديدة، ولا بديلاً عنها في العالم العلماني الذي نعيش فيه. لذا فإنه لا يسلم من الفئات المعهودة في الحياة السياسية. عندما نتفحص تفضيلات الناخبين نلاحظ في هذا المجال تشتتاً في الآراء قريباً جداً من موقفهم السياسي العام. فالناخبون اليساريون يؤيدون محاربة الاحتباس الحراري أكثر من الناخبين اليمينيين، وناخبو الجبهة الوطنية هم الأقل اهتماماً بمحاربة

الاحتباس. ولا بدَّ من أن يخيب أمل أولئك الذين يراهنون على الحماسة الجماعية لصالح المناخ فالبيئة بالنسبة لمعظم الناس تعدّ أمراً مهماً ، ولكن ليس أكثر أهمية من النظام الصحي أو القوة الشرائية [169]. لقد ازداد الوعي بكارثة المناخ بالتأكيد، حيث أظهرت استطلاعات الرأي أنَّ ثلاثة أرباع الفرنسيين يعتقدون الآن أنَّ الاحتباس الحراري يشكل تهديداً خطيراً، وأنه نتيجةٌ لأفعال بشرية. لكن بين أولئك المستعدين للمراهنة بكل ما لديهم على التقدم التقني الذي سيجد حلولاً للمشكلة، وأولئك الذين يريدون العيش اليوم في وضع «**بقائي**» survivalsite، فإنّ طيف الآراء واسع جداً بحيث يصعب طمأنتهم بشأن القدرة الجماعية للبشر على الاتفاق حول الإجراءات الواجب اتخاذها. المشكلة تتعقد إلى حدّ كبير كون الأمر لا يتعلق فقط بمسألة المصالحة بين ما نحن عليه اليوم وبين ما سنكون عليه في الغد. فالمصالحة يجب أن تتم هنا والآن على مستوى الكوكب بأكمله. ولا ترضى البلدان الفقيرة التي تطمح للحاق بركب البلدان الغنية التخلي عن استخدام السيارة وعن تناول اللحوم بسبب الضرر الذي تقع مسؤوليته على هذه البلدان الغنية نفسها.. يمكن للفرنسيين أن يقتنعوا بهذا العلاج أو ذاك، بالتقشف أو بالقوة النووية، لكن في حال لم يلتزم الصينيون والأمريكيون والهنود

(169) عند انتهاء أزمة كورونا، وضع تصنيف الفرنسيين القوة الشرائية في مقدمة اهتماماتهم (نسبة 44٪ من الاقتباسات)، ثم الصحة (33٪) ، والمناخ (32٪) ، على الرغم من أن 77٪ من الفرنسيين يقولون إنهم مقتنعون بمخاطر المناخ.

بذلك، فإنه لن يكون هناك جدوى من الأمر. ونتمنى لو أن المناخ يتيح للبشر أن يتوصلوا إلى وعي شامل بوضعهم الأرضي المشترك. لكن هيهات !

أوضح برونو لاتور Bruno Latour ونيكولاي شولتز Nikolaj Schultz جيداً في كتابهما «مذكرة حول الطبقة البيئية الجديدة»، أنه علينا في الواقع قبول فكرة أن البيئة تؤدي إلى التفرقة. من الضروري، في نظرهما، إنشاء «جبهة طبقية» جديدة تضمّ كل أولئك الذين يرون في علم البيئة بُعداً أساسياً لهويتهم الاجتماعية، مثل عمال الحدائق والعلماء المنخرطون في علوم الأرض والأنثروبولوجيون والمستثمرون الذين يريدون التأكد من القيمة الاجتماعية لاستثماراتهم خلال خمسين عاماً، وجميع المهن العقلانية التي لا تتبنى ظاهرة «تعظيم الأداء» مثل العاملين الصحيين والمدرسين، مع العلم أنه يجب عليهم مواجهة الآخرين بشكل ديمقراطي. فالاقتناع بالتحرك واتخاذ الاجراءات يقتضي قبل كل شيء ابتكار طريقة أخرى غير **الكارثية**. وكما يقول ستيفنز وسيرفيني، يجب ألّا نفرق بين التفكير والفعل: فالمتخيَّل يتغير أثناء القيام بالأشياء. عليك أن تبدأ في العيش بشكل مختلف، حتى لو كانت الإيماءات الأولية رمزية، وذلك لكي تتعرَّف على العالم الذي تبتكره. لا يجب أن تشعر بالحزن على العالم الذي ينهار فحسب، بل عليك الابتهاج بالعالم الممكن. يجب على المدخّن الذي يقلع عن التدخين أن يظن أنه يستعيد وسائل الحياة الصحية، وإلاَّ فإنه سيعيش في حدادٍ على ضياع السعادة فحسب، وبالتالي فإن عودته إلى التدخين ستكون أمراً لا مفر منه.

VII.

بعد مئة عام

مجتمع الوفرة

«نحن نعلم اليوم أن الشعوب التي توصف بأنها «بدائية»، وتجهل الزراعة وتربية الحيوانات، وتعيش بشكل أساسي من الصيد البري وصيد الأسماك، والتقاط الثمار وجمع المنتجات البرية، لا تعاني من الخوف والموت والجوع وقلق البقاء على قيد الحياة في بيئة معادية .إنَّ قلّة عدد هذه الشعوب ومعرفتها الهائلة بالموارد الطبيعية تسمح لها بالعيش في حالة قد يترددون بتسميتها «الوفرة». [...] ولديها المزيد من أوقات الفراغ التي تسمح لها بالتفرغ للتأمل والتخيّل، فكانت في سعيها لدرء صدمات العالم الخارجي تلجأ للمعتقدات وأحلام اليقظة والطقوس، أي، بوجيز القول، لجميع تلك الأشكال من النشاط التي يمكن أن نسميها دينية وفنية».

يرسم هذا النص الرائع لـ **ليفي شتراوس** لوحة مبهجة عن المجتمعات البدائية التي احتفى بها أيضاً عالم الأنثروبولوجيا مارشال ساهلينز Marshall Sahlins.عند قراءتنا لهما، يُخيَّل إلينا وكأنَّ مجتمعات الصيد والتقاط الثمار هي جنة عدن، فهي تعيش في نوعٍ من الوفرة والهناء، وتعمل فقط لمدة ساعتين إلى أربع ساعات في اليوم لتأمين لقمة العيش للجميع. بيدَ أن هذه الصورة المثالية لمجتمعات الأمس يجب أن تُؤخَذ على أنها أسطورة لا ينبغي

أن ننخدع بها، وإن كانت تُظهِر الإبداع المذهل للبشر في طريقتهم باستكشاف العالم الذي يريدون العيش فيه. لقد نظر علماء الأنثروبولوجيا مجدداً في مدى الصلاحية العامة لهذه اللوحة، وتبين لهم أنَّ الفكرة القائلة بأن مجتمعات الصيد والتقاط الثمار لا تعرف الجهد وتراكم الثروة هي فكرة لا تتصف بالشمول. فعلى سبيل المثال، كان ملتقطو الثمار في شمال غرب كاليفورنيا معروفين بجشعهم. وبحسب غريبر ووينغرو، كان وجودهم يركز على تراكم الأموال (في شكل عملة وهمية من القواقع) والكنوز المقدسة، وكانت أخلاقيات العمل الصارمة التي طوروها موجهة نحو تلك الغاية فقط. لم ينتظر الناس الزراعة لاستكشاف إمكانيات الحياة الاجتماعية كلها.

إنَّ مجتمعات الأمس تدفعنا لإعمال الفكر، إذ إننا في طور التخلص من عبء التصوّرات التي ورثناها من المجتمعات الزراعية التي باتت تثقل كاهلنا، وهانحن نشهد طيَّ صفحة استمرت عشرة آلاف سنة عملت فيها هذه التصوّرات على تنظيم حياة البشر. إنَّ أعظم التحوّلات يكمن في مكانة المرأة في المجتمع، فقد انتهى معدل المواليد بالانهيار في أوروبا أولاً ثم في العالم كله بعد عشرة آلاف سنة خَلَقت خلالها هذه المجتمعات نظاماً لإخضاع النساء للضرورة الديموغرافية. وخَلُصَ مشروع بقيادة علماء الديموغرافيا في جامعة برينستون عن مجموعة من النتائج في هذا المجال، ففي غضون بضعة عقود، من عام 1870 إلى عام

1910، لوحظ انخفاض معدل الخصوبة في جميع البلدان الأوروبية تقريباً، بشكل متزامن ومستقل تقريباً عن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية. على سبيل المثال، بدأ تحوّل إنجلترا والمجر في الوقت نفسه، على الرغم من اختلافهما الشديد من حيث التعليم أو وفيات الأطفال. وبدأ في الوقت نفسه تحوُّل بلغاريا التي كانت أميّة وريفية. إنَّ هذا التزامن لا يترك أدنى شك في أنَّ الأمر يتعلق بظاهرة ثقافية أعمق بكثير من مجرّد ردّ فعل على التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي يمكن ربطه، على سبيل المثال، بالتوسع الحضري [170].

وقد لوحظ الانهيار نفسه في البلدان النامية. فقد حدث انخفاض الخصوبة في غضون عقود قليلة، حيث انتقل معدل الخصوبة في الحدّ المتوسط من 5 أطفال لكل امرأة في عام 1950 إلى 2.4 اليوم. ينسجم التفسير الذي قدَّمه علماء الديموغرافيا في الأمم المتحدة مع استنتاجات مشروع برينستون بشأن التحول الأوروبي. ومصادر هذا التفسير ثقافية. فالنساء في جميع أنحاء العالم شاهدت على شاشات التلفزيون نموذجاً أبهرهنَّ وهو نموذج النساء الغربيات اللواتي أصبح أسلوب وجودهنَّ (التلفزيوني) يمثّل توقاً إلى الحرية.

---

(170) A. Johnson Coale et S. Cotts Watkins, *The Decline of Fertility in Europe*,Princeton University Press, 1986

فرنسا التي كانت رائدة في هذا المجال بدأت تحولها الديموغرافي قبل الدول الأوروبية الأخرى بقرن، لا بل حتى قبل بدء الثورة الصناعية والتحضر الجماعي. من ناحية أخرى، شهدت إنجلترا تدهورها الديموغرافي بعد فترة طويلة من ظهور المدن الصناعية الكبرى.

أثبتت الدراما البرازيلية الطويلة telenovelas أنها أقوى من الكنيسة التي نجحت على الرغم من ذلك في منع تنظيم الأسرة[171]. إنَّ التغيير في العقلية وليس التغيير في الحوافز المالية هو الذي يفسِّر التحول الديموغرافي. من أجل التطلع إلى مستقبل مرغوب فيه، يجب تخيّل تغيير في العقلية من الطبيعة عينها، وانتقال جديد من الكمية إلى الجودة.

الأمل العظيم للقرن الحادي والعشرين

كتب الاقتصادي الإنجليزي العظيم جون مينارد كينز John Maynard Keynes في عام 1928 ليعلن أنه يعقد أملاً كبيراً على القرن الحادي والعشرين وهذا ما يعكس بشكل مدهش وصف ليفي شتراوس «للمجتمعات المتوحشة». يقول كينز : بعد قرن من الزمان- ولقد شارفنا على الوصول إليه - «تكفي ثلاث ساعات من العمل يومياً لإرضاء آدم القديم القابع فينا» .... هذا النص يستحق بورنق أسلوبه أنَّ نقتبس منه جزءاً مطوّلاً : «كانت المشكلة الاقتصادية، والنضال من أجل العيش، دائماً وإلى الآن هي المشكلة الرئيسة، والأكثر إلحاحاً للجنس البشري، لا بل للمملكة البيولوجية بأكملها منذ بدايات الحياة بأشكالها الأكثر بدائية. ومن الواضح أنَّ الطبيعة قد خلقتنا - بكل دوافعنا وغرائزنا العميقة -

(171) انظر :
Lire Eliana La Ferrera *et al.*, « Soap operas and fertility », *American Economic Journal : Applied Economics*, 4 (4), 2012.

من أجل حلّ المشكلة الاقتصادية. ومع ذلك ، وبافتراض عدم وجود حروب خطيرة أو زيادة كبيرة في عدد السكان، يمكن حلّ المشكلة الاقتصادية، أو على الأقل يمكن تصور حلّ لها في غضون مئة عام. وهكذا فإنَّ المشكلة الاقتصادية ليست - إذا تطلعنا إلى المستقبل - المشكلة الدائمة للجنس البشري».

لقد مضى قرن من الزمان ولم يحدث حتى الآن خروج من الاقتصاد. فالاستهلاك اليوم أعلى أربع مرات مما كان عليه في الستينيات لكن من دون جدوى ! يبدو الأمر كما لو أنَّ الحدّ الأدنى للأجور يعادل 5000 يورو من دون حلّ للمشكلات الأساسية للحياة المادية...

كيف لهذا أن يكون ممكناً ؟ الإجابة الأولى هي أنَّ الرأسمالية تعرف كيف تحفز علمياً شهية الناس للاستهلاك، من خلال تقديم سلعٍ يصبح امتلاكها أمراً لا غنى عنه على الرغم من أنَّ هذه السلع لم تكن معروفة قبل فترة قصيرة. إنَّ قوة الرأسمالية تكمن في هذا الإبداع. نحن مدينون لهذا الابداع بالسينما والهاتف والغسالة والعديد من العناصر التي تُسهم في المقام الأول في تقدم البشرية. المشكلة هي أنه، وبصرف النظر عن الحاجة نفسها، ينبغي علينا المضي أبعد من ذلك مراراً وتكراراً: كأن نركب أحدث طراز سيارة، أو نحمل أحدث طراز من جهاز أيفون، كي لا نشعر أننا أقل درجة من غيرنا! إنها نظرية «مواكبة جونز» Keep up with the Jones الشهيرة التي تحوّل المجتمع إلى ميدان تنافس

دائم.

وتُنسب للخبير الاقتصادي ريتشارد إيسترلين Richard Easterlin تلك المفارقة الكامنة في ثروة لا تجعل الناس سعداء أبداً، إذ يُستَهلكون بمقارنة أنفسهم المستمرة بالآخرين.

ومع ذلك، ومنذ أن نشَر **كينز** نصّه، هناك شيء أكثر قوة كان يحدث ويحقّق تنبؤاته على نحوٍ صامت تقريباً.. إذا تحدثنا عن السلع التي ميزت الاستهلاك في الوقت الذي كتب فيه كينز مقالته، فإنَّ نهاية العمل قد حدثت بالفعل ! فحصص الصناعة والزراعة تمثّل الآن 15٪ فقط من ساعات العمل في بلد مثل فرنسا أو الولايات المتحدة، في حين أنها كانت تمثل 60٪ عندما نشر كينز مقالته. لقد اندثر المجتمع الصناعي بالفعل ! ولا تزال هناك بقايا مجتمع تحدَّث عنه جيروم فوركيه Jérôme Fourquet، مجتمعٌ حلّ فيه مركز التسوق محلّ المصنع كمكان لبناء المتخيَّل الشعبي. لكنَّ كل ما كان يمثّل صميم الاستهلاك الجماعي بالأمس، أعني الأجهزة المنزلية والتلفزيون، يمثّل الآن حصّة هامشية من الإنفاق، فلم نَعُد نشتري سلعاً صناعية من أجل الرغبة في امتلاكها، بل نشتريها بالأحرى لتغييرها عندما تتعطل. وهكذا فإنَّ الانخفاض الحادّ في أسعارها يُسهّل شراء جهاز تلفزيون جديد عندما يتعطل القديم، مما يجعلنا نفهم هنا أنّ تسعير الكربون يفيد في تجنب هذا الهدر.

إنَّ تكوينَ الإنفاق الخاص يجعل من الممكن متابعة التحول الهائل لأنماط الاستهلاك التي حدثت خلال نصف قرن. لقد كانت المواد

الغذائية والتبغ إضافة إلى المنتجات الصناعية الأساسية من ملبس ومعدات منزلية تمثّل أكثر من نصف المصروفات في عام 1960. وهي تمثل اليوم أقل من ربع هذه المصروفات [172]. بالمقابل، تضاعف نصيب المساكن والسيارات خلال الفترة نفسها. فهي تمثل معاً 40٪ من إجمالي الاستهلاك اليوم [173]. وقد بيّنت حركة السترات الصفراء الوحدة غير القابلة للتجزئة بينهما. كان موقف الطبقات العاملة من ارتفاع أسعار المساكن يكمن في الحفاظ على مساحة سكنهم من خلال الابتعاد أكثر فأكثر عن أماكن عملهم. أكد إرفيه لو برا Hervé Le Bras حقيقة مذهلة تفيد بأنه على الرغم من الفوارق الهائلة في الدخل بين الأغنياء والطبقة الوسطى والطبقة العاملة، إلا أنَّ هناك عنصراً واحداً يقاوم هذه التفاوتات : عدد الأمتار المربعة التي يشغلها هؤلاء وأولئك. فالأكثر غنىً لا يشغلون مساحة أكبر بكثير من المساحة التي يشغلها الفقراء: كلّ شيء يتعلق بمكان الإقامة. فبعضهم يسكن الأحياء الجميلة في وسط المدينة، في حين يضطر بعضهم الآخر إلى السفر لمسافات أطول بكثير من أجل الذهاب إلى العمل.

هذه المسائل ليس لها علاقة تُذكر بتلك التي قدَّم النمو الصناعي التقليدي حلولاً لها. إنَّ حلّ صعوبات حياة الفرنسيين لا يتم من

---

(172) انخفض الغذاء والتبغ من 32٪ إلى 19.5٪ ، وانخفضت الملابس من 12٪ إلى 3٪ من الإنفاق، وانخفضت معدات الإسكان من 8.5٪ إلى 4.5٪.

(173) ارتفعت نفقات السيارات من 10.5٪ إلى 14٪، وارتفعت نفقات السكن ي من 11.5٪ إلى 26.5 ٪ (بما في ذلك التدفئة والإنارة).

خلال زيادة إنتاج التلفزيونات أوالغسَّالات. فإذا أردنا الحفاظ على المناخ والقوة الشرائية، علينا القيام بعكس ذلك، أي محاربة تقادم السلع، وضمان أنها مصنوعة من مواد قابلة لإعادة التدوير، وخفض استهلاكنا لها. المسألة الكبرى المتعلقة برفاهية ما بعد الصناعة تكمن في مكان آخر: إنها مسألة احتلال الفضاء الاجتماعي بطريقة أكثر تناسقاً. فتصحّر الأراضي الأقل حظاً يُعَدُّ قضية حاسمة في هذا الصدد. إنه مرتبط بشكل وثيق مع المرافق العامة. فعندما تغلق الدولة مكتب بريد لأنَّ محطة القطار توقفت عن الخدمة كونها لا تدرّ أرباحاً كافية، فإن ذلك يُعدُّ بمنزلة انفجار للوضع في البلدات المعنية.

دور الإنفاق العام هو السمة الرئيسة الأخرى لمجتمع ما بعد الصناعة.

في فرنسا، تضاعفت حصته تقريباً على مدار الستين عاما الماضية، حيث ارتفع من 14٪ إلى 24٪ من إجمالي الاستهلاك (عندما اقتطع الإنفاق العام من الأسر). التغيير الأكثر إثارة هو التغيير الذي طرأ على الصحة العامة، والذي تضاعف ثلاث مرات تقريباً، حيث انتقل من 5.5٪ إلى 14٪ من إجمالي الإنفاق. إن كون القطاع العام هو المسؤول عن الصحة أو التعليم بشكل أساسي حيث تُدفَع تكاليفهما عن طريق الضرائب أدَّى إلى خلق ارتباك مثير للغط والإسفاف.

بحسب المنطق الكلاسيكي أنت بحاجة إلى قطاع خاص

ديناميكي حتى تتمكن من دفع النفقات العامة. فهل يجب أن نبيع معجون أسنان لدفع رواتب الأطباء؟ من الواضح أنَّ ذلك ينطوي على غباء شديد. يمكننا أن نتخيل وجود مجتمع يكون فيه كل فرد طبيباً أو ممرضاً مساعداً، حيث يتم توفير القوة الشرائية الناتجة عن العمل من أجل التمكن من الاعتناء بأنفسنا عندما نكبر في السن أو نصاب بمرض. يمكن أن يكون هذا النظام إما عاماً أو خاصاً. ما يهمّ ليس أصل الإنتاج، بل الرفاهية التي يجلبها للسكان. إنَّ فضيحة شركة أوربيا Orpea المسؤولة عن دور رعاية المسنين المتعلقة بسوء معاملة كبار السن التي صدمت فرنسا بأكملها، تثير السؤال الأساسي التالي بطريقة فجة : ما معنى الإنتاجية عندما يتعلق الأمر برعاية الإنسان؟ يمكن للمرء أن يتخيّل أنَّ ذلك يكمن في تقليل تكاليف الإدارة، بالطريقة نفسها التي يستطيع بها Watson الوكيل الذي أنشأته شركة IBM الاستغناء عن مساعدي التوظيف. لكن في النهاية، عندما يتعلق الأمر برعاية الأشخاص أنفسهم، فإنَّ أيّ مكسب في الإنتاجية يهدد بنزع الصفة الإنسانية عن نشاط يتعلق بالرعاية التي يقدمها شخص لآخر.

فيما يخص حالة شركة أوربيا، كان تقرير التحقيق مخيفاً. فقد لوحظ أن الوجبات تفتقر إلى اللحوم، وأن الوجبات الخفيفة الليلية لم تكن منتظمة، لذلك كان الصيام أطول من الحدّ الأقصى الموصى به وهو 12 ساعة. تم عمل كل شيء للحد من الموظفين. وبحسب محامي الضحايا، كان يأوي سكان دار الرعاية إلى السرير الساعة

الرابعة مساءً لتقليل الوقت الذي يقضونه معهم. واستُخدِمَت الكراسي المتحركة لتبسيط حركة المرضى مما أدّى إلى آثار متوقعة تكمن في فقدانهم السريع لمهاراتهم الحركية. وهكذا لا يمكننا إدارة العلاقة مع البشر كما يحدث الأمر مع مواد المجتمع الصناعي.

إذا كان المجتمع الرقمي هو السبيل لتحقيق إنتاجية للأنشطة الخدمية، فيجب أن يضع خطوطاً صارمة بشأن الطريقة التي يعتني بها بالناس: يجب أن تتمتع المستشفيات ودور الرعاية الصحية - التي حلت محلّ المصانع بوصفها مكاناً

مركزيا للإنتاج - بالقدرة التكنولوجية على التفكير الذاتي في متابعة المريض في رحلة العلاج، من دون الخضوع لبروتوكول ترشيد لن تكون تلك المشافي ودور الرعاية سوى جزء من آليته. هذا هو رهان الحضارة التي نريد خلقها.

عودة إلى الخيال العلمي

يقدم فيلم **إيليزيم**[174] مرآة عن المجتمع الذي نريد بكل تأكيد منع وجوده. لقد هاجرت النخب إلى كوكب في مدار حول الأرض حيث يسود السلام والازدهار. وباتت الروبوتات والطائرات العسكرية المستقلة تعتني بدون طيار بعامّة الشعب الباقي على الأرض. لقد دفع فيلم «إيليزيم» إلى أقصى الحدود هذه الرؤية لمجتمع من الأغنياء الذين يقوم بتلبية احتياجاتهم عدد كبير من الخدم في حين أن الشعب، في الطرف الآخر من السلسلة تتولى رعايته الروبوتات والخوارزميات.

يحبّ الخيال العلمي أن يقدم عالماً سَحَقه الاكتظاظ السكاني، وهيمن عليه الانقسام الاجتماعي من جراء النفي إلى كواكب أخرى من الأغنياء أو الفقراء.. ويؤدي الاقتصاد في ذلك دوراً أساسياً. في قصص الخيال العلمي، غالباً ما تكون «النقابات» corporations أكثر أهمية من الدول والحكومات (حتى عندما يتم تمثيلها!)، ففي كتاب عنوانه Ubik لفيليب كيندرد ديك، وهو أيضاً مؤلف Blade Runner ، تسمى العملة «poscreds» وتستخدم لدفع ثمن كل شيء، مثل فتح الباب للعودة إلى المنزل، وتناول الطعام من الثلاجة، وكأن ذلك طريقة للتذكير بأن كل شيء له ثمن، وأن كل إيماءة

---

(174) فيلم خيال علمي أمريكي من تأليف وإخراج بلومكامب وبطولة مات ديمون وجودي فوستر وشارلتو كوبلي. صدر الفيلم في 9 أغسطس 2013 في الولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم)

تقاس بمعيار قيمتها السوقية. وفي فيلم أندرو نيكول Andrew Niccol الذي يحمل عنوان Time Out، العملة هي **الزمن** نفسه. ففي هذا الفيلم، نحن لا نعمل من أجل المال ولكن من أجل ثوانٍ، وساعات ، وسنوات من العمر. الفقراء يلهثون وراء الوقت بكل ما تعنيه الكلمة. ففي المشهد الأول للفيلم، يندفع الابن إلى والدته لمنحها الدقائق التي تحتاجها، لكن من دون جدوى، إذ ماتت بين ذراعيه لافتقارها لبضع ثوان. والغني هو الذي يملك حياة تحسب بالقرون.

يعيدنا الخيال العلمي إلى بداية الاقتصاد السياسي الحديث في القرن الثامن عشر عندما تساءل المفكرون الأوائل مثل Quesnay أو Smith أو Malthus أو Ricardo عن مصدر الثروة: هل هي الأرض أم العمل؟ يجيب الخيال العلمي بطريقة حديثة للغاية: المواد الخام والتقنيات هي التي تهمّ، فالعمالة البشرية المفترضة (من خلال أسطورة الاكتظاظ السكاني) تنحدر إلى أسفل سلم القيود. هل المتخيَّل في الخيال العلمي هو انعكاسٌ لمخاوفنا فقط، أم إنه يعلن عن عالم محتمل، عالم يمكن حتى أن يكون مستوحى منها؟ كان جول فيرن Jules Verne في عصره قد توقع تماماً العديد من الاختراعات التي كان من المقرر نشرها بعد ذلك. واستشهد بعمله أيضاً الاقتصادي روبرت جوردون للتعبير عن فكرة تقوقع المجتمع الاستهلاكي الذي فرض نفسه طوال القرن العشرين. الاختراقات الأساسية العظيمة التي تمثلت في الكهرباء ومحرك الاحتراق الداخلي

كانت مرئية بصورة واضحة في فجر القرن الماضي، كما هو الحال بالنسبة للمُعالجات الدقيقة microprocesseurs والذكاء الاصطناعي اليوم. يكفي أن نعمم على المجتمع بأسره الاختراقات التي هي في طور النشوء لكي نتوقّع ما تبشر به من تطورات.

وهكذا يمكن للمرء أن يغمض عينيه ويتخيل عالماً يُغني فيه التعرف على الوجه عن إظهار جواز السفر في المطارات أو الوقوف في الطابور عند الخروج من السوبر ماركت، وتعمل فيه إدارة المرور الخوارزمية على القضاء على الاختناقات المرورية بفضل السيارات ذاتية القيادة التي تتواصل مع بعضها بعضاً، عالمٌ تسمح فيه التطبيقات بالطبابة الذاتية إلاَّ في الحالات التي يتم فيها إخطار الطبيب على الفور، عالمٌ تكون فيه البنوك من دون صرافات آلية، وترصد حساباتك بصورة آنية وتقدم خوارزمياتها لك قروضاً بمعدلات فائدة تعكس درجة ملاءة مالية محدَّثة باستمرار...

لعل هذه الرؤية لا تقاوم لأنَّ التقنيات الآن تُصنَّع من دون التشاور مع مستخدميها الرئيسيين. وهكذا كان **فورد** قد صمَّم أعمال خط التجميع لمصانع كان مقاولاً رئيساً لها. اليوم، أحدثت تطبيقات مثل Booking أو Uber ثورة في القطاعات التي لم يكن لديها من قبل أية معرفه فيها. وكما كتب تريستان هاريسTristan Harris، رئيس مركز التكنولوجيا البشرية، فإنَّ خمسين مصمماً يتخذون قرارات لصالح ملياري شخص.

من الممكن أن يُقنع المرء نفسه، مع ذلك، أنَّ ما يتصوره الخيال العلمي ليس هو الصحيح. فما هو نادر وقيّم ليست الروبوتات أو المواد الخام، بل البشر ونوعية حياتهم الاجتماعية. ففي عام 1968، ألقى روبرت كينيدي Robert Kennedy خطاباً شهيراً لا يزال يتردد صداه بقوة إلى اليوم يقول فيه : «الناتج المحلي الإجمالي لا يأخذ في الحسبان صحة أطفالنا، أو جودة تعليمهم، أو متعة ألعابهم. إنه لا يقدّر جمال أشعارنا أو قوة أركان زيجاتنا. إنه لا يفكر بتقييم جودة مناقشاتنا السياسية أو نزاهة ممثلينا، ولا يأخذ في عين الاهتمام شجاعتنا أو حكمتنا أو ثقافتنا».

هناك دراسة عميقة للغاية تؤكد على نحو مثير للإعجاب حدسَ روبرت كينيدي. وفي مقارنة دولية لمحدّدات الرضا عن الحياة في مختلف المجتمعات، أظهر ريتشارد لايارد Richard Layard وزملاؤه أنَّ العوامل الأكثر ذاتية مثل الثقة في الآخرين والكرم والصحة هي عناصر للرفاهية أهمّ بكثير من الناتج المحلي الإجمالي (175).

تؤدي مضاعفة دخل الفرد إلى زيادة رفاهيته بمقدار 0.21 نقطة على مقياس من 1 إلى 10. لكن يمكن ليوم مشمس جميل أن يؤدي إلى نتيجة أفضل ! أن تعيش مع شريك بدلاً من أن تعيش بمفردك

(175) R. Layard *et al.*, *The Origins of Happiness*, Princeton, Princeton UniversityPress, 2018.

يزيد من مستوى رفاهيتك بمقدار 0.8 نقطة. الثقة بين الأشخاص والكرم هما عاملان أكثر أهمية : الثقة قادرة على زيادة الرفاهية بنقطة كاملة على المقياس نفسه، أي أكثر من الدخل بخمسة أضعاف. لقد أظهرت تجربة مخبرية أخرى أننا نجعل الناس أكثر سعادة من خلال منحهم مئة يورو، وحثهم على إنفاقها صدقة ونفقةَ خير وعطاء بدلاً من إنفاقها على أنفسهم.

وعلاوة على ذلك، لايُعدّ التأثير المباشر للدخل على الرفاهية مقياساً كافياً لتأثيره الحقيقي. يجب تعديل الدخل لمراعاة «العوامل الخارجية السلبية» المتمثلة في إثراء الآخرين. ونظراً لأنَّ الثروة لا تقتصر على شراء الأشياء فحسب، بل تتمثل في تبوّء مكانة في المجتمع، أو حتى مجرد القدرة على توظيف شخص يكرس وقته ليعتني بك، فإنَّ مساهمة زيادة الدخل في الرفاهية تقلّ كلما ازداد الآخرون ثراءً. ومن النادر أن تستطيع السكن في حيّ راقٍ في المدينة عندما يتزايد دخل السكان الآخرين أيضاً.. الثروة، إلى حدّ كبير، شأن نسبي. فالثراء شيء جيد، خاصة إذا حُرم الآخرون منه ! فرنسا هنا مرة أخرى بلد مذهل تعود أصول بؤسه إلى ذلك، فبينما يفخر الفرنسيون بالتمسك بـ «منطق الشرف»، يُظهر التحليل الإحصائي على سبيل المثال أنهم في الواقع أكثر عرضة للتأثر البالغ بالثروة المادية من الإنجليز أو الألمان [176]. ولعلّ تفسير ذلك يعود إلى أنَّ الفرنسيين يجدون صعوبة كبيرة في العيش

(176) D. Cohen, C. Senik *et al.*, *Les Français et l'Argent*, Paris, Albin Michel, 2021.

معاً. المال هو آخر علاج لمجتمع يجد صعوبة في الاختلاط بالآخر والاعتراف به.

تتعلق إحدى النقاط الأساسية في كتاب لايارد بمشاكل الصحة العقلية. إنها السبب الرئيس في ضروب التفاوت في مسألة الرفاه. تقدّم الدراسة تحليلاً عميقاً بشكل كبيرمن خلال متابعة جميع الأطفال المولودين في بريستول بين أبريل 1991 وديسمبر 1992. إنها تجعل من الممكن مراقبة تطورهم بشكل شامل تقريباً، وفقاً لجميع المعايير الممكنة : مثل أوضاع الآباء والمدارس التي يرتادونها، بما في ذلك المعلمين أنفسهم. لا غرابة أن يعتمد مسار الأطفال كثيراً على الخلفية الاجتماعية للوالدين. من ناحية أخرى، لا تؤثر حقيقة عمل الأمهات على النتائج المدرسية لأبنائهن. ما يهمّ أكثر هي حالتهنَّ الانفعالية، فهي تؤثر بشكل مباشر على الأطفال حتى لو كان من المدهش أن الصحة العقلية للأمهات لا يبدو أنَّ لها أي دور في درجاتهم في المدرسة.

إحدى النتائج الرائعة لهذه الدراسة تُظهر أنَّ المعلم يلعب دوراً مماثلاً للغاية. المعلم الجيد له تأثير أساسي على البناء العاطفي للطفل أكثر بكثير من تأثيره على درجاته ! ومن الواضح أنَّ المعلم اليقظ سيحسِّن من نتائج تلاميذه في الرياضيات أو الأدب، لكن بصمته في هذه المجالات مؤقتة. ما يبقى أحياناً مدى الحياة هو التأثير الممكن على نفسية الأطفال. فنجاح الأطفال أو تعاستهم أمر مرتبط بمدى الثقة التي يضعها المعلم فيهم ومدى توفيره للموارد العاطفية

التي تمكنهم من إقامة علاقة هادئة مع الآخرين.

لا يسعنا إلّا أن نعيد قراءة الرسالة التي أرسلها ألبير كامو إلى معلمه بعد فوزه بجائزة نوبل : « عندما عَلِمتُ بخبر فوزي بالجائزة، أوّل ما خطر على ذهني، بعد والدتي، هو أنت... فلولاك، ولولا هذه اليد العطوف التي مددتها لذلك الطفل المسكين الذي كنته، ولولا تعاليمك ولولا وجودك كقدوة، لم يكن كل هذا ليحدث».

حب الأم

من خلال المعلمين مثل معلم كامو، ومقدمي الرعاية المخلصين لمرضاهم، والموظفين السياسيين النزيهين، يتم تنظيم مقاومة لما يجب أن يسمى قضية القرن: الرقمنة المنهجية للعلاقات الإنسانية. تُظهر دراسات عديدة عدم جدوى المشاريع التي تهدف إلى إحلال الذكاء الحسابي محل حساسية الإنسان. لقد قام ميشيل ديسمورجيه الذي تابعنا دراسته لـ «المعتوه الرقمي»، بتحليل دورات التعليم الإلكتروني المفتوحة الواسعة النطاق MOOC. وأظهرت دراسة أجريت على مليون مستخدم «وجود عدد قليل نسبياً من المستخدمين النشطين، وانخفاض مشاركة المستخدمين بشكل ملحوظ، خاصّة بعد أول أسبوعين من الدورة ». كما أنَّ دورات التعليم الإلكتروني المفتوحة الواسعة النطاق لم تنجح في جذب الطلاب الفقراء، وغير المتعلمين الذين يُعتقد أنهم المستفيدون الرئيسيون : حوالي 80٪ من الذين سجلوا في الدورات عبر

الإنترنت كانوا قد حصلوا بالفعل على شهادة جامعية.

يركّز ديسمورجيه أيضاً على حدّ أساسي آخر لا يبدو أن المدّ الرقمي يتجاوزه: إنه حب الأم. فالأطفال يميزون تمييزاً واضحاً جداً بين العلاقة الإنسانية، وبالتحديد علاقة الحب الذي تمنحه لهم والدتهم جسدياً، وما يمكن أن يقدمه لهم مقطع فيديو يصور تلك العلاقة. يقول ديسمورجيه : « شتان ما بين التأثير الناتج عن تحفيز البشر للأطفال، والتحفيز الناتج عن الآلات، وذلك لأسباب مازالت تحتاج للتفسير». يستشهد ديسمورجيه بتجربة أجراها بيير فرانشيسكو فيراري Pier Francesco Ferrari، المتخصص في التنمية الاجتماعية لدى الرئيسيات، والذي أراد أن يحلل بشكل تجريبي أداء التقمص الوجداني (177).

قرر فيراري حرصاً على توفير الوقت إحلال مقطع فيديو محل الباحث المُختبِر، فكانت النتيجة كارثية بشكل غير متوقع : حدث كل شيء كما لو أن الخلايا العصبية المرآتية neurones miroirs، التي هي أساس التعاطف، قد تم فصلها عندما حلَّ الفيلم محل شخص من لحم ودم !

وتم تعزيز هذا الاستنتاج بتجربة أخرى، فقد حاول المعلمون تعليم لغة الماندرين لأطفال أمريكيين عمرهم تسعة أشهر. وعلى

(177) يحدث هذا بسبب "الخلايا العصبية المرآتية"، وبسبب ذلك يقوم الفاعل (الإنسان أو القرد) بابتلاع لعابه عندما يرى أحد نظرائه يشرب كوباً من الماء، أو يشعر بالجوع عندما يراهم يأكلون. نحن نستدمج سلوك الآخرين، كما لو كانت تصرفاتهم هي تصرفاتنا وكما لو كان الوضع الموجودين فيه هو وضعنا.

غرار تجربة فيراري (غير الطوعية)، قام معلم بتعليم أشياء معينة لبعض هؤلاء الأطفال، وقام المعلم نفسه عبر الفيديو بتعليم بعضهم الآخر الأشياء نفسها. النتيجة، فتبين أن تعليم الفيديو كان عقيماً تماماً.

ثمة شيء ناقص في العلاقة بين الفيديو والطفل هو هذا الرابط غير المحسوس والحاسم الذي يدفع المدرس لأن يتوقف عندما تطرف عينا الطفل، ولأن يعدّل صوته عندما يلمس انفعالاً لديه. لا يتكيف الفيديو مع الرسائل العاطفية التي يرسلها الطفل، وربما يصبح العكس صحيحاً أيضاً : فالطفل لا يكترث بالفيديو عندما يدرك أنه مجرّد من الحسّ تجاهه.

هذا المثال يرمز للمخاطر التي نتعرض لها في المجتمع الرقمي. إنه يقطع هذا الرابط الذي يسمح للإنسان عندما يواجه إنساناً آخر أن يعتقد أن هذا الأخير يعرف أو يعتقد أنه يعرف ما يشعر به هو... اختتم ديسمورجيه دراسته الهائلة بطريقة مثيرة للإحباط، حيث كتب قائلاً: «لعل الروبوتات المجسمة ستتمكن يوماً ما من تعليم أطفالنا نيابة عنا، وتفسير بأبأتهم، وإشباع فضولهم، ومراقبة نومهم، والابتسام من تعابير وجوههم، ومنحهم العناق وهكذا سننتهي من متاعب الأطفال، ولن نتجشم مسؤولية تربية النسل. سيهتم غوغل وخوارزمياته بكل شيء. وسنحيا في أفضل العوالم الرقمية ! »

خاتمة

تَعِدُنَا شبكات التواصل الاجتماعي بانتهاء البنى الهرمية، هي في بعض النواحي تحقق وعدها من خلال خلق مجتمع مجزأ بشكل متزايد.

يمكن أن نكون متساوين، وأن نتخاطبَ من دون تكلّف، ولكن ضمن دائرة متجانسة تماماً. فكلّ شخص ينضم إلى المجموعة التي تفكر مثله، ويخلق نوعاً من «الذات المعزَّزة» من خلال التعايش مع أقرانه.

لقد ظهر نوعٌ جديدٌ من المجتمع لا يقوم على الفردانية المعاصرة، ولا على النموذج الهرمي للمجتمعات الماضية. إنها «فردانية جماعية» ترى النور حيث يتماهى المرء مع مجموعة على شاكلته. وبينما ينتشر الارتياب والحذر في كل مكان، تعمل شبكات التواصل الاجتماعي على تطوير ثقافة معينة يفقد فيها المرء حياءه كله، إذ يعرض نفسه أمام «قبيلته».

إن هذا العالم الناشئ، أي عالمنا بالفعل، هو عالم مجتمعٍ يُفسد عقول الناس وينزل بهم العقاب. في واحدة من أَمَرِّ حلقات مسلسل «المرآة السوداء»، رأينا أنَّ كاميرا الكمبيوتر تراقب شاباً تم تصويره وهو يشاهد عبر الإنترنت جريمة اعتداء جنسي

على قاصر. وقامت الخوارزمية بصفتها وصيّة على الأخلاق بدفع هذا الشاب لقتل متهم آخر بعد أن هدّدته بالكشف عن حياته الخفية. هذه الحلقة توضح انحراف المجتمع الرقمي الذي يضع تحت الوصاية فرداً ويجعله مدمناً على منتجاته الخاصة. هذه «التناقضات النفسية» هي استمرارية لـ «التناقضات الثقافية» للرأسمالية الصناعية التي تتمثل في نظام استهلاكي يحرِّض على الفجور، وفي نظام إنتاجي قائم على الانضباط الصارم. في الرأسمالية الرقمية ، يتمّ دفع هذا التوتر إلى حد العبثية: إلى الإدمان القهري من جهة، ومراقبة أدق الأفعال والحركات التي يقوم بها الأفراد من جهة أخرى.

لقد انهار النظام الصناعي خلال الستينيات عندما تحدى الشباب الثائر الانضباط المفروض في المصانع والجامعات بقدر ما تحدّى الطبيعة الكئيبة والمتكررة للمجتمع الاستهلاكي نفسه. وكانت المشكلة التي عجزت الستينيات عن حلها هي إقامة مجتمع بديل. اكتشف الهيبيون واليساريون المتطرفون طرقاً جديدة للعيش في «المجتمعات»، من **لارزاك** إلى ضواحي **سان فرانسيسكو**. لقد أوضح عالم الاجتماع برنارد لاكروا ببراعة أن ما كان رائعاً في الصيف تحوَّل إلى كابوس في الشتاء، كما هو الحال في مجتمعات الصيادين ملتقطي الثمار الذين كان يتغير أسلوب حياتهم مع تغير

الفصول [178].

كتب أحدهم في مذكراته، بتاريخ 26 يوليو عام 1971 : الجو مشمس، كما ترى، بصحبة أناس لطفاء ؛ يحلو العيش بعيداً عن المدينة، من دون أن تُكرَه على الذهاب إلى العمل كل يوم. لكن تلك النغمة تغيرت في المذكرات نفسها بتاريخ 19 يناير 1972 : «الجو بارد جداً ... لا أستطيع المشي بعد الآن!» لم أُخلَق لأعيش عيشة راهب ! ... لا أريد أن أعيش في سجن مع الحيوانات ...هناك كثير من الأشياء التي يمكن رؤيتها في مكان آخر ولا أريد أن أعزل نفسي عنها». شرح لاكروا تماماً لماذا لم تصمد معظم هذه المجتمعات أمام اختبار الزمن. في المجتمعات القديمة لا يملك الفرد تقريباً أي خيار للخروج، فخياله كان يتقبل قيود العالم الذي يجب أن يعيش فيه. الدخول إلى المجتمعات الرهبانية مكلف. فلا بد لمن يدخل إليها أن يستحق هذا الانتماء. وما إن ينال مراده، حتى يحاول أن يثبت أنه يرقى إلى مستوى الجهود المبذولة والآمال المعلقة عليه. في المجتمعات التي تم إنشاؤها في الستينيات والسبعينيات، كان الناس يدخلون ويغادرون كما يحلو لهم : ما من إطار يدفع أعضاءه للثبات والاستمرارية. ومع حلول فصل الشتاء، تفشل الإرادة مما يتطلب إعادة بناء كل شيء.

لقد ازدهرت الثورة الرقمية على خلفية هذه الإخفاقات، وغالباً

(178) B. Lacroix, *L'Utopie communautaire : Mai 68, l'histoire sociale d'une révolte*,Paris, PUF, 1981.

ما كان روادها من المتظاهرين السابقين الذين يحلمون بخلق عالم غير قائم على التسلسل الهرمي ومبدأ الطاعة. إن الأربانيت [179] هي النواة الأولى لشبكة الإنترنت، أنشأتها وزارة الدفاع الأمريكية لحماية نظام اتصالات الجيوش من هجوم العدو. ومع ذلك ، سرعان ما تم توسيع هذا النظام ليشمل الجامعات التي جعلت منه أداة رئيسة لتفاعلاتها. وأصبح الحرم الجامعي هو المختبر الحي للتقنيات الجديدة. العالم الأكاديمي بحدّ ذاته هو النموذج الضمني للمجتمع الذي يبحث عن نفسه في الثورة الرقمية. العلماء على غرار قردة البونوبو هم في الغالب من النوع المتعاون. فهم يشاركون نتائج أبحاثهم، ويسارعون دائماً إلى كتابة المقالات مع مؤلفين آخرين من جامعات وبلدان أخرى. مثل الإغريق القدماء في الحاضرة، فإنهم يعهدون بالمسؤوليات الإدارية إلى مختلف أعضائهم بالتناوب، عن طريق القرعة إلى حدّ ما.

لكنَّ الأكاديميين يتنافسون أحياناً على نحو شرس أو وضيع لنشر المقال الذي سيتم الاستشهاد به أولاً حول هذا الموضوع أو ذاك. علاوة على ذلك، أثبت المجتمع الأكاديمي أنه أكثر عرضة

---

(179) شبكة وكالة مشاريع الأبحاث المتطورة أو الأربانيت ARPANET أو شبكة أربا هي شبكة حاسوب من أوائل شبكات نقل البيانات باستخدام تقنية تبديل الرزم في العالم، ربطت بين عدد من الجامعات والمؤسسات البحثية في الولايات المتحدة، واستُخدمت لأغراض علمية وأكاديمية. وهي النواة الأولى لشبكة الأنترنت وأول شبكة نقل بيانات تستخدم حزمة بروتوكولات الأنترنت (TCP/IP). كل من هاتين التقنيتين أصبحتا نقطة علاّمة في إنشاء شبكة الأنترنت. مُوّلت شبكة الأربانت بواسطة وكالة مشاريع البحوث المتطورة التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية وخضعت لإشرافها (المترجم)

لخطر الضغط التنافسي الذي أحدثته الثورة الرقمية مما هو مستعد للاعتراف به. أصبح تصنيف الباحثين عبر الإنترنت، بناءً على عدد استشهاداتهم، أمراً شائعاً، إذ بنقرة واحدة يتيح لك غوجل سكولار Google Scholar أو الباحث العلمي الخاص بغوغل، معرفة وضع أي باحث أكاديمي قياساً بزملائه، وهذا ما يزيد من حدّة المنافسة الشديدة التي لم تكن موجودة من قبل. لقد أظهرت دراسة من جامعة كاليفورنيا في بيركلي الصدمة التي حدثت نتيجة نشر رواتب الجميع عبر الإنترنت، إذ شعر أصحاب الرواتب المنخفضة بالإهانة بسبب العرض الوقح «لقيمتهم السوقية». ومع ذلك، فإنَّ ما يوحّد هذا المجتمع الغريب هو الإيمان المشترك بالعلم، وهذا الأمر قد يبدو ساذجاً للغاية في نظر الآخرين.

يمكن للعالِم أن يسمح لنفسه بأن يصرّح بكل ما يريد شريطة أن تكون نظريته قابلة للدحض بالتجريب أو قابلة للنقض من خلال المنطق المعاكس لأقرانه. إن «السرد الفوقي» métarécit لعلم محتمل هو الذي يوحّد أعضاء هذا المجتمع العلمي.

تقدم الحياة الأكاديمية نوعاً مثالياً عن «المجتمع الجيد» الذي سعت إليه الثورة الرقمية يقترب من الكمال ؛ فهو مجتمع أفقي وعلماني في آنٍ معاً. التسلسلات الهرمية فيه ضعيفة، على الأقل بالنسبة لبقية المجتمع : يمكن للباحث الشاب أن يتصدى لمعلّمه في أي وقت خلال الندوات العلمية. وهو مجتمع علماني في الرفض التأسيسي لهويته، ورفض كل حقيقة موحاة. مشكلته هي أن تكلفة

الدخول مرتفعة للغاية، على غرار الانتماء بالأمس إلى دير من القرون الوسطى. كم من الأطروحات والقراءات الجادة والتجارب المضنية تملأ مقابر أرواح الأكاديميين ! والنموذج الأكاديمي يتّسم بسمات **الزواج الداخلي** بشدة، إذ لا يعترف إلاَّ بشرعية أحكام الأقران. وهو في هذا الصدد ، يتماشى تماماً مع ثقافة التقوقع على الذات التي أسسها العالم الرقمي، ربما على صورته.

إن الجامعة، على الرغم من نقاط ضعفها، تقدم أنموذجاً لمجتمع قائم على الاحترام المتبادل، والثقة في القيم المشتركة. والتحدي الذي يواجه العالم المعاصر يكمن في توسيع هذه الفكرة لتشمل المجتمع بأسره. هذا ما يتطلب إعادة بناء المؤسسات الشاملة التي تكافح الفوارق الاجتماعية. يجب أن نجد، بالطريقة الجديدة التي نريد أن نعيش بها، المزيج الاجتماعي الذي أنتجته الشركات أو النقابات أو الصحف واسعة الانتشار. نحن بحاجة إلى جامعات يكون فيها التنوع الاجتماعي أمراً ضرورياً، مهما كان الثمن الذي يجب دفعه لتحقيق ذلك. وفي مجال الحياة السياسية، يجب أن نبحث عن أشكال من التنظيم تكون شاملة، من دون أوهام حول قدرة شبكات التواصل الاجتماعي على إنتاج بديل للأحزاب التقليدية بمفردها. فهذه الأحزاب كانت تتمتع بميزة التوفيق بين الأكوان الاجتماعية المختلفة، كاليسار الذي وفَّق في الأمس بين العامل والمعلم، واليمين الذي وفَّق بين البرجوازي والفلاح، وكان لهذه

الأحزاب ميزة البحث عن نقطة توازن بين الحلم والواقع. السياسة هي هذه الأرضية المتغيرة حيث لا توجد مصلحة لشخص معين في التفكير فيما يحلو له، ولا أهمية تذكر لصوت انتخابي معزول. ومع ذلك، فإنَّ الآثار الجماعية للمعتقدات الفردية كبيرة، فهي التي تشكل العالم الذي نعيش فيه. ويجب أن نكافح ضد الانحلال الرقمي المزدوج للعلاقة مع الآخرين ومع العالم الحقيقي. نحن لن نُحيي الموتى، ولن نهاجر إلى مجرة أخرى. لذا يجب أن نقبل بالعيش مع الأحياء وعلى هذا الكوكب.



دانيال كوهين

الإنسان الرّقمي
والحضارة القادمة

يسعى دانيال كوهين وهو مُؤَلِّفُ الكتب الأكثر مَبيعاً في فرنسا إلى تحليل ما يُسَمَّى «الحضارة» التي قلبت حياتنا رأسا على عقب، حيث أصبح البحث عن الحُبِّ عبر برنامج «تندر»، والتوظيف عبر الخوارزميات، وباتَ العمل يجري عن بُعْد ! أما الأحزاب السياسية فنجدها على تويتر ! وفي خِضَمِّ هذا العالم الجديد يقبع الإنسان اَلرَّقْمِيُّ الغارق في تناقضاته . فهو يريد السيطرة على كل شيء، لكنه هو نفسه غير عقلاني ومُتَهَوِّر، ومدفوع إلى سلوكيات إِدمَانِيَّة من خلال تلك الخوارزميات نفسها التي تراقب أصغر تفاصيل وجوده . إِلَّا أَنَّ ذلك لا ينبغي أن يدفعنا إلى اليأس والإحباط. فالثورة الرقمية ولدت من تطلُّعَات مجتمع يحلم بمعرفة لا نهائية، حيث لا تَفُوتُه شاردة ولا واردة . مجتمع تَخَلَّى عن الحقيقة اَلْمُوحَاة، وَتحَرَّرَ من تراتبيات الماضي الهرمية. إِنَّ طموح هذا الكتاب إِيجَاد الطريق لتحقيق تلك اَلْيُوتُوبْيَا !



ISBN: 978-603-8387-28-3
9 786038 387283
WWW.PAGE-7.COM